نجم الشيخ داغر

خطأ الأرض أم اختيار السّماء؟

غيبة الإمام المهدي

مؤسسة البلاغ

خطأ الأرض
أم اختيار السّماء؟
غيبة الإمام المهدي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الإسلامي - بناية حطيط
هاتف : 009613514905 - تلفاكس : 009611553119
نتشرف بالتواصل معكم E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

خطأ الأرض
أم اختيار السّماء؟
غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

نجم الشيخ داغر

مؤسسة البلاغ
بيروت - لبنان

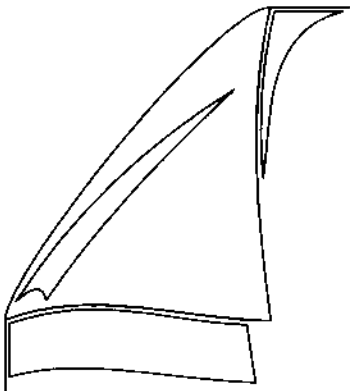

الإهداء.....

إلى الشمس التي تخترق سحاب الذنوب.. لتسطع على سويداء القلوب.. إلى وجه الله الذي نناجيه في خلواتنا.. إلى من به كنا.. ومن به نكون.. إليك يا سيدي يا أمل المستضعفين ويا حلم الأنبياء وبلسم الأولياء.. إليك يا بقية الله أرفع هذا المجهود.. راجياً منك القبول والرفع إلى رب السموات والأرضين.. مستشفعاً إشراك والديّ وولدي وأخوتي وزوجتي وأهل حزانتي وقرابتي ورحمي، الأموات منهم والأحياء.. وأخوتي من أهل الإيمان.. بأجر الكتاب إن كتب الله لنا أجر وهو الرؤوف الوهاب.

نجم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

رحمك الله يا جدي كم افتقدك واشعر بالشوق إليك. . . . . .

كم تساءلت وكم تفكرت كلما ذكرتك وأنت تتحدث بذلك الصوت الحنون عن صاحب الزمان (عجل الله فرجه الشريف) كما تحب دائماً أن تسميه.

من أين لك كل هذا اليقين وهذه البصيرة؟ وأنت ذلك الشيخ البسيط. . نعم عركتك الأيام وصارعتك السنون وخبرت الزمان.

ولكن من أين؟ وأنت الذي لست ممن ارتضع من حوزات النجف ولا تفقهت على يدي احد ما، ولا قرأت العلامات وإشارات آخر الزمان!. أن يكون لك كل ذلك اليقين وكل تلك الثقة بقرب ظهور إمامك وإمام العالمين (أرواحنا فداه).

مهلاً عزيزي القارئ، وكأني أسمعك تقول ما الغرابة في ذلك، واليوم الكل يتحدث عن هذا الموضوع.

الغرابة يا أخي العزيز، أن يبشر رجل بسيط في علمه كجدي بظهور الإمام عليه السلام ولكن متى؟ في سنوات الثمانينيات والحرب الصدامية الإيرانية في أوجها. حتى انه يسمي احد أحفاده الذي هو أخي (نصير) ويصر على أن هذا المولود سيدرك الإمام في أيام ظهوره المبارك راجياً أن يكون من أنصاره.

فترة الثمانينيات، نعم هي فترة، حيث لم يكن هناك دين ولا قيم ولا حشمة (إلا من البعض القليل الذي يكاد لا يذكر) وكان الجهل يطبق على الآفاق، حتى أن الناس صدقت أننا نحارب الفرس المجوس لفرط جهلهم وغفلتهم.

وما أشبه اليوم بالبارحة، وكأننا تلبسنا بلبوس جهل أهل الشام في حكم معاوية حينما أشاع بينهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام لا يصلي، فلم يكن منهم إلا أن اظهروا تعجبهم حينما علموا انه استشهد في المحراب وهو ساجد يصلي لربه، وكذا الحال في حربنا للثورة الإسلامية التي لم تعجب الملعون صدام ولا أسياده من الكفرة

والمستكبرين، على أي حال، الذي أريد أن أقوله أنه في خضم كل تلك التداعيات والفتن يظهر رجل من عامة الناس، ويجري الله الحق على لسانه من دون أن يتأثر بذلك الجو الفاسد، ويزرع في قلبي الأمل، ويجعلني أتطلع لغد مشرق ترفع فيه جميع الظلامات من الأرض، ويزرع بي النفور من الظلم والظالمين من خلال تلك البصقة التي كان ينثرها على وجه صدام الملعون كلما ظهر وجهه الكالح على شاشة التلفاز.

كان هذا مدخلاً للحديث، أما ما أريد أن أصل إليه، هو أن جدي رحمه الله قد زرع بي حبي للإمام المنتظر (عج). فرحت أتساءل عن أحواله وعن يوم ظهوره المبارك وما يرافقه من أحداث، إلا أني لم أجد من يجيبني بشكل يجعلني أسكن وأطمئن، كبرت وكبرت تساؤلاتي معي، وأكثر ما كان يؤرقني هو سبب غيبته، ولم امتد به كل هذا الزمن من دون أن يظهر؟ ألم تمتلئ الدنيا ظلما وجوراً، الم يُقتل الشيعة في كل مكان، ألم يسخر منا الأعداء بسبب إيماننا بظهوره المبارك؟ ألم، ألم، ألم، . . .؟. إذن، لم لا يظهر ويريح الناس من كل هذا البلاء والعذاب؟!.

وبغية وضع حد لحيرتي وتساؤلاتي التي لا تنقضي شمرت عن ساعد الجد ورحت ابحث في طيات الكتب تارة، ومستفهما من أهل الاختصاص الذين وفقت للتعرف ببعضهم تارة أخرى، ومن خلال البحث والتدبر في روايات أهل العصمة والطهارة عليهم السلام اكتشفت مدى سذاجتي وجهالتي بهذا المشروع العظيم، الذي خطه الله تبارك وتعالى للوصول بالإنسان إلى أكمل درجات الإنسانية، وعرفت حينها أننا حينما كنا ندعو أن يُظهر الله الإمام، كان مثلنا كالذي يطلب من الله الذرية الصالحة وهو لم يتزوج بعد، لأن المسألة فيها أبعاد خطيرة وشروط حتمية لا بد أن تتوفر من اجل إنجاح المشروع، وأي مشروع؟ إقامة دولة الله في الأرض.

من هنا رحت أبحث عن أسباب الغيبة وهل يقف وراءها بعد سماوي غيبي أم الذي يحول بيننا وبين التمتع بتلك الطلعة البهية احد الأبعاد الأرضية؟ وبكلمة أخرى، هل سبب الغيبة هو خطأ الأرض أم اختيار السماء؟.

وإليك عزيزي القارئ ما توصلت إليه بتوفيق من الله وتسديده وأرجو من الإمام بقية الله في الأرض أن يرفعه إلى الله شافعاً في قبوله متجاوزاً ما به من نقص أو خطأ سائلاً الله سبحانه أن يغفر لي ويجعلني من أنصاره ومقوية سلطانه ومن المستشهدين بين يديه.

تمهيد

إن مما لا شك فيه أن صاحب أي مشروع يريد أن يكتب لمشروعه النجاح لا بد له من أن يوفر العوامل والمقومات الكفيلة لإنجاح مشروعه.

وفي ما يتعلق ببحثنا فسينصب على دراسة ثلاث عوامل أو مقومات أساسية تمثل العمود الفقري للمشروع، وسيتوقف نجاحه على مدى قابليتها على النجاح من جهة، ومدى توفرها من جهة أخرى.

وأهم هذه العوامل من وجهة نظرنا تتلخص في أمور ثلاثة:

الأول: الفكرة (ويجب أن تكون قابلة للتطبيق وتفي بالغاية المرجوة من المشروع).

الثاني: القائد أو المدير المنفذ للمشروع (وهنا يجب أن يكون أدرى الناس بطبيعة المشروع واحرص الناس على إقامته لما سبق له من استيعاب للفكرة ومدى الحاجة الماسة لإقامتها).

الثالث: الأذرع الصالحة الماهرة (الأيدي العاملة)، (من الضروري هنا أن تتوافر لديهم الكفاءة والقدرة على استيعاب فكرة المشروع بالإضافة إلى حتمية تمتعهم بالطاعة والانقياد للقائد المنفذ من اجل ضمان تحقيق رؤية صاحب العمل وسريان إرادته إلى جميع مفاصل المشروع من دون اجتهادات تضر بالوحدة العامة للمشروع).

الآن، لأضعك في الصورة عزيزي القارئ الكريم وأقل لك إنني كنت أتحدث عن مشروع الولاية الكبرى في إقامة دولة العدل الإلهي، وعبرت عن الخالق العظيم تبارك وتعالى بصاحب المشروع، والمشروع أو الفكرة التي تحدثت عنها هو الإسلام، والقائد المنفذ للمشروع هو الإمام (روحي فداه)، بينما رمزنا لأنصاره البررة بالأذرع الصالحة.

والآن السؤال: ما الذي يمنع الإمام من الظهور؟ ولماذا لم يتحقق الوعد الإلهي بذلك؟ هل السبب وراء غيبته اختيار السماء من دون تبيان الأسباب التي أدت إليها، والمراد منا التسليم والإذعان وعدم البحث وراء ذلك كما يدعيه البعض؟!!.

أم أن العلة وراء ذلك هي خطأ الأرض، أي عدم إيفاء الناس بالتزاماتهم تجاه ربهم وتجاه إمامهم الذي يعيش مرارة الغيبة وآلامها في سبيل إنقاذهم من براثن الجهل والتخلف واستكبار الظالمين والطواغيت؟.

وبكلمة واحدة، لماذا لم يتحقق المشروع الإلهي؟ ومن هو المسؤول عن ذلك في الدوائر التي حددناها؟ فهل تقع المسؤولية على عاتق السماء، يعني (الإسلام والقائد)، أم في دائرة الأرض (وهي الأذرع الصالحة)؟.

ونعني باختيار السماء: أن الله تبارك وتعالى أراد ذلك، والمطلوب منا ألا نبحث عن السبب، وأما خطأ الأرض: فيعني أن الله تبارك وتعالى أراد للإمام الظهور ولكن من خلال السنن التي ثبتها في الأرض وأجرى الحياة على وفقها، وبالتالي فإن تعطيل هذه السنن هو مسؤولية الإنسان أولاً وأخيراً.

ومن أجل ذلك حللنا مقومات المشروع إلى هذه الثلاثة لكي تتسنى لنا مناقشتها كلا على حدة، وسنبدأ بمناقشة الأطروحة التي تقول إن اختيار السماء هو السبب الكامن وراء الغيبة، وسنثبت بعون الله عدم صحة هذه النظرية التي تتناقض ومبدأ العدل واللطف الإلهي، وأن العلة الحقيقية وراء الغيبة هي خطأ الأرض، هذا ما سيتضمنه الفصل الأول من البحث، أما الفصل الثاني فسيعتني بالدائرة الأولى من الدوائر الثلاث التي شكلت أعمدة المشروع وهي (الفكرة) أي الإسلام، ونستهل هذا الفصل بالتساؤل، هل أن الإسلام غير قادر فعلاً على مواكبة العصر وانه لا يصلح لقيادة الحياة حاليا كما يدعي ذلك مخالفوه؟.

ونناقش في الفصل الثالث الدائرة الثانية للمشروع (القائد المنفذ) الإمام (عج) وهل يوجد ثمة احتمال بعدم جاهزيته لقيادة ثورة الإصلاح الكبرى في الأرض، كما يقول به البعض؟.

وفي الفصل الرابع سيأتي دور البحث في توافر أو عدم توافر الأذرع الصالحة الكفوءة التي يحتاج إليها الإمام في القيام بنهضته الإصلاحية العظمى ومدى تأثير

ذلك في إقامة المشروع، ومن خلال ذلك سنستكمل مناقشة علل الغيبة المذكورة في الكتب، وسنثبت بعون الله أنها كلها ترجع لعلة واحدة هي عدم توفر العدة المعدودة المخلصة.

ومن ثم ستظهر لك عزيزي القارئ أي الدوائر هي المسؤولة عن غيبة الإمام عليه السلام وأين تستوطن العلة الحقيقية المسؤولة عن غيبته وتأخير تنفيذ وإقامة المشروع الإلهي.

أما في الفصل الخامس فسنبين الشروط أو الصفات التي وضعها القادة المعصومون عليهم السلام لحملة مشروعهم ولكل من يطمح بأن يكون من أنصار بقية الله في الأرض.

سنبحث هذا كله اعتماداً على الله تبارك وتعالى مسترشدين بالقرآن والروايات المعصومية، وسنجعلهما السراج الذي يضيء لنا ظلمة الطريق، إضافة إلى أقوال العلماء الأجلاء.

الفصل الأول

اختيار السماء وعلة الغيبة

إن المتابع والباحث عن علة الغيبة في الآثار المعصومية، سيجد أنهم عليهم السلام قد أشاروا (وبشكل واضح) للعلة الرئيسة للغيبة ولكن كعنوان إجمالي، ثقة منهم بأن المتتبع الحريص على سبر أغوار الموضوع، سيلاحظ أنه مع أنهم قد بينوا أكثر من مصداق، إلا إن العلة الحقيقية للغيبة وبالخصوص تلك التي تتعلق بذمة المكلفين، قد تمت الإشارة إليها بوضوح، من خلال التأكيد في أحاديثهم الشريفة على موضوعة خوف الإمام من أن يتم تصفيته كآبائه المعصومين، ولا يخفى انه لو وجد منعة من أنصار وأعوان لما كانت سنته كسنة موسى بن عمران عليه السلام في الاختفاء والغيبة، حينما قال الله تبارك وتعالى على لسانه في القرآن الكريم ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1]، وأنت تعلم عزيزي القارئ أن لهم على الإمام ذنباً عظيماً، فإن كان موسى الكليم أحد أولي العزم، اختفى مخافة القتل لأنه قتل فرعونياً واحداً فما بالك بالإمام وهم يعلمون أن عروشهم وعروش كل الظالمين والفراعنة ستسقط على يديه. وأرى أن من المناسب في هذا المقام استعراض أهم الأسباب التي بينتها الروايات التي تحدثت عن علة غيبته (روحي فداه) لنرى هل أن فيها ما يشير إلى إرادة السماء ذلك من دون سبب يذكر؟ أم أن العلة وراءها عدة أسباب ترجع في جلها إلى قلة النصرة والمنعة وهو ما عبرنا عنه بـ (خطأ الأرض).

الأول: انه سر من أسرار الله وان الحكمة من غيبته وجه الحكمة من غيبات الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: الخوف من القتل.

الثالث: انه غضب من الله على الناس.

الرابع: حتى يصفو الكدر ويبقى الخلص من المؤمنين.

الخامس: حتى لا تبقى فئة تقول لو حكمنا لعدلنا.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

السادس: حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً.

السابع: انتظاره للعدة المعدودة من أصحابه.

الثامن: حتى لا تكون لأحد الطواغيت بيعة في عنقه.

التاسع: لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا (أي لو خرجت ودائع الله من المؤمنين من أصلاب آبائهم الكافرين).

هذه ابرز الأسباب التي أشارت لها الروايات المعصومية بأنها تقف وراء الغيبة.

علة واحدة لجميع الأسباب

إن من يدقق النظر في الأسباب التي سنتعرض لمناقشتها هي ورواياتها، يجد أنها جميعا تعود لعلة واحدة هي (خطأ الأرض)، وهذا ما سنثبته إن شاء الله في الفصول اللاحقة.

أ: إنها سر من الله

عن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول، إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل فقلت له ولم جعلت فداك، قال لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم، قلت فما وجه الحكمة في غيبته، فقال وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيبات من تقدم من حجج الله تعالى ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى عليه السلام إلا وقت افتراقهما، يا ابن الفضل إن هذا أمر من أمر الله وسر من الله وغيب من غيب الله ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة وان كان وجهها غير منكشف[1].

إذا أردنا أن نناقش هذه الرواية الكريمة ونفهمها بشكل جيد علينا أن نلتزم بالضابطة التي وضعها الأئمة عليهم السلام في كيفية التعامل مع كل ما ينقل عنهم، وهو العرض على القرآن الكريم وجعله الحاكم على صحة الكلام المنقول عنهم، لأنهم لا يخالفون كتاب الله لا في صغيرة ولا كبيرة ولن يفترقوا عنه أبداً، وننطلق في البحث والمناقشة من عدة قواعد قرآنية عظيمة، أولاها أن الله سبحانه وتعالى حاشاه

(١) الاحتجاج ج٢/ ٣٧٦، كمال الدين ج ٢/ ٤٨٢، منتخب الأنوار المضيئة/ ٨١.

أن يريد ظلما للعباد كما عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١] وفي الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣] وكذا قوله: ﴿مِّثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[٤].

وآيات أخر لم نأت بها رعاية للاختصار، كلها تتحدث بنفس المضمون، إذن نفهم من هذا التأكيد من البارئ ﷻ من خلال تكراره لهذه الآيات، أن عدم ظلم البارئ سبحانه مسألة أساسية يجب أن يفهمها الإنسان في علاقته مع الله تبارك وتعالى. وكذا القاعدة القرآنية الأخرى في عدم تبديل النعمة التي أنعمها الله على الإنسان إلا إذا غير الإنسان من حاله وكفر بها، وهذا ما جاء في الآية المتقدمة من سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾[٥].

وقبل الدخول في مناقشة الرواية نحتاج إلى قاعدة قرآنية ثالثة مفادها، أنه ما من مصيبة تصيب الإنسان إلا كان هو المسؤول الأول عن حدوثها، قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[٦] وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[٧]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٥١ - ٥٣.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٠.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣١.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٧) سورة النساء، الآية: ٦٢.

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. هذا إضافة للآيات التي أوردناها آنفا مثل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢].

يثبت القرآن الكريم حقيقة واضحة جدا مفادها أن الإنسان هو المسؤول الأول عما يلاقيه من مصائب في الحياة الدنيا (طبعاً يخرج من هذه القاعدة الأئمة والأنبياء لأن مصائبهم من نوع آخر، حسب مقتضى العصمة).

إذن القاعدة الأولى: إن الله لا يظلم خلقه، برهم وفاجرهم، وحاشاه أن يفعل ذلك.

والثانية: إن الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عما يلاقيه من مصائب.

والثالثة: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

من خلال هذه القواعد الثلاث ندخل لمناقشة الرواية المتقدمة، ونبدأ بهذا السؤال لماذا يتحمل الناس وبالخصوص شيعة أهل البيت كل هذا البلاء والعذاب؟ فان لم يكن لهم يد بغيبة إمامهم وكان الأمر من الله تبارك اسمه، فلماذا يتحملون كل هذا العذاب من تقتيل وتشريد وتجويع... الخ من العذابات على مدى كل هذه السنين؟ وما الحكمة من ذلك؟ أليس هذا من قبيل تكليف الناس ما لا يطيقون؟ وما الحكمة من تعذيب الناس؟ والله تبارك وتعالى لم نتعود منه إلا الرحمة بخلقه، وان كان هذا سراً من الله كما تقول الرواية (التي لابد أن نتدبرها بإمعان) ألا يخالف ذلك هذه القواعد القرآنية الثلاث؟. هذا إذا قلنا أن المفهوم من السر أنه لا يد للناس في غيبة إمامهم وان الأمر برمته موكول لإرادة الخالق ﷻ، وهذا يخالف العديد من الروايات التي كشفت أن الذي ألجأه للغيبة هو خوفه من القتل (وسيأتيك المعنى من الخوف وأنه يرتبط بالمشروع لا بنفسه (روحي فداه). وهذا يعني أن للسر معنى آخر ليس له علاقة بتبرئة ساحة الناس بتغييب حجة الله عنهم، والمنصّب من قبل الله سبحانه لقيادتهم نحو الكمال.

لقد أثبتنا بنص القرآن (مع أنه ثابت عقلاً) أن الله لا يريد ظلماً للعباد، ولكن من المسؤول عما يعانيه الناس من ظلم؟ أنا لا أستطيع بل من غير الصحيح أن أدعي

(١) سورة القصص، الآية: ٤٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

أن الله هو المسؤول عن تسليط الظالمين على خلقه بلا ذنب منهم استحقوا عليه ذلك (حاشاه)، لأن هذا خلاف ما تعودنا عليه من لطفه وعدله الثابتين بالعقل قبل النقل، ولماذا يدعي أحد ذلك والقرآن يصرح بأن الله لا يريد ظلما للعباد (ومن أصدق من الله قيلا). المحصلة أن من يدعي أن الله تبارك وتعالى سلط الظالمين على خلقه من دون علة بيّنها، عليه أن يراجع اعتقاداته ويتوب إلى الله سبحانه من هذه الشبهة، وعليه أن يقرأ القرآن بتدبر. وهناك عبارات لطيفة قرأتها لشيخ الطائفة رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض رده على شبهة أوردها بعض المخالفين يزعمون فيها قبح الغيبة!، يقول الشيخ الطوسي: (إن انبساط يده والخوف من تأديبه، إنما فات المكلفين لما يرجع إليهم، لأنهم أحوجوه إلى الاستتار بأن أخافوه ولم يمكنوه، فأتوا من قبل نفوسهم)[1]، يؤكد الشيخ الطوسي في رده هذا على أن علة الغيبة يقف وراءها خطأ الناس وعدم تمكينهم الإمام من أنفسهم ليشرف على تأديبهم وتربيتهم تربية إسلامية، وبهذا يكون المسؤول الأول عما يعانيه الناس من تسلط الظالمين والطواغيت هم الناس أنفسهم فأبدلهم الله به شرار خلقه، وفي هذا يقول الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كما عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال وجدنا في كتاب رسول الله «.. وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم فيدعو أخيارهم فلا يستجاب لهم»[2].

إذن وفق هذه القاعدة القرآنية والحديث الشريف، لا يمكن أن يسلط الله سبحانه الظالمين على رقاب الناس بحيث يحيلون الحياة إلى جحيم لا يطاق من دون ذنب اقترفه الناس، وحاشاه أن يفعل، بل إن الناس هم الذين يختارون ملوكهم ونوع الحياة التي يحيونها بملء إرادتهم، وردّ أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ عن الشبهة التي تقول إن الغيبة إنما استحدثها الله تبارك وتعالى لأجل اختبار خلقه وامتحانهم، فيقول: «وأما ما روي من الأخبار من امتحان الشيعة في حال الغيبة وصعوبة الأمر عليهم واختبارهم للصبر عليه، فالوجه فيها الإخبار عما يتفق من ذلك من الصعوبة والمشاق، لا أن الله تعالى غيّب الإمام ليكون ذلك، وكيف يريد الله ذلك، وما ينال المؤمنين من جهة

(١) بحار الأنوار ج٥١/ ١٧٠، وراجع رسائل في الغيبة للمفيد (رحمه الله): ٣/ ١١.
(٢) الكافي ج٢/ ٣٧٤. الأمالي للصدوق/ ٣٠٨، علل الشرائع ج٢/ ٥٨٤، تحف العقول/ ٥١.

الظالمين، ظلم منهم ومعصية، والله لا يريد ذلك، بل سبب الغيبة هو الخوف على ما قلناه وأخبروا..»[١].

يبين الشيخ أن من غير الممكن أن يكون الله تبارك وتعالى غيّب وليه لاختبار الشيعة مع ما تسببه الغيبة من تسلط الظالمين عليهم من دون معصية أو ذنب ارتكبوه واستحقوا عليه هذه العقوبة، ويؤكد على أن الروايات التي تحدثت عن المشاق التي ستلاقيها الشيعة في عصر الغيبة إنما هي نتيجة الغيبة لا أن الله غيب وليّه حتى يلاقي الشيعة ألوان المذلة والهوان فافهم.

وبهذا نرجع علة الغيبة إلى خطأ أهل الأرض لا اختيار السماء، على أننا يجب أن نوضح مسألة مهمة جداً وهي أننا حينما نقول خطأ الأرض لا بمعزل عن إرادة السماء وهيمنتها وإنما أردنا تنزيه الباري سبحانه عن أن يكلف خلقه ما لا يطيقون، لأنه ترك لهم حرية اختيار طريقة الحياة التي يحيونها ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢].

وعليه فلا بد أن ما يلاقيه الناس من بلاء وعذاب، من صنع أيديهم، وهذا ما تقوله القاعدة الثانية.

القاعدة الثانية

ونستهل مناقشتها بالسؤال التالي، هل أن غيبة الإمام مصيبة أم لا؟.

فإن قلت إنها ليست مصيبة فقد جانبت الحقيقة، وان انسجمت مع صوت العقل والفطرة وأجبت بأنها من أعظم المصائب، يأتي السؤال الملح، إذن من هو المسؤول عن وقوعها؟. فيجيبنا القرآن بشكل لا يدع مجالاً لأي تأويل، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[٣]، فيرجع الأمر إلى ما قلناه آنفا، من تبرئة الباري عزوجل واثبات خطأ الأرض.

(١) بحار الأنوار ج٥٢/ ١٠٥.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

ولا بد لي هنا من إيراد رواية عن الإمام الصادق عليه السلام (. . . فلما طال على بني إسرائيل العذاب ضجوا وبكوا إلى الله أربعين صباحاً فأوحى إلى موسى وهارون يخلصهم من فرعون فحط عنهم سبعين ومائة سنة، قال: فقال أبو عبد الله: هكذا أنتم لو فعلتم لفرج الله عنا، فاما إذا لم تكونوا فان الأمر ينتهي إلى منتهاه)[١].

أما القاعدة الثالثة فالرواية محل البحث تخالفها أيضاً وهذا لا يجوز، والمعني بقولنا لا يجوز، هو التناقض ما بين القرآن الناطق (الإمام) والقرآن الصامت (الكتاب)، فإننا نعتقد أنهما يصدق بعضهما بعضا، ولا يجوز عليهما الافتراق في أي حال من الأحوال، لذلك لا يمكن أن يكون هناك تناقض إلا في العقول التي فهمت الرواية بهذا الفهم.

القاعدة القرآنية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢] وفي آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، ذكر في الروايات المعصومية في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٤]، (أنه سأل أبا حنيفة أبو عبد الله عن هذه الآية فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت والماء البارد، فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه، قال فما النعيم جعلت فداك؟ قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد. . وبنا هداهم الله للإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي وعترته)[٥]، وكذا في تفسير قوله تعالى: ﴿. . . وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٦]، النعمة الظاهرة الإمام الظاهر والنعمة الباطنة الإمام الغائب[٧].

ولعل في الآية نكتة لطيفة يمكن أن نشير إليها بأنه (عد الله تبارك وتعالى النعمة الباطنة، الإمام الغائب، فمع أنه غيبه عن خلقه بسبب آثامهم وشرورهم، إلا أنه عده

(١) تفسير الميزان ج١٠/ ١٧١
(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
(٤) سورة التكاثر، الآية: ٨.
(٥) تفسير الميزان ج١٦/ ١٢٦.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٢٠.
(٧) تفسير الأمثل ج٢/ ٤٢٤.

نعمة حتى وهو غائب، ولعل هذا يوضح لنا معنى قولهم عليهم السلام أن (وجه الانتفاع به في غيبته هو وجه الانتفاع بالشمس إذا غيبها السحاب).

على أي حال، فإذا كان الإمام في القرآن الكريم هو النعمة التي أسبغها الله على الناس، فلماذا سلبها منهم؟ قرأنا الإجابة قبل قليل في الآيات المتقدمة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

أخي القارئ الكريم أرجو منك الانتباه إلى عظمة ودقة البارئ تبارك وتعالى في اختيار كلمات آياته، حيث ختم الآية الأخيرة بهذه الكلمات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هل تدبرت معي في مراده عز وجل، وهل فهمت العلاقة بين هذه الآية المباركة ورواية الإمام الصادق عليه السلام التي بين فيها خريطة النجاة من فراعنتنا وطواغيتنا، واستنشاق روح الفرج، يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ويقول الصادق عليه السلام إذا فعلنا كما فعل بنو إسرائيل وضججنا إلى الله بالدعاء فان الله سيرفع عنا البلاء والعذاب كما رفعه عن بني إسرائيل، وسيظهر لنا مهدينا كما أظهر لهم مهديهم موسى عليه السلام وهذا ما تشير إليه الآية المتقدمة بأن الله سميع عليم، بمعنى أن الله ينتظر أن يسمع دعاءكم ورجوعكم وإنابتكم إليه وهو العليم بحالكم وما تعانونه، أو هو العليم بما يصلحكم وليس غير الدعاء والتوبة وإظهار الندم، وهذا المعنى تجده كثيرا في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[2].

من هنا وبعد أن عرضنا الرواية على كتاب الله وناقشناها وفق القواعد القرآنية، وثبت من خلالها عدم صحة نسبة الغيبة إلى الله تبارك وتعالى بمعزل عن العلة الحقيقية وراءها، والتي هي ظلم الناس لأنفسهم، بعد أن استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وغيروا وكفروا بالنعمة فغير الله وسلبهم إياها، وبهذا كسبوا ما صنعته أيديهم، على هذا يجب أن نتغاضى عن هذه الرواية ونضرب بها عرض الجدار لأنها لم تتطابق والمعنى القرآني، بيد أننا ارتأينا أن نحتاط في المسألة ونحاول أن نجد لها تخريجة ما ربما كانت هي المقصد وراءها.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٤.

معنى السر

فلا يبقى أمامنا إلا التساؤل عن مراد الإمام الصادق بقوله لابن الفضل الهاشمي، إنها (الغيبة) سر من الله، وغيب من غيب الله، لم يؤذن لنا في كشفه لكم، مع أن جده المصطفى وآباءه البررة عليهم السلام قد بينوا في أكثر من موضع علة الغيبة كما عددناها في أول البحث!! بل هو نفسه قد جاء عنه ما يوافق آباءه!، إذن لا بد أن يكون في المسالة بعدٌ آخر واحتمالات أخرى وراء حديثه هذا مع ابن الفضل الهاشمي، وربما منها أن الإمام لم يرد أن يكشف للسائل لسبب نجهله، وأنهم أمروا أن يحدثوا الناس على قدر عقولهم أو بما يتناسب مع مصلحتهم، ومثل هذا حدث كثيراً منهم عليهم السلام.

فهاهو أمير المؤمنين لا يرضى أن يكشف لعمر ابن الخطاب عن اسم المهدي ويقول إن رسول الله قد أمره بذلك مع أنه من الثابت أن الرسول الأعظم هو أول من صرح باسم المهدي بقوله: اسمه كاسمي وكنيته كنيتي ونحن نعلم أنهم نفس واحدة، فلا يبقى لنا مجال إلا أن نقول إن المصلحة كانت ألا يكشف الأمر لعمر لاسيما أنه لم يكن من المتتبعين لأحاديث رسول الله ولا من الحريصين على جمعها وحفظها وتعلمها، بل كان حريصاً على إتلافها ومنع الناس من حفظها وتعلمها، فلعل الأمر مع الهاشمي كان من هذا القبيل (أي هناك مصلحة في عدم الكشف)، مع الفارق بين ولاء الرجلين طبعاً، وكانت المصلحة تتطلب ألا يطلع على علة الغيبة، والذي يدل على ذلك أن الإمام قد لمح له بالجواب الحقيقي، بقوله إن وجه الحكمة من غيبته وجه الحكمة من غيبات الأنبياء، والمتتبع لقصص الأنبياء يرى أن السبب وراء غيباتهم هو الخوف من الظالمين لعدم وجود أنصار يحمونهم ويدافعون عنهم ويوفرون لهم الجو الملائم لنشر الرسالة، على هذا يمكن ألا نتعامل مع الرواية ولا نعتد بها لعدة أسباب.

الأول: لعدم انسجامها مع الأصول التي قررها القرآن الكريم.

الثاني: أنها لم ترد عن جميع الأئمة حتى ولو مضموناً، كما تعودنا منهم

بالتأكيد على المسائل المهمة التي تمس العقائد الرئيسة التي يعتمد عليها الدين الحق، ومنها قضية الإمام المهدي، فإن الرواية أوردت عن الإمام الصادق فقط ولم ترو عن غيره، مع حساسيتها وأهميتها في توضيح معنى الغيبة الذي طالما أرق الناس، وهذا من الأسباب التي تدعونا لعدم الاعتماد عليها. نعم جاءت روايات أخرى ورد فيها لفظ السر، بيد أننا نعتقد أنها كانت بصدد التحدث عن مقام الإمامة والتأكيد على مدى أهمية تمسك الناس بها، وسيتبين لك من خلال السياق مدى صحة ما نقول.

فعن أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري قال: دخلت على أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن الخلف من بعده فقال لي مبتدئا: يا أحمد بن إسحاق إن الله تبارك و تعالى لم يخل الأرض منذ خلق آدم ولا يخليها إلى أن تقوم الساعة من حجة لله على خلقه به يدفع البلاء عن أهل الأرض وبه ينزل الغيث وبه يخرج بركات الأرض، قال فقلت له يا ابن رسول الله فمن الإمام والخليفة بعدك فنهض مسرعا فدخل البيت ثم خرج وعلى عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء الثلاث سنين... قلت يا ابن رسول الله وإن غيبته لتطول قال إي وربي حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر القائلين به ولا يبقى إلا من أخذ الله عز وجل عهده لولايتنا وكتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه يا أحمد بن إسحاق هذا أمر من أمر الله وسر من سر الله وغيب من غيب الله فخذ ما آتيتك واكتمه وكن من الشاكرين تكن معنا غدا في عليين[1].

السياق واضح الدلالة في أن السائل إنما جاء مستفهما عمن هو الخلف والإمام من بعد الإمام العسكري، وإذا انتبهت عزيزي القارئ لقول الإمام لأحمد بن إسحاق (حتى يرجع عن هذا الأمر) انه يقصد الإمامة، ولذلك فان أحد أسماء الإمام المهدي هو صاحب الأمر، أي (المتولي شأن الإمامة). ومن ثم يقول إنها سر من سر الله وغيب من غيبه لأنها حقا كذلك، أولاً لأن الغيب غالبا ما يفسر بالإمام الغائب كما في تفسير أغلب المفسرين لأولى آيات البقرة وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

(١) كمال الدين ج٢/ ٣٨٤ - ٣٨٥، كشف الغمة ج٢/ ٥٢١ و٥٢٦ إعلام الورى/ ٤٢٥ و٤٤٠. مثله بحار الأنوار ج٣٨/ ١٢٧ مثله اليقين/ ٤٩٥ لابن طاووس.

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]، فان اغلبهم قالوا إن الغيب هنا هو الإمام المهدي. كما في تفسير نور الثقلين عن يحيى بن أبي القاسم قال، سألت الصادق جعفر بن محمد عن قول الله عزوجل : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[٢] فقال: المتقون شيعة علي والغيب هو (الحجة الغائب)، وشاهد ذلك قول الله عزوجل : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[٣] (فاخبر عزوجل أن الآية هي الغيب، والغيب هو الحجة وتصديق ذلك قول الله عزوجل : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[٤] يعني حجة[٥]. كما وردت رواية أخرى جاء فيها لفظ السر والغيب والأمر وهي هذه (عن ابن عباس قال: قال رسول الله إن علي بن أبي طالب إمام أمتي وخليفتي عليها من بعدي ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الله به الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً والذي بعثني بالحق بشيراً إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر فقام إليه جابر بن عبد الله الأنصاري فقال يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة قال إي وربي وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين يا جابر إن هذا الأمر أمر من أمر الله وسر من سر الله مطوي عن عباد الله فإياك والشك فيه فإن الشك في أمر الله عزوجل كفر)[٦]. لاحظ عزيزي القارئ كيف يؤكد الرسول الأعظم على أن الشك في أمر الإمامة كفر، لا الشك في غيبته فافهم.

وذلك لأن سياق الرواية إنما كان للحديث عمن هو الإمام والخليفة من بعد رسول الله ولم يكن الحديث عن الغيبة إلا عرضيا، وسآتيك بأدلة ننتهي من خلالها من هذا الموضوع ونثبت أن السر يتعلق بكنه الإمامة لا الغيبة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٠.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.
(٥) تفسير نور الثقلين ج١/ ٣٣، كمال الدين ج ١/ ١٧ و١٨.
(٦) كمال الدين ج١/ ٢٨٨.

عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي الْعَلَاءِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام : الْأَوْصِيَاءُ طَاعَتُهُمْ مُفْتَرَضَةٌ قَالَ نَعَمْ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ[1]. إذن الأمر أمر الإمامة، وولي الأمر هو الإمام.

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله يقول: أعطاني الله تعالى خمساً وأعطى علياً خمساً أعطاني جوامع الكلم وأعطى علياً جوامع العلم وجعلني نبياً وجعله وصياً وأعطاني الكوثر وأعطاه السلسبيل وأعطاني الوحي وأعطاه الإلهام وأسرى بي إليه وفتح له أبواب السماء والحجب حتى نظر إلي ونظرت إليه قال ثم بكى رسول الله، فقلت له ما يبكيك فداك أبي وأمي فقال: يا ابن عباس إن أول ما كلمني به أن قال يا محمد انظر تحتك فنظرت إلى الحجب قد انخرقت وإلى أبواب السماء قد فتحت ونظرت إلى علي وهو رافع رأسه إلي فكلمني وكلمته وكلمني ربي عزوجل فقلت يا رسول الله بم كلمك ربك قال: قال لي: يا محمد إني جعلت علياً وصيك ووزيرك وخليفتك من بعدك فأعلمه فها هو يسمع كلامك فأعلمته وأنا بين يدي ربي عزوجل فقال لي قد قبلت وأطعت فأمر الله الملائكة أن تسلم عليه ففعلت فرد عليهم السلام ورأيت الملائكة يتباشرون به وما مررت بملائكة من ملائكة السماء إلا هنؤوني وقالوا لي يا محمد والذي بعثك بالحق لقد دخل السرور على جميع الملائكة باستخلاف الله عزوجل لك ابن عمك ورأيت حملة العرش قد نكسوا رؤوسهم إلى الأرض فقلت يا جبرئيل لم نكس حملة العرش رؤوسهم فقال يا محمد ما من ملك من الملائكة إلا وقد نظر إلى وجه علي بن أبي طالب استبشاراً به ما خلا حملة العرش فإنهم استأذنوا الله عزوجل في هذه الساعة فأذن لهم أن ينظروا إلى علي بن أبي طالب فنظروا إليه فلما هبطت جعلت أخبره بذلك وهو يخبرني به فعلمت أني لم أطأ موطئاً إلا وقد كشف لعلي عنه حتى نظر إليه قال ابن عباس قلت يا رسول الله أوصني فقال عليك بمودة علي بن أبي طالب والذي بعثني بالحق نبياً لا يقبل الله من

(١) الكافي ج١/ ١٩٠، مستدرك الوسائل ج١٧/ ٢٧١.

عبد حسنة حتى يسأله عن حب علي بن أبي طالب وهو تعالى أعلم فإن جاءه بولايته قبل عمله على ما كان منه وإن لم يأت بولايته لم يسأله عن شيء ثم أمر به إلى النار يا ابن عباس والذي بعثني بالحق نبياً إن النار لأشد غضباً على مبغض علي منها على من زعم أن لله ولدا يا ابن عباس لو أن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين اجتمعوا على بغضه ولن يفعلوا لعذبهم الله بالنار قلت يا رسول الله وهل يبغضه أحد قال يا ابن عباس نعم يبغضه قوم يذكرون أنهم من أمتي لم يجعل الله لهم في الإسلام نصيباً يا ابن عباس إن من علامة بغضهم له تفضيلهم من هو دونه عليه والذي بعثني بالحق ما بعث الله نبياً أكرم عليه مني ولا وصياً أكرم عليه من وصيي علي قال ابن عباس فلم أزل كما أمرني رسول الله وأوصاني بمودته وإنه لأكبر عملي عندي قال ابن عباس ثم مضى من الزمان ما مضى وحضرت رسول الله الوفاة، حضرته فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله قد دنا أجلك فما تأمرني فقال يا ابن عباس خالف من خالف علياً ولا تكونن له ظهيراً ولا وليا قلت يا رسول الله فلم لا تأمر الناس بترك مخالفته قال فبكى حتى أغمي عليه ثم قال: يا ابن عباس سبق فيهم علم ربي والذي بعثني بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه وأنكر حقه من الدنيا حتى يغير الله تعالى ما به من نعمة يا ابن عباس إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راض فاسلك طريقة علي بن أبي طالب ومل معه حيث مال وارض به إماماً وعاد من عاداه ووال من والاه يا ابن عباس احذر أن يدخلك شك فيه فإن الشك في علي كفر بالله تعالى[1].

نسجل على هذه الرواية عدة نقاط

منها أن الرسول الأعظم ﷺ يقول إن الشك في علي كفر، لماذا؟ لأن علياً هنا يمثل الإمامة والذي يشك فيها يشك في لطف الله وعدله إذ أنها من ضرورات

(١) أمالي الطوسي/ ١٠٥ - ١٠٦، بشارة المصطفى لشيعة المرتضى عماد الدين الطبري/ ٤٣ وكشف اليقين للعلامة الحلي/ ٤٦٥ والفضائل لجبرائيل بن شاذان/ ٧.

عدل الله ولطفه، وإذا ما قارنتها بالرواية المتقدمة (يا جابر إن هذا أمر من أمر الله وسر من سر الله مطوي عن عباد الله فإياك والشك فيه فان الشك في أمر الله عزوجل كفر) نرى أن الحديث عن موضوع واحد والتحذير من الوقوع في أمر واحد أيضاً وهو الشك في الإمامة، لأنها أُس الإسلام النامي كما وصفها الإمام، وهي الأمر.

الثاني قوله ﷺ: والذي بعثني بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه من الدنيا وأنكر حقه حتى يغير الله ما به من نعمة. وهذا الذي قلناه من أن الإمام هو نعمة الله على خلقه والتي لا تسلب إلا إذا غير الإنسان وأنكر حقهم واختار غيرهم.

الثالث: إن الإمام الصادق نفسه يخالف هذه الرواية شكلاً ومضموناً في عدة روايات نقلت عنه، فها هو زرارة بن أعين يحدثنا ويقول: سمعت أبا عبد الله يقول: إن للقائم غيبة قبل أن يقوم، قلت له ولم؟ قال يخاف وأومأ بيده إلى بطنه يعني القتل[١]. وعنه عن رسول الله: لا بد للغلام من غيبة فقيل ولم يا رسول الله قال يخاف القتل[٢]. هذا إضافة للكثير من الروايات الصادرة عن أئمة الهدى يبينون فيها علة الغيبة ولم يرد فيها أي ذكر لكونها سرا من الأسرار ولا صنفوها من ضمن الأمور التي لا ينبغي كشفها.

وإذا أردنا أن نأخذ جانب الاحتياط، فإننا سنقول إن عدم الكشف كان خاصاً بالسائل لا عموم الشيعة، أو إنه عليه السلام كان يتحدث عن سر آخر ليس له علاقة بمسألة الغيبة، أو إن السائل كان يسأل عن سبب ارتداد كل مبطل ولم يرد الإمام كشف سر ضلالتهم، أو إنه كان بصدد تبيان مقام الإمامة الشامخ الذي لا تصل إليه العقول، وهو الراجح من بين جميع الاحتمالات.

---

(١) الكافي ج١/ ٣٣٨، إعلام الورى لامين الدين الطبرسي/ ٤٣١ - ٤٣٢ وعلل الشرائع للصدوق ج١/ ٢٤٦ والغيبة للطوسي/ ٣٣٢ وكمال الدين ج/ ٢ ٣٤٢ و٤٨١.

(٢) بحار الأنوار ج٥٢/ ٩٠.

ب: الخوف من القتل

العلة الأخرى التي كانت وراء الغيبة كما بينتها الروايات، هي الخوف من القتل، فقد جاء عن أبي عبد الله عن رسول الله ﷺ: لا بد للغلام من غيبة فقيل له ولم يا رسول الله قال يخاف القتل[١].

كما روي عن أبي خالد الكابلي.. . قال سألت أبا جعفر أن سمي لي القائم حتى اعرفه باسمه فقال يا أبا خالد سألتني عن أمر لو أن بني فاطمة عرفوه لحرصوا على أن يقطعوه بضعةً بضعة[٢].

وعن علي بن رئاب عن زُرارة قال سمعت أبا جعفر يقول إن للقائم غيبة قبل ظهوره قلت ولم قال يخاف وأومأ بيده إلى بطنه قال زِرارة يعني القتل[٣].

وأورد الشيخ الطوسي في معرض بيانه لعلة الغيبة: «لا علة تمنع من ظهوره إلا خوفه على نفسه من القتل، لأنه لو كان غير ذلك لما ساغ له الاستتار وكان يتحمل المشاق والأذى، فان منازل الأئمة وكذلك الأنبياء إنما تعظم لتحملهم المشاق العظيمة في ذات الله تعالى، فان قيل هلا منع الله من قتله بما يحول بينه وبين من يريد قتله، قلنا المنع الذي لا ينافي التكليف هو النهي عن خلافه والأمر بوجوب إتباعه ونصرته ولزوم الانقياد له، وكل ذلك فعله تعالى، وأما الحيلولة بينهم وبينه فانه ينافي التكليف وينقض الغرض لأن الغرض بالتكليف استحقاق الثواب والحيلولة تنافي ذلك وربما كان في الحيلولة والمنع من قتله بالقهر مفسدة للخلق فلا يحسن من الله فعلها»[٤].

وهنا لابد من إشارة مهمة يجب توضيحها، أن خوفه (روحي فداه) من القتل لا يعني بأي حال من الأحوال حرصه على الدنيا وخوفه من الموت، بل أن هذا أبعد ما يكون عن نفس الإمام التي تتوق للقاء الله عزوجل، كيف وهو ابن ذلك الأمير الذي يقول: «وَاللَّهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ بَلِ انْدَمَجْتُ

(١) بحار الأنوار ج٥٢/ ٩٠.
(٢) الغيبة للنعماني/ ٢٨٨.
(٣) كمال الدين ج٢/ ٤٨٢.
(٤) غيبة الطوسي/ ٣٢٩.

عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»[١].

وهو نفسه (صلوات الله عليه) يصف الإمام كما جاء عن الإمام الحسين بن علي قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين فقال له يا أمير المؤمنين نبئنا بمهديكم هذا؟ فقال إذا درج الدارجون وقل المؤمنون وذهب المجلبون فهناك هناك، فقال يا أمير المؤمنين ممن الرجل؟ فقال من بني هاشم من ذروة طود العرب وبحر مغيظها إذا وردت ومخفر أهلها إذا أتيت ومعدن صفوتها إذا اكتدرت ولا يجبن إذا المنايا هلعت ولا يخور إذا المنون اكتنفت ولا ينكل إذا الكماة اصطرعت...[٢].

الهلع الجزع كما في شرح صاحب البشارة، والمعنى أن المهدي لا يجزع إذا حانت المنية ولا يتسرب إليه الجبن مطلقا، والخور الضعف، ولا يضعف أبدا إذا ما المنون (الموت) اكتنفه (أحاط به من كل جانب).

بعد هذه الشهادة من أمير المؤمنين عليه السلام بشجاعة الإمام، لا يحتاج الأمر إلى تعليق لاسيما أننا نؤمن حسب ما جاء في نصوص المعصومين أن الإمام أشجع الناس، بيد أننا يجب أن نولي المسألة مزيداً من التوضيح، فنقول أنه إنما غاب خوفاً من القتل، لا لمجرد القتل، وإنما لتوقف نجاح المشروع الإلهي عليه، فلو قدر وقتل (لا سمح الله بذلك) فلا يبقى مشروع يطبق في الأرض، ولساخت الأرض بأهلها وقضي الأمر.

وبعبارة أخرى أننا لا ننفي خوف الإمام، بيد أننا نقول أنه خوف مشروع وذلك لسببين. الأول: أنه ليس حبا بالحياة وجزعا من الموت كما بينا.

الثاني: وهي إشارة مهمة جدا يجب الالتفات إليها جيداً، وتتلخص بهذا السؤال وهو هل أن الإمام مجبور مقهور بالغيبة أم لا؟ أي هل أن غيبته عبارة عن تكليف شخصي مختص به، له أن يلتزم به كما له أن لا يلتزم؟ أم أن المسألة بيد الله وهو الذي فرض الغيبة على الإمام وقهره عليها؟

فهمنا لهذه المسألة هو الذي سيوضح الجواب عن سبب خوف الإمام.

---

(١) نهج البلاغة/ ٥٢، الأمالي للطوسي/ ٣٧ والأمالي للمفيد/ ٢٧٥ وكتاب سليم بن قيس/ ٦١٨.
(٢) بشارة الإسلام/ ٨٠.

نقول أن أصل التكليف هو الاختيار لا الجبر والقهر، ولذا قال القرآن: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، على هذا السياق يتضح أن الغيبة هي من نوع التكليف الذي لا يشذ عن هذه القاعدة، فيكون غائباً بمحض اختياره تماشيا مع حكمة الله التي لا يفارقها لحظة واحدة، وهذه مسألة من المسائل التي تبين عظمة هذا الإمام العجيب.

بيد أن الله تبارك وتعالى واتساقا مع لطفه بهذا الخلق، أعطى للإمام كل الوسائل التي تعينه على غيبته من التصرف بكل الموجودات على ان لا يتقاطع ذلك مع السنن الإلهية التي لا تبدل.

وبهذا يكون هو من يتحمل مسؤولية الحفاظ على حياته، تلك الحياة الغالية التي تعد الروح لهذا العالم والقلب النابض للكون، بحيث إذا ذهبت يذهب، وإذا رفعت يفنى، وذلك تبعا لقانون العلية (الأسباب) فهو سبب لبقاء العالم. بهذا المعنى علينا أن نقرأ المسألة، فالخوف إذاً سيكون بالنسبة إليه من طريقين.

أحدهما: خوفه من التواني من الالتزام بتكليفه الخاص لأن لكل إمام تكليف خاص به على نحو تكليفنا نحن، فمنهم من قاتل على التأويل ومنهم من هادن ومنهم من يقاتل للنصر أو الذبح والسبي ومنهم للدعاء وإرجاع الأمة إلى الله وآخر لنشر العلم وهكذا.. وتكليف الإمام هو الغيبة ومن ثم نشر العدل والقسط وإقامة حكومة الله في الأرض، بيد أن هذه الغيبة تخضع للسنن الإلهية التي لا تبدل ولا تغير فإن أظهر نفسه قبل الموعد المحدد الذي يعلم الله أن فيه المصلحة في ظهوره بتوفر لوازم الانتصار ممكن أن يتعرض للقتل كما حدث لآبائه، بل أن الروايات تؤكد ذلك وبالتالي نهاية المشروع والخروج عن طاعة الله وهذا مما ينافي العصمة وحاشاه من ذلك.

يعني أن الله كما قال الشيخ الطوسي لا يمنعه بالقهر بأن يحول بينه وبين الخلق فهذا خلاف السنة الإلهية بجعل الالتزام بالأمر والنهي اختياراً لا جبراً، بل أنه تبارك

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.

وتعالى دعا الأمة لطاعته ومودته ولزوم إتباعه وترك الأمر لقانون الأسباب، كما يتضح هذا من تعرض الأنبياء قبله للقتل والسجن والتعذيب، وكما جرى لآبائه عليهم السلام فإن الله عز اسمه لم يحول بينهم وأعدائه وأوليائه إلا في حالات خاصة جداً.

الآخر: خوفه على المشروع لعلمه أن لا مشروع من دونه وبالتالي لا دولة حق وعدل ستتحقق على الأرض لنصرة المستضعفين وإعلاء كلمة الله وجعلها الحاكمة في أرجاء المعمورة.

والرسالة المهمة من هذه الروايات هي تبيان خذلان الناس لإمامهم بحيث ألجؤوه للغيبة، وإلا لو كانت لديه منعة لما احتاج أن يغيب.

وسيأتيك مزيداً من التوضيح للسبب الحقيقي وراء غيبته في فصل الأذرع الصالحة.

سنرجئ مناقشة بقية العلل الواردة في الروايات التي استعرضناها في بدأ هذا الفصل إلى الفصل الذي يتحدث عن الأذرع الصالحة وعلاقتها بالمشروع الإلهي، لأن ما أوردناه في هذا المقام يكفي لتوضيح المسألة، بيد أن فصل الأذرع الصالحة نرى أنه على تماس مباشر بالفكرة وبالتالي فان مناقشتها هناك أولى.

على أننا قبل الانتقال إلى الفصل الثاني لابد من ختم هذا الفصل بمناقشة رواية تسلط الضوء على العلة من وراء تأخر الفرج وكيف أنها تشخص المشكلة بالناس وتحيلها لهم، وبهذا يتحقق أن لا سر يقف وراء الغيبة إلا خطأ الأرض.

عن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لأبي جعفر إن علياً كان يقول إلى السبعين بلاء و كان يقول بعد البلاء رخاء و قد مضت السبعون و لم نر رخاء فقال أبو جعفر: يا ثابت إن الله تعالى كان وقت هذا الأمر في السبعين فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على أهل الأرض فأخره إلى أربعين و مائة سنة فحدثناكم فأذعتم الحديث و كشفتم قناع السر فأخره الله و لم يجعل له بعد ذلك عندنا وقتا ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1] قال أبو حمزة و قلت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال قد كان ذاك[2].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) الغيبة للطوسي/ ٤٢٨.

تشير هذه الرواية المباركة إلى حقيقة خطيرة جداً ينبغي الالتفات إليها جيداً والوقوف عندها ملياً، فهي تتحدث عن إمكانية تحقق الفرج بقيادة الإمام الحسين لولا الملابسات التي جرت وأدت إلى قتله عليه السلام.

الحقيقة المهمة التي تكشف عنها هذه الرواية، هي أنه كان مقدرا أن تنتهي فترة البلاء في العام السبعين من الهجرة النبوية، وتحقق الفرج على يدي الإمام الحسين، بمعنى أنه كان مقدراً أن يكتب لثورة الإمام الحسين الإصلاحية النجاح لو توفرت لها السبل اللازمة للإصلاح، ومنها العدد اللازم من الأنصار ذوو الأوصاف العالية، وكذلك اختيار التوقيت الذي يراه الإمام مناسباً، لا ذلك الذي يلجئونه إليه كما حدث وجرى في قضية مقتله.

ويدل علي ذلك قوله عليه السلام: ألا وأن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين الذلة والسلة وهيهات منا الذلة، أي أنهم لو تركوه لما فضل الإمام القيام وإعلان الثورة، لأنه يعلم أن لا أنصار له، بيد أنه اختار الشهادة الملحمية والبطولية وكل ما رافقها من مأساة، أملاً في أن تصحوا الأمة من سباتها ولكي يستمر في مواصلة دوره الذي خلق من أجله وهو هداية الناس ولو كان ذلك من خلال إراقة دمه الطاهر.

إننا نعتقد (وحسب هذه الرواية) أن الإمام الحسين كان مقدراً له أن يقضي السنوات العشر من الحكم بعد معاوية أي حتى سنة السبعين في الإعداد للثورة والتخطيط لها من خلال إعداد قاعدة مخلصة متفانية في طاعة الله وولي أمرها المعصوم، إلا أن الناس لم تلتفت إلى أن هداها ونجاتها وعزتها وكرامتها كانت مرهونة بالانقياد للإمام الحسين ونصرته واختيار جانبه لا جانب الطواغيت.

وبكلمة أخرى: أن الناس هي التي اختارت أن يحكمها يزيد (لعنه الله) ويقتل الحسين وذلك خضوعاً للقانون أو السنة التي أودعها الله في الخلق، كما في قول الإمام الباقر... وَإِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شِرَارَهُمْ فَيَدْعُوا خِيَارُهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ[1].

(١) الكافي ج٢/ ٣٧٤.

فرج السبعون والمائة وأربعون

الذي يقوي هذه الرواية أن مضمونها جاء بأكثر من خبر، فعن عمار بن إسحاق قال: قال أبو عبد الله: يا إسحاق إن هذا الأمر قد أخر مرتين[١].

وعن عثمان النواء قال: سمعت أبا عبد الله يقول: كان هذا الأمر فيّ فأخره الله ويفعل بعد في ذريتي ما يشاء[٢].

وفي هاتين الروايتين إشارة واضحة لرواية السبعين، أما المائة وأربعين فيدل عليه حديث الإمام الصادق في الرواية الثانية، إذ كان من المقدر أن يكون هو الذي يستلم زمام الأمور بعد القضاء على حكومة طواغيت آل أمية والوضع كان مهيئا جدا لذلك إلا أن الإمام بين سبب عدم قيامه بهذا الأمر وهو إذاعة الخبر وكشف خطة القيام والنهوض مما أدى إلى انعطافة تاريخية خطيرة سببت استلام بني العباس للسلطة وهيمنتها على مقدرات الأمة، لاسيما أن شعار الثوار كان يا لثارات الحسين والرضا من آل محمد.

هذا الكشف استفز أطماع الحسنيين مما دعاهم للتحرك السياسي ومحاولة سحب البساط من تحت أقدام الإمام ومنازعته أمره حتى لو كان ذلك بالتعاون مع العباسيين لتحقيق هذا الهدف، والعلة الأخرى للتأخير ستتبين لك في فصل الأذرع الصالحة، ونفس هاتين العلتين استمرت حتى زمان الإمام الكاظم الذي كان مقدرا له هو الآخر القيام وإكمال ما سيقوم به أبوه من الثورة، كما في الرواية التي تقول سابعنا قائمنا.

فعن داود الرقي، قال: قلت لأبي الحسن الرضا: جعلت فداك إنه والله ما يلج في صدري من أمرك شيء إلا حديثا سمعته من ذريح يرويه عن أبي جعفر، قال لي:

---

(١) الغيبة للنعماني/ ٢٩٣.

(٢) الغيبة للطوسي/ ٤٢٩.

وما هو قال: سمعته يقول سابعنا قائمنا إن شاء الله، قال: صدقت و صدق ذريح و صدق أبو جعفر عليه السلام . . .[١].

ملاحظة

لا يغرنك ما يتناقله البعض من أن الإمام الحسين قام تلبية لدعوة أهل الكوفة الذين ألحوا عليه بالكتب، لا فان الأمر ليس كذلك إن المتتبع لقضية الإمام الحسين سيجد أن هذه الكتب كانت تصل إليه قبل سنتين من هلاك معاوية ولم يجبهم بشيء، بيد إن الأمر كما قلناه إنشاء الله من أن القوم ألجئوه للقيام، ولولا المخافة من الخروج من أصل البحث لأسهبنا في شرح ملابسات القضية، بيد أن ما نريد أن نقوله أن هذا الأمر كان بالإمكان التحقق في أي من هذه الأزمان لولا خذلان الناس لأئمتهم الكرام.

إذن لا سر في الأمر غير تقصير الناس واستحقاقهم المصيبة بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن جميع العلل إنما ترجع لعلة واحدة هي تقصير الناس وخذلانهم إمامهم والذي نعبر عنه بخطأ الأرض.

(١) رجال الكشي/ ٣٧٢.

الفصل الثاني

هل الإسلام (الفكرة) قادر على إدارة الحياة؟

بين يدي الموضوع

لقد مر عليك عزيزي القارئ في أوليات البحث أننا أرجعنا المشروع في مناقشتنا لأسباب الغيبة إلى ثلاثة عوامل رئيسة للنجاح، وقلنا إن ما من مشروع إلا ويحتاج إلى الفكرة القابلة للحياة والتي تفي بمتطلبات المشروع، كما يحتاج إلى القائد الواعي والأذرع الصالحة التي تساهم في نقل المشروع من حيز القوة إلى الفعل.

نحن الآن في هذا الفصل سنتصدى لبيان البند الأول من عوامل أو ركائز المشروع الإلهي وهو الفكرة (الإسلام) ونستهل المناقشة من خلال السؤال الذي طرحناه في مقدمة الفصل: هل الإسلام قادر على إدارة وقيادة الحياة وإيفاء جميع ما تحتاجه البشرية من سبل سعادة وأمان ورقي والتربع على قمة الكمال الإنساني؟

أتذكر في إحدى مراحل الدراسة، كان لدينا مدرس لمادة أدخلت حديثا للأوساط الحوزوية في إحدى المدارس، هي الثقافة الرسالية، كان هذا المدرس بين الحين والآخر يطرح على التلاميذ أسئلة متنوعة لها علاقة بالشأن الديني، ومن هذه الأسئلة سؤال له علاقة بالموضوع الذي بين أيدينا الآن وكان سؤاله كما يلي: هل الإسلام قادر على إدارة دفة الحياة أم لا؟ فشّرق التلاميذ وغرّبوا وكان يبدو عليه أنه لم يقتنع بإجاباتهم.. فلم يكن مني إلا أن قمت محدثا نفسي بأني سأعطيه الجواب الذي سيثلج صدره، كان هذا اعتقادي! فقلت أستاذ، هل تسمح لي بالجواب؟ قال تفضل، (طبعاً سأتلو روح الكلام لا هو حرفياً لأن المسألة مر عليها الكثير من السنين)، قلت ألا نعتقد نحن بصحة روايات المهدي (عج) «من حيث المعنى العام لا تفصيلاً» قال نعم، قلت إذن أو ليست هذه الروايات تخبرنا أن الإمام سيحكم العالم ويملؤه قسطاً وعدلا وسيصل به إلى أعلى درجات التطور والعلم والصحة والرفاهية، وأن قدرات العقل البشري ستتطور إلى حد بعيد حتى أن المرأة تحكم في

بيتها بكتاب الله، والذي يستطيع التعامل مع كتاب الله ويحل طلاسمه (باعتبار أن فيه تبيان كل شيء) لهو قادر على التعامل مع أي من العلوم الأخرى، إذن الإسلام قادر بل هو الوحيد الذي يستطيع الإمساك بدفة الحياة وقيادتها نحو بر الأمان والسعادة.

وما إن انتهيت وأنا في عز نشوتي للجواب الذي بهر أصدقائي فاجأني الأستاذ بقوله: وماذا تريد منا، هل نجلس ونضع أيدينا على خدودنا حتى يظهر الإمام؟ فصعقت لمستوى الأستاذ الذي من المفروض أن يكون أكثرنا ثقافة وفهما للإسلام ولقضية الإمام المهدي!! وكأنه لم يفهم شيئا مما قلته، فحاولت أن أفهمه أنني جئت له بدليل سيأتي يوما ويصبح واقعا وحقيقة كالصبح وأن هذا من ضرورات الاعتقاد (إن كنا نؤمن بالغيب)، إلا أنه لم يفسح لي المجال وقام بإسكاتي، فلم يكن مني وأنا تحت نير الصدمة من مستوى الأستاذ المتدني جدا، إلا أن تركت تلك المدرسة من دون رجعة، مرددا في نفسي وخيبة الأمل تأكلني إذا كان هكذا مستوى الأساتذة فمتى يفهم الناس البسطاء قضية الإمام (روحي فداه) ويعملون على التمهيد له.

على كل حال ذكّرني السؤال في بداية هذا الفصل بهذه الحادثة المؤلمة لعلاقتها بالموضوع، وأرى أن الجواب على هذا السؤال هو نفسه الجواب الذي بينته للأستاذ، نعم الإسلام قادر، لا بل هو الوحيد القادر على ذلك، أنا لا أريد أن أخاطب في هذا الكتاب الذين لا يؤمنون بالإسلام، إنما خطاب للمؤمنين المحبين لإمامهم والمؤمنين بالإسلام وقدرته على الوصول بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال الإنساني.

تنبيه

أنا لا أريد أن أخاطب الذين لا يؤمنون بالإسلام، لا لأننا لا نؤمن بالحوار، وإنما ليس محله في هذا الكتاب، وإن شاء الله إذا وفقنا وانعم علينا سنكتب عن هذا الموضوع وسنرد على الكثير من الطعون والشبهات التي تثار على الإسلام بسبب ممارسات المسلمين الخاطئة من جهة، وبسبب جهل مثيري الشبهات بالإسلام من جهة أخرى، ولعمري أن من أكثر الأخطاء وعدم الموضوعية بمكان، قياس الإسلام

بالمسلمين، وهي بؤرة الشبهات، ولو استقى الباحثون حقيقة الإسلام من مضانه الصحيح لما بقيت شبهة ولا عاش إشكال في أذهان الناس، ولهذا قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، وأهل الذكر هنا حسب المفسرين والروايات الصحيحة هم أهل بيت محمد وعلي عليهم السلام.

والمظلمة الحقيقية للإسلام، هي حينما انساقت أخطاء المسلمين عليه وأصبحت أخطاءه هو، وهو البريء منها براءة الذئب من دم يوسف.

إن الاتفاق على الاعتقاد بالمهدي وحتمية ظهوره في يوم ما بالنسبة لجميع مذاهب المسلمين، لهي من المسائل التي تشعر الإنسان ببعض الراحة وسط هذا الكم الهائل من الخلافات، لذا نحن نركز في خطابنا هنا على المسلمين بغض الطرف عن المذهب الذي يؤمنون به، والحمد لله هناك أكثر من مليار مسلم يؤمنون بهذا الاعتقاد، لذا نحن نحاول أن نشير من خلال البحث إلى مكمن الخلل وأي دائرة هي التي تمثل العصا في العجلة، فان كنت تقول إن المهدي ينتمي إلى الطرف الفلاني، فسنقدم لك أدلة عدم قيامه عن طريق القرآن والسنة، فهيا انهض وشمر عن ساعد الجد وساعد في قيامه بالثورة، وان كنت من الفريق الآخر، فالمسألة تجري عليك أيضاً، فلم يبق لك عذر في عدم نصرته، ودعنا نؤجل البت من أي الفريقين هو المهدي بيد أننا يجب أن نتفق على نصرته في حال قيامه حتى إذا كان قيامه ليس على الحال والصورة اللتين كنا نؤملهما، لأن المفروض أنه هو الذي سيصحح لنا اعتقاداتنا ويطهرها من الشوائب والبدع التي أدخلت عليها، لا أن نملي عليه ما نهوى.

وستأتيك المواصفات التي يريدها أن تتوافر بجنده وأنصاره، والحل نقدمه عن طريق أئمة أهل البيت، لأنهم الأقدر في نظرنا على تربية أولئك الجنود.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

دعوة للحوار

وبكلمة أخرى نقول: إن الإمام المهدي ليس حكراً على أحد بل هو وريث جده المصطفى وسيدعو لما دعا إليه، فالذي يريد حقا أن يفهم الإسلام الذي ارتضاه الله لنا دينا، عليه بدراسة هذا الدين من خلال الدعوة المهدوية لجميع الأديان والأعراق للحوار، في أول خطبة له حينما يسند ظهره إلى جدار الكعبة وينادي (أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى الناس بآدم) ولا يخفى عليك أنها دعوة لكل البشرية التي تنتمي لآدم، وهذا يدل على سعة افقه، وأن همّه البشرية جمعاء لأنه جاء من الله رحمة لها، فالذي يريده الإمام هو الاجتماع لا الفرقة، والمحبة لا البغض، والخير، كل الخير للجميع، بيد أن الاجتماع لابد أن يكون على الحق، وعلى الحق فقط، وهذا الذي سيميزه عن غيره إذ لا مهلة للباطل، وسيكون همّه إعلاء كلمة الله التي هي الحق في كل المعمورة.

وكذلك دعوته لجميع الملل في كل أصقاع الأرض بقوله: (من أراد أن يحاجني بنوح فأنا أولى الناس بنوح ومن أراد أن يحاجني بإبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم ومن أراد أن يحاجني بموسى فأنا أولى الناس بموسى ومن أراد أن يحاجني بعيسى فأنا أولى الناس بعيسى ومن أراد أن يحاجني بكتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله...) وهذا يدل على أن الإمام سيبدأ ثورته المباركة بالحوار.

من هنا ينبغي الفهم أن أول الدروس المستقاة من قضية الإمام المهدي هو امتلاك روح الحوار المستمد من أخلاق القرآن الكريم، بل إن الله يعده أحد أهم الحقوق التي ينبغي أن يحظى بها الإنسان لكي يفهم، وعليه فالذي يريد البحث حقا عن العقيدة الحقيقية التي لا تشوبها رياح السياسة والتحريف عليه أن ينطلق للبحث من خلال روايات المهدي الصحيحة التي لا تتعارض مع الأصول التي قررها القرآن الكريم وذلك بالعرض عليه وجعله حاكماً عليها.

أما الآن فسنحاول أن نجيب على سؤال بداية الفصل، وسنقسم الإجابة إلى دليل عقلي وآخر نقلي عن طريق القرآن والسنة، وثالث شهادات من أناس خارج

دائرة الإسلام، بيد أنهم تعمقوا في دراسته وأشرقت في جوانحهم بعض أنواره فشهدوا شهادات صدق وعقل ومنطق، لاسيما أنهم من أهل الفكر والثقافة والاجتماع، وممن عايشوا غير دين الإسلام فقارنوا بينه وبين الشرائع التي عاشوا في كنفها ولم ترو ظمأهم، وعايشوا أيضاً كل تشدقات الأنظمة والمؤسسات والأفكار التي طرحت نفسها كمنقذ للبشرية فأحالت مصيرها إلى جحيم، والإنسان إلى مخلوق تائه مضطرب بلا هدف ولا غاية.

والحقيقة أننا حينما سنأتي بهذه الأدلة لا لأننا بحاجة لأن نستدل على صحة ديننا، لا، وإنما ذلك جريا على أصول الأبحاث، وكذلك لمن يريد أن يطمئن قلبه.

دليل العقل

إن من أولى ضروريات العقل أن يعي الإنسان وجوده ومبدأه ومنتهاه، فإذا وعى وجوده استدل على أنه لا يمكن أن يكون كل هذا الإبداع المتحقق فيه، قد تحقق عبثا، وأنه لابد من نقطة انطلق منها ولا بد كذلك من غاية يصل إليها.

والحق أنه لا يوجد غير الدين السماوي من قدم إجابات شافية بشأن هذا الموضوع، لذا يحتاج الإنسان لبرنامج عمل يصل من خلاله لغاية خلقه.

ولمّا كان هذا الإنسان كائنا مليئا بعجائب التكوين وتعدّد ما يُشكّل ذاته من الجسد ذي الطبع المادي، والروح التي هي من عالم الأمر الغيبي، وما بينهما من قوى وطاقات يجهل الإنسان نفسه طبيعة عملها ومقدار قوتها، احتاج إلى منهاج عمل يتوافق وينسجم مع طبيعة تكوينه الجسدي والنفسي والروحي ولا يوجد فيه أية أعراض جانبية على أي منها، وهذا لا يكون ولا يمكن إلاّ عن طريق من كانت له يد في خلقه ووجوده، وهو الخالق البارئ المصور سبحانه وتعالى، إذ هو الوحيد القادر على أن يعطي الإنسان، مخلوقه الضعيف، كل أسباب القوة التي يحتاجها للوصول إلى كماله المنشود ويُؤمّن له سبيل الصلاح ويهديه إلى الصراط المستقيم.

إن صاحب أي نظام هو الأعلم من غيره، لا بل هو الوحيد القادر على جعل

نظامه يؤدي الدور المنشود منه، لعلمه بكل دقائقه وحيثياته، وما هي الأمور التي تُشكّل خطرا عليه فيحجبها عنه، وما الذي يحتاجه لديمومة عمله فيوجهه إليه.

وبما أن الله تبارك وتعالى هو خالق الخلق وبارئهم فهو الوحيد الذي له حق التشريع، لهذا فان كل عاقل، عليه بحكم العقل ألاّ يطيع أحداً غير الله، ولا يلتزم بشريعة غير شريعة خالقه وصانعه، لأنه بمخالفته ذلك يدمر ذاته ويُدخل على نفسه وجسده كل المهلكات التي حذر منها صانع النظام، فإن تدمّر بعد ذلك وهلك أو خرج من كونه إنساناً فلا يلومنّ إلاّ نفسه، يوم لا ينفع الندم، إلاّ من جاء بقلب سليم.

وبجملة واحدة، إن كل من يؤمن بوجود الله، عليه بحكم إيمانه أن يؤمن أن خير الشرائع والمناهج هي شريعة ومنهاج خالقه وصانعه، لأنها شريعة من هو أعرف بما يقومه ويوصله لنعيم الأبد، وأحق هذه المناهج هو الإسلام (طريقة الحياة التي اختارها لنا اللطيف الخبير بنا)، وهو أوضح وأيسر وأكمل المناهج كما يصفه أمير المؤمنين عليه السلام، كما سيأتيك في الدليل النقلي.

دليل النقل

قال الله تعالى في كتابه الحكيم ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

والمعنى أن الدين أو (نظام الحياة) الذي اختاره الله لخلقه واحد، لا يختلف في جميع الأزمان، لأنه الأصلح لها وليس في الإمكان أفضل مما كان، وهذا لا يعني عجزا في الخالق عزوجل: (حاشاه من أن يكون فيه عجز)، بيد أن هذا النظام بالنسبة لتكوين الإنسان بحيثيته هذه هو الأصلح له ولا يمكن أن ينزل الله نظاما آخر

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

مختلفا إلا إذا جاء بخلق جديد، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿. . . فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1]، كما يقول أحد المحققين.

وكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[2].

والمعنى أن ما من دين إلا وسيتلاشى أمام حق الإسلام، وما من نظام إلا سيقف عاجزا في مجاراته في تنظيم أمر الحياة وقيادتها نحو الكمال من خلال توحيده تعالى على كافة الصعد، وهذا وعد إلهي مقدس.

والمؤكد أن خير من يصف الإسلام، راعيه الأمين ويعسوب المؤمنين، نفس رسول الله وربيب يديه علي بن أبي طالب (عليهما وآلهما آلاف التحية والسلام) حيث قال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ وَأَوْضَحُ الْوَلَائِجِ مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُشْرِقُ الْجَوَادِّ مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ كَرِيمُ الْمِضْمَارِ رَفِيعُ الْغَايَةِ جَامِعُ الْحَلْبَةِ مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ شَرِيفُ الْفُرْسَانِ التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ[3].

وفي رواية أخرى ارتأينا أن ننقلها مع شرح الشيخ المجلسي لها في بحاره لغرض الفائدة والإطلاع، يقول أمير المؤمنين: أما بعد فإن الله تبارك وتعالى شرع الإسلام وسهل شرائعه لمن ورده وأعز أركانه لمن جار به وجعله عزا لمن تولاه وسلما لمن دخله وهدى لمن ائتم به وزينة لمن تجلله وعذراً لمن انتحله وعروة لمن

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٧/ ١٧١.

اعتصم به وحبلا لمن استمسك به وبرهانا لمن تكلم به ونورا لمن استضاء به وشاهدا لمن خاصم به وفلجا لمن حاج به وعلما لمن وعاه وحديثا لمن روى وحكما لمن قضى وحلما لمن جرب ولباسا لمن تدبر وفهما لمن تفطن ويقينا لمن عقل وبصيرة لمن عزم وآية لمن توسم وعبرة لمن اتعظ ونجاة لمن صدق وتؤدة لمن أصلح وزلفى لمن اقترب وثقة لمن توكل ورجاء لمن فوض وسبقة لمن أحسن وخيرا لمن سارع وجنة لمن صبر ولباسا لمن اتقى وظهيرا لمن رشد وكهفا لمن آمن وأمنة لمن أسلم ورجاء لمن صدق وغنى لمن قنع، فذلك الحق، سبيله الهدى ومأثرته المجد وصفته الحسنى فهو أبلج المنهاج مشرق المنار ذاكي المصباح رفيع الغاية يسير المضمار جامع الحلبة سريع السبقة أليم النقمة كامل العدة كريم الفرسان فالإيمان منهاجه والصالحات مناره والفقه مصابيحه والدنيا مضماره والموت غايته والقيامة حلبته والجنة سبقته والنار نقمته والتقوى عدته والمحسنون فرسانه فبالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يعمر الفقه وبالفقه يرهب الموت وبالموت يختم الدنيا وبالدنيا تجوز القيامة وبالقيامة تزلف الجنة والجنة حسرة أهل النار والنار موعظة للمتقين والتقوى سنخ الإيمان[1]. ولأوضح هذه الرواية الشريفة مشيرا إلى اختلاف النسخ في الكتب؛ أما بعد، أي بعد الحمد والصلاة: (فسهل شرائعه لمن ورده)، الشرع والشريعة ما شرع الله لعباده من الدين أي سنه وافترضه عليهم وشرع الله لنا كذا أي أظهره وأوضحه ويقال لما شرع الله تعالى لعباده إذ به حياة الأرواح كما بالماء حياة الأبدان (وأعز أركانه لمن حاربه) ركن الشيء جانبه أو الجانب الأقوى منه والعز والمنعة وما يتقوى به من ملك وجند وغيره كما يستند إلى الركن من الحائط عند الضعف والعز القوة والشدة والغلبة وأعزه أي جعله عزيزاً أي جعل أصوله وقواعده أو دلائله وبراهينه قاهرة غالبة منيعة قوية لمن أراد محاربته أي هدمه وتضييعه وقيل محاربته كناية عن محاربة أهله.

وفي بعض النسخ (جأر به) كسأل بالجيم والهمز أي استغاث به ولجأ إليه. وفي النهج (على من غالبه) أي حاول أن يغلبه ولعله أظهر... (وجعله عزا لمن تولاه)

(١) بحار الأنوار ج٦٥/ ٣٥٢.

أي جعله سبباً للعزة والرفعة والغلبة لمن أحبه وجعله وليه في الدنيا من القتل والأسر والنهب والذل وفي الآخرة من العذاب والخزي. . . (فجعله أمنا لمن علقه) أي نشب و استمسك به، (وسلما لمن دخله) والسلم بالكسر كما في النهج و بالفتح أيضاً الصلح ويطلق على المسالم أيضاً وبالتحريك الاستسلام إذ من دخله يؤمن من المحاربة والقتل والأسر، (وعذراً لمن انتحله) الانتحال أخذه نحلة ودينا ويطلق غالبا على ادعاء أمر لم يتصف به فعلى الثاني المراد أنه عذر ظاهرا في الدنيا ويجري به عليه أحكام المسلمين وإن لم ينفعه في الآخرة (وبرهانا لمن تكلم به) البرهان الحجة والدليل أي الإسلام إذا أحاط الإنسان بأصوله وفروعه يحصل منه براهين ساطعة على من أنكرها إذ لا تحصل الإحاطة التامة إلا بالعلم بالكتاب والسنة وفيهما برهان كل شيء.

(ونورا لمن استضاء به) شبهه بالنور للاهتداء به إلى طرق النجاة ورشحه بذكر الاستضاءة.

(وشاهداً لمن خاصم به) إذ باشتماله على البراهين الحقة يشهد بحقية من خاصم به، (وفلجاً لمن حاج به) الفلج بالفتح الظفر والفوز كالإفلاج والاسم بالضم والمحاجة المغالبة بالحجة، (وعلماً لمن وعاه) أي سبباً لحصول العلم وإن كان مسبباً عنه أيضاً في الجملة إذ العلم به يزداد ويتكامل (وحديثاً لمن روى) أي يتضمن الإحاطة بالإسلام أحاديث وأخباراً لمن أراد روايتها ففي الفقرة السابقة حث على الدراية و في هذه الفقرة حث على الرواية. إلى أن يقول:

(وآية لمن توسم) أي الإسلام مشتمل على علامات لمن تفرس ونظر بنور العلم واليقين إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] قال الراغب الوسم التأثير والسمة الأثر قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[2] وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[4] أي للمعتبرين العارفين المتفطنين وهذا التوسم هو الذي سماه قوم الذكاء وقوم الفطنة وقوم الفراسة

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣
(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

وقال ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن. وقال: المؤمن ينظر بنور الله. وتوسمت تعرفت السمة.

... (ولباساً لمن اتقى) كأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1] بناء على أن المراد بلباس التقوى خشية الله أو الإيمان أو العمل الصالح أو الحياء الذي يكسب التقوى أو السمت الحسن وقد قيل كل ذلك أو اللباس الذي هو التقوى فإنه يستر الفضائح والقبائح ويذهبها لا لباس الحرب كالدرع والمغفر والآلات التي تتقي بها عن العدو كما قيل فالإسلام سبب للبس لباس الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة والحياء وهيئة أهل الخير لمن اتقى وعمل بشرائعه.

(وظهيراً لمن رشد) أي معينا لمن اختار الرشد والصلاح. في القاموس: رشد كنصر وفرح رُشداً ورَشَداً ورشاداً اهتدى والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه (وكهفاف لمن آمن) الكهف كالغار في الجبل والملجأ أي محل أمن من مخاوف الدنيا (والعقبى لمن آمن) بقلبه لا لمن أظهر بلسانه و نافق بقلبه... (وغنى لمن قنع) أي الإسلام لاشتماله على مدح القناعة وفوائدها فهو يصير سبباً لرضا من قنع بالقليل وغناه عن الناس وقيل لأن التمسك بقواعده يوجب وصول ذلك القدر إليه كما قال عز شأنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2]، (فذلك الحق) أي ما وصفت لك من صفة الإسلام حق أو ذلك إشارة إلى الإسلام أي فلما كان الإسلام متصفا بتلك الصفات فهو الحق الثابت الذي لا يتغير أو لا يشوبه باطل أو ذلك هو الحق الذي قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[3] وقوله (سبيله الهدى) استئناف بياني أو الحق صفة لاسم الإشارة وسبيله الهدى خبره أي هذا الدين الحق الذي عرفت فوائده وصفاته سبيله الهدى كما قيل في قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾[4]، وكأنه إشارة إليه أيضا، والمراد بالهدى الهداية الربانية الموصلة إلى المطلوب... (وصفته الحسنى) أي موصوف بأنه أحسن الأخلاق والأحوال

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥.

والأعمال وفي المجالس بعد قوله وجنة لمن صبر، الحق سبيله والهدى صفته والحسنى مأثرته.

(فهو أبلج المنهاج) في القاموس: بلج الصبح أضاء وأشرق كابتلج وتبلج وأبلج وكل متضح أبلج والنهج والمنهج والمنهاج الطريق الواضح وأنهج وضح وأوضح وفي النهج بعده (أوضح الولائج) أي المداخل (مشرق المنار) المنار جمع منارة وهي العلامة توضع في الطريق وكأنها سميت بذلك لأنهم كانوا يضعون عليها النار لاهتداء الضال في الليل. وفي القاموس: المنارة، والأصل منورة، موضع النور كالمنار والمسرجة والمنار العلم انتهى، وفي النهج (مشرف) بالفاء أي العالي وبعده (مشرق الجواد) جمع الجادة (وذاكي المصباح) وفي النهج والكتابين (مضيء المصابيح)، وفي القاموس: ذكت النار واستذكت اشتد لهبها وهي ذكية وأذكاها وذكاها أوقدها... ثم فسر صلوات الله عليه ما أبهم من الأمور المذكورة فقال: فالإيمان منهاجه هذا ناظر إلى قوله أبلج المنهاج أي المنهاج الواضح للإسلام هو التصديق القلبي بالله وبرسوله وبما جاء به والبراهين القاطعة الدالة عليه وفي النهج وغيره فالتصديق منهاجه وهو أظهر والصالحات مناره ناظر إلى قوله مشرق المنار شبه الأعمال الصالحة والعبادات الموظفة بالأعلام والمنائر التي تنصب على طريق السالكين لئلا يضلوا فمن اتبع الشريعة النبوية وأتى بالفرائض والنوافل يهديه الله للسلوك إليه وبالعمل يقوى إيمانه وبقوة الإيمان يزداد عمله وكلما وصل إلى علم يظهر له علم آخر ويزداد يقينه بحقية الطريق إلى أن يقطع عمره ويصل إلى أعلى درجات كماله بحسب قابليته التي جعلها الله له[1].

وبالجملة فإن أمير المؤمنين عليه السلام يشهد أن الإسلام هو أشدّ المناهج وضوحاً وطرقه مشرقة أو مشرفة من العلو والسمو وأن نوره أشد من أن يستطيع أحد أن يطفيه.

ومن المسلمات عندنا كمسلمين وصول دولة الإمام المهدي إلى أعلى وأكمل درجات التقدم والرقي التقني والإنساني من خلال سيادة أحكام الله وإنفاذها في

(١) بحار الأنوار ج٦٥/ ٣٦١ - ٣٦٢.

البشرية لتكون هي الحاكمة بينهم، تلك الأحكام التي تتناغم مع الفطرة وينسجم معها الشعور النفسي السليم.

وفي رواية عن أمير المؤمنين علي قال: كأني أنظر إلى شيعتنا بمسجد الكوفة وقد ضربوا الفساطيط يعلمون الناس القرآن كما أنزل[١].

وعن أبي عبد الله أنه قال: كأني بشيعة علي في أيديهم المثاني يعلمون القرآن[٢].

عن جبر بن نوف أبي الوداك، قال قلت لأبي سعيد الخدري والله ما يأتي علينا عام إلا وهو شر من الماضي، ولا أمير إلا وهو شر ممن كان قبله. فقال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ يقول ما تقول، ولكن سمعت رسول الله يقول: لا يزال بكم الأمر حتى يولد في الفتنة والجور من لا يعرف غيرها حتى يملأ الأرض جوراً، فلا يقدر أحد يقول الله، ثم يبعث الله عزوجل رجلاً مني ومن عترتي، فيملأ الأرض عدلاً كما ملأها من كان قبله جوراً، وتخرج له الأرض أفلاذ كبدها، ويحثو المال حثوا ولا يعده عدا، وذلك حين يضرب الإسلام بجرانه[٣].

قال الفيروز آبادي الجران باطن العنق، ومنه حتى ضرب الحق بجرانه أي قر قراره واستقام كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه على الأرض، وهو كناية عن استقرار النظام الإسلامي في الأرض وهيمنته عليها بحيث لا يبقى غيره من الأنظمة لإدارة شؤون الناس.

قال رسول الله: أبشروا بالمهدي فإنه يبعث على حين اختلاف من الناس شديد يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ويملأ الله عزوجل قلوب عباده غنى ويسعهم عدله[٤].

وجملة ما تخبر به هذه الأحاديث هي البشرى بانتصار الإسلام في آخر المطاف بحيث لا يجد الناس بدا من اللجوء إليه والاستغاثة به لحلحلة كل ما يعانون منه من مشاكل وعلى كافة الصعد، وهو الوحيد الذي سيوفر لهم الحياة الحرة الكريمة من

(١) الغيبة للنعماني/ ٣١٨.
(٢) بحار الأنوار ج٨٩/ ٥٩.
(٣) أمالي الطوسي/ ٥١٣.
(٤) دلائل الإمامة/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

خلال ما سيقوم به الإمام المهدي من إحياء لمعالم القرآن ونشره بين الناس كدستور للعمل يضمن سعادة الدنيا والآخرة، بحيث يعم العدل العالم وتصل النفس الإنسانية لمراحل عالية من الكمال والسعادة والرضا النفسي، وهذا ما لم تقدمه للإنسانية كل النظريات والدساتير التي حكمت المعمورة والمستوحاة من أفكار الفلاسفة والمفكرين، بل أستطيع القول إنها زادت الطين بلة وأدخلت الناس في متاهات ومشاكل جمة، وسيأتي الحديث عن أشهر نظريتين حكمتا الناس في العصر الحديث من خلال آراء المفكرين الغربيين الذين سنستشهد بأقوالهم في القسم المقبل من هذا الفصل. وفي الرواية الآنفة نكتة لطيفة جداً في قوله «يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض» حيث لم يسبق لأحد من الحكام ممن بسط هيمنته على شعب ما أن حظي برضا كل ذلك الشعب، بينما سيحظى بذلك قائم آل محمد(روحي فداه) مع أنه سيحكم كل شعوب الأرض لا شعبا أو ملة واحدة، ولا يخفى عليك مدى صعوبة ذلك لاسيما مع اختلاف الأذواق والثقافات، بيد أنه سيجمعهم على احترام إنسانيتهم أولاً ولما سيراه الناس من عدله ولطفه ورحمته بهم، وذلك لأن الإمام الحجة هو الوحيد بين آبائه البررة من ستثنى له الوسادة وسيجد هناك متسعا ليعرف العالم بمدى الخسارة التي منوا بها في عدم تمكينه أو آبائه من حكمهم وقيادتهم إلى غير ذلك من الخيرات والبركات التي لا تعد ولا تحصى.

مناقشة

هنا مسألة لفتت انتباهي في التجربة العراقية بعد سقوط نظام صدام المجرم تتعلق بالموضوع، فقد بحت أصوات العلمانيين المساكين من الصياح وهم يصطرخون أبعدوا الإسلاميين عن السياسة، وطالبوا بأن يتبوأ «التكنوقراط» أعباء المسؤولية على اعتبار أن رجل الدين ليس عمله السياسة وإنما هو عمل أهل الاختصاص من الذين يدعونهم «تكنوقراط».

الحقيقة أنني كنت أظن وبعض الظن إثم لاسيما في ما يتعلق بالوزارات الخدمية «وهو رأيي أيضاً في تولي أهل الاختصاص من أهل النزاهة والوطنية لتلك

المناصب» أنها كلمة حق يراد بها باطل، والحمد لله لقد صدق ظني فيهم بعدما تبين أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض!!

فبعد أن خسروا المعركة وهيمن الإسلاميون على مقاليد الأمور (وليتهم لم يفعلوا لأن أعداء الإسلام استغلوا أخطاءهم وعدوها أخطاء للإسلام) تفرغوا لنقض أنفسهم وراحوا يمدون أنوفهم في مجال هم أجهل الناس فيه وأخذوا يكتبون في موضوعة أصلاح الخطاب الديني، مع أنه ليس مجالهم ولا يفقهون فيه شيئاً، وسبحان الله هم بالأمس يحذرون الناس من دخول أهل العمائم إلى مجال السياسة لأنهم يعتقدون أنه مجال غريب عنهم، بينما هم أصبحوا في ليلة وضحاها من أعلم الناس بالشريعة وهم فقط لا غيرهم المعنيون بإصلاح الخطاب الديني حتى يتماشى مع روح العصر!!.

فما عدا مما بدا؟ أنتم بالأمس تقولون لا يمكن السماح لأي أحد بالتعدي على اختصاص الآخر! واليوم تملؤون صحفكم ومجلاتكم بالحديث عن الخطاب الديني وكيفية إصلاحه مع أنكم من أجهل الناس به!.

ومثال على ذلك قرأت في مجلة الأسبوعية العراقية مقالاً لكاتب عراقي اسمه رشيد الخيون (يكتب في كل شيء)، يقول إن الله دعا في القرآن الكريم لدولة علمانية!!.

ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] وكذا قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2]، ولا أدري هل أضحك أم أبكي على هذا الكاتب! وأقول له ما الذي جنيته على نفسك وما هذا الإحراج الذي أدخلت نفسك فيه حتى أني أظن أن كل من قرأ موضوعك قد وضعك ما بين اثنتين، إما جاهل أو مضل عن قصد وعمد.

والغريب أنه يزعم أن هناك ثمانين آية في القرآن تدعو للعلمانية!!.

أقول له أنت لا تفقه شيئاً عن الفرق بين الدين والشريعة، ولو كنت تعلم لعرفت

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٢) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.

أن معنى الآية بعيد كل البعد عن فهمك القاصر، فالدين واحد لم يختلف في دعوة جميع الأنبياء وهو معنى قوله تبارك اسمه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ...﴾[١]. وقوله تبارك وتعالى أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢]. وكذا قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣]، وفي آل عمران: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٤]، وفي المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٥].

إذن الدين واحد وهو الإسلام في كل دعوات الأنبياء، أما الشريعة (وهي طريقة تطبيق هذا الدين) فإنها تختلف ما بين أمة وأخرى حسب الظرف الذي يقدره الله تبارك وتعالى، لذلك أنت تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾[٦].

وهذا المعنى تجده في دعاء الندبة الشريف وهو قوله عليه السلام في ذكر الأنبياء:

(اللهم لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به فقبلتهم وقربتهم وقدمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي وأهبطت عليهم ملائكتك وكرمتهم بوحيك ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذرائع إليك والوسيلة إلى رضوانك فبعض أسكنته جنتك إلى أن أخرجته منها وبعضهم حملته في فلكك ونجيته مع من آمن معه من الهلكة برحمتك وبعض اتخذته لنفسك خليلا وسألك لسان صدق في الآخرة فأجبته وجعلت ذلك علياً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وبعض كلمته من شجرة تكليماً وجعلت له من أخيه ردءا ووزيرا وبعض أولدته من غير أب وآتيته البينات وأيدته بروح القدس وكل شرعت له شريعة ونهجت له منهاجا)[١].

الدين هو مجموعة العقائد والأوامر والنواهي الأساسية التي لا تنفك ضرورتها في كل زمان ومكان، مثل: توحيده تعالى، والإيمان بعدله ولطفه بالعباد، وأنه أرحم بعباده من أمهاتهم اللاتي ولدنهم، والإيمان بالمعاد، وعصمة الأنبياء، ووجوب طاعتهم، والقدرة على اختيار أي الطريقين الهدى أم الضلالة... والأوامر مثل: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبر الوالدين وصلة الرحم والأمر بالمعروف... والنواهي مثل: النهي عن المنكر والاعتداء على الناس وقتلهم وأكل مال اليتيم وشرب الخمر والسرقة والزنا ونكاح المحارم... إلخ.

أما الشريعة فهي الاعتناء بالتفاصيل التي لا تتعارض مع الأصول التي بيناها من عقيدة وأمر ونهي، وكذلك هي الكيفية التي تؤتى بها العبادات المذكورة.

يقول السيد الطباطبائي في الميزان عن هذا الشأن:

معنى الشريعة كما عرفت هي الطريقة والدين، وكذلك الملة طريقة متخذة لكن الظاهر من القرآن أنه يستعمل الشريعة في معنى أخص من الدين كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣]، إذا انضما إلى قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٤] الآية وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[٥].

فكان الشريعة هي الطريقة الممهدة لأمة من الأمم أو لنبي من الأنبياء الذين بعثوا بها، كشريعة نوح وشريعة إبراهيم وشريعة موسى وشريعة عيسى وشريعة محمد ﷺ، والدين هو السنة والطريقة الإلهية العامة لجميع الأمم فالشريعة تقبل النسخ دون الدين بمعناه الوسيع[٦]. إذن ممكن أن يأتي الدين كلفظ جامع للعقائد

(١) مفاتيح الجنان/ ٦٢٠ - ٦٢١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ١٨.
(٦) الميزان ج٥/ ٢٠١.

والأحكام (أي الأصول والفروع) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]. والدين المتفقه فيه هنا هو مجمل العقائد والأحكام.

وكما بينا أن حرية الاختيار وعدم الإجبار منه تعالى لخلقة على الإيمان به وبحكمه لهو من أكمل نعمه علينا، بيد أنه أوضح أن الذي لا يختار دينه وشرعته سيوقعه ذلك في المهالك التي ستؤدي به إلى ظلم الناس والإضرار بالنظام الكوني وبالتالي استحقاق العقوبة، وفهم المسألة بسيط جداً ويمكننا أن نلخصها بما يلي:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، والعبادة التي فرضها على الإنسان، هي لمصلحة الآخير ولا ينالنه تبارك وتعالى منها شيء، ولأجل إنجاح هذه الغاية، صمم (بيئة) تتناسب وطبيعة التكاليف التي ستتنزل على الإنسان، وجعل عالم التشريع وعالم التكوين توأمين يؤثر بعضهما في بعض، فما من عمل صالح يؤدى من قبل الإنسان إلا وله أثر ايجابي في الكون والعكس صحيح، واليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[3]. الآية واضحة الدلالة في تأثير الاستغفار والاقالة من الذنوب في النظام الكوني ودفعه باتجاه إنزال الخيرات والبركات، والعكس أيضاً صحيح كما في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[4]. ولعل الرواية الآتية توضح الأمر بأبلغ عبارة، فعن رسول الله أنه قال: «مثل القائم على حدود الله والمرتهن فيها كمثل قوم استهمّوا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها... فقال الذين في أسفلها: إننا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً». ولقد علق الشيخ مكارم الشيرازي على هذه الرواية بقوله:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.
(٤) سورة النحل، الآية: ١١٢.

ولقد جسد النبي الأكرم ﷺ بهذا المثال الرائع موضوعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنطقية هاتين الفريضتين بغض النظر عن أمر الشارع بهما، وبذلك قرر حقّ الفرد في النظارة على المجتمع على أساس أنه حقّ طبيعي ناشئ من اتحاد المصائر في المجتمع، وارتباط بعضها ببعض(١).

يشبه الرسول الأكرم المجتمع في هذه الرواية بالسفينة ومقترف الذنب كالذي يخرقها أو ينقبها، فان منع من ذلك نجا المجتمع ككل وإن تركوه هلك وهلكوا معه، لسماحهم له باستجلاب المصائب وصنعها بعمله السيئ، الذي لن يصيبه هو وحده بل سيكون مصيبة عامة للجميع.

بعد هذه المقدمة، أعود للخيون وأقول له، من هنا حاسب الله على ترك الشريعة ولم يحاسب في الدنيا على عدم الايمان، لأن مخالفة الشريعة فيها ضرر عام بينما يعد عدم الإيمان ضررا خاصا إن لم يقم صاحبه بإضلال الناس وحجب نور الهداية عنهم.

على هذا افهم لم قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(٢)، فالله سبحانه ليس لديه مشكلة في هذا فان همّه تعالى ليس عبادته وإنما همّه عباده، وكذا قوله عزّوجلّ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾(٣)، أي لا سلطة لك في إجبار الناس على أن يؤمنوا، لأنه ببساطة اعتقاد قلبي، وإنما دورك يتحدد في المسؤولية عن إيصال الهدى للناس وإبعاد كل من يقف حجر عثرة بهذا الطريق.

فالله تبارك وتعالى لا يدعو للعلمانية كما تزعم يا خيون، وإنما يمنح الإنسان حرية الإيمان في هذه الدنيا من خلال حرية الاختيار التي حباه بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾(٤).

وان أصررت على موقفك وأبيت إلاّ أن تقول به، فانك تتهم الله بالعبث (حاشاه) وإلاّ فما معنى إرساله مائة وأربعة وعشرين ألف نبي للدعوة لتوحيده وإتباع

---

(١) تفسير الأمثل ج٢/ ٦٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٣) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

أوامره وطاعة ولاة أمره، ومنهم من دفع حياته في سبيل ذلك وتحملوا أشد الصعاب.

وما معنى أن ينزل أحكاما وشرائع في كتبه ويضع نظاما للعقوبات وجملة من العقود والإيقاعات لتأمين وتنظيم كل الحالات التي يحتاج فيها المجتمع إلى حكم، ويعتني بشؤون الحرب والسلم والنظام الاقتصادي والاجتماعي والصحي وحتى البيئي، لا بل لم يغفل حتى عن حقوق الحيوان... إلى غيرها من الأمور التي نظمها بقوانين، كما لم يغفل عن تعيين الحاكم.

أولا تُعد كل هذه الأمور بنظر الخيون عبارة عن دولة تحكم بالنظام الديني؟! قد دعا إليها القرآن وكل الكتب السماوية قبله.

من هنا نفهم أن لا مفك من وجوب الالتزام بالإسلام والوقوف عند أوامره ونواهيه، لأنه يمثل جملة العقائد والأحكام التي حبانا بها الخالق جل وعلا للسير الآمن نحو السعادة والكمال «حلم البشرية» وهو لا غيره من يستطيع قيادة دفة الحياة وتأمين السعادة للإنسانية جمعاء.

شهادات للإسلام من أعمدة الفكر الغربي

إن من أوضح الدلائل على أحقية الإسلام، انسجامه مع الفطرة بحيث لو ترك الإنسان ليتصرف على سجيته لاكتشف أن أغلب أعماله تتطابق أو تتناغم مع تفكيره العقلاني «إن حكّمه في أفعاله»، وكذا مع ذلك الصوت أو الرقيب الباطني المدعو الضمير.

بعد أن سقنا أدلة العقل والنقل، ننتقل في هذا القسم إلى الاستشهاد بآراء نبذة من أعمدة الفكر الغربي من فلاسفة وأدباء ومفكرين، إضافة إلى العديد من العلماء في شتى الاختصاصات.

نحن حينما نأتي بأقوال هؤلاء العلماء لا لأن الإسلام بحاجة لشهاداتهم وإنما هم شهود على فشل جميع المناهج والرؤى والأفكار التي طرحها أصحابها كبديل للإسلام لجلب السعادة للبشرية وأصبحت كالجسم الغريب عن عقل ونفس الإنسان فكلما حاولوا زرعها فيه رفضها عقله ومجها قلبه وازداد هما وتحيرا واضطرابا.

وجئنا بهم أيضاً لأنهم عبارة عن تجربة عقلانية محايدة قام بها مجموعة من المفكرين من دون أن يتفقوا على ذلك، متكلين على قدرة عقولهم على التمييز والمقارنة بين مختلف الأنظمة والشرائع وبين الإسلام، وأي من هذه الأنظمة هو الأكثر ملائمة مع الحاجات الإنسانية الضرورية من دون أن يكون هناك تنافر بين طبيعة الإنسان وهذه الأحكام المختلفة، فجاءت خلاصة تجربتهم بعد أن فرّغوا أنفسهم لمدة من الوقت لدراسة الإسلام صاعقة بالنسبة لهم حيث اكتشفوا أن النظام الإسلامي قد تكفل بكل ما من شأنه أن يجلب السعادة للإنسان، وتكفل أيضاً بوضع الحلول الناجعة التي تتناغم مع الفطرة الإنسانية لكل ما يواجه من مشاكل في كل عصر، وهذا ما كانوا في أشد الغفلة عنه.

وإليك أقوالهم اقرأها بنفسك واشعر بمدى النعمة التي أنعم الله بها علينا بالإسلام.

عن القرآن

كتب البروفيسور الإيطاليّ الشهير الدكتور «واجليري» يقول بشأن القرآن الكريم:

«نحن نرى في هذا الكتاب ذخائر وخزائن من العلم هي فوق استعداد أذكى وأقوى رجال السياسة وأكبر الفلاسفة، وبهذه الدلالة نقول: لا يمكن أن يكون القرآن من عمل رجل عالم، فضلاً عن رجل قضى كل عمره في مجتمع غير مهذّب بعيد عن رجال العلم والدين، هذا الرجل هو الذي كان يُصر أنه رجل كسائر أفراد البشر، وحينئذ فانّه لم يكن يستطيع أن يصنع هذا المعجز من دون تأييد من الله تعالى، ولا يمكن أن يكون القرآن صادراً إلاّ من ساحة ربّ قدير يحيط علمه بما في السموات والأرض جميعاً»[١].

أما رينيه جينو أو (عبد الواحد يحيى) الفيلسوف الفرنسي الذي درس الأديان عامة ثم اعتنق الإسلام وأبدل اسمه، فيقول عن القرآن: «أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة سوى القرآن»[٢].

وكتبت (مارغريت ماركوس) وهي أمريكية من أصل يهودي أسلمت وألفت كتباً حول الإسلام مثل (الإسلام في مواجهة الغرب) تقول:

«منذ أن قرأت القرآن عرفت أن الدين ليس ضرورياً للحياة فحسب، بل هو

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية/ كتاب الكتروني للسيد مجتبى الموسوي اللاري/ عن موقع المؤلف في الشبكة العالمية.

(٢) سلسلة نماذج حية للمهتدين إلى الحق، علماء ومفكرون وأدباء وفلاسفة أسلموا، للحسيني الحسيني معدى ج٢/ ١٣٣.

الحياة بعينها، وكنت كلما تعمقت في دراسته ازددت يقينا أن الإسلام وحده هو الذي جعل من العرب امة عظيمة متحضرة قد سادت العالم»[١].

الإسلام دين الفطرة

وبشأن موافقة الإسلام للفطرة وملاءمته لكل زمان، يقول المفكر والرسام الفرنسي الشهير (اتيان دينيه)، وهو صاحب العديد من المؤلفات القيمة مثل (الشرق كما يراه الغرب): «لقد أكد الإسلام من الساعة الأولى لظهوره أنه دين صالح لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة»[٢].

يقول المفكر الانجليزي مارتن لنجز:

«لقد وجدت في الإسلام ذاتي التي افتقدتها طوال حياتي وأحسست وقتها أني إنسان لأول مرة فهو دين يرجع بالإنسان إلى طبيعته حيث يتفق مع فطرة الإنسان»[٣].

واقعية الإسلام

وبشأن واقعية الإسلام يقول البروفيسور(نشكنتنا دهيابا) أستاذ التاريخ في جامعة ميسوري: «قد بنيت اختياري للإسلام على ثلاثة أمور: أولاً صحة أخباره، ثانيا موافقته للعقل، ثالثاً أنه عملي لا خيالي، فلا يوجد في الإسلام ثلاثة في واحد، ولا ثلاثون مليوناً من الآلهة»[٤].

---

(١) م ن ج٢/ ٢١٦.
(٢) م ن ج٢/ ٥٠.
(٣) م ن ج٢/ ٣٩.
(٤) م ن ج٢/ ٢١٩.

شمولية الإسلام لجميع مناحي الحياة

أما عن إحاطة الإسلام وقدرته على تنظيم كل مناحي الحياة، فيقول المفكر الانجليزي (عبد الله كويليام): «أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. انه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة، وعلى ذلك فالقرآن يختلف عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعديمة التأثير»[١].

وإليك أيضاً رأي (حسين روف) أحد أكبر علماء الاجتماع الانجليز يقول بهذا الشأن:

«ليس هناك مجال لشرح كل أمور الحياة التي وجدت في شرائع الإسلام حلولا، لم أجدها في غيره، ويكفي أن أقول إنني - بعد تفكير وتدبر - رأيتني أهتدي إلى الإيمان بهذا الدين، بعد دراستي لجميع الأديان الأخرى المعروفة في العالم بدون أن أقتنع بأي واحد منها»[٢].

(١) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ١٦١.
(٢) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ٣٧.

الشيوعيون يقرون بأحقية الإسلام

كتبت مجلة حزب توده الإيراني تقول: «إن ظاهرة الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي من الوقائع التاريخية الأساسية التي غيّرت صورة الحضارة البشرية، وتركت آثاراً عميقة في مسيرة التطوّر لما بعدها. إن هذه الواقعة العظمى أي ظهور الإسلام الذي اتّسعت فتوحاته في أقل من قرن حتى ساحل السند وجيحون من جانب، والى ساحل «لوآر» من جانب آخر، تملأ باباً آخر غريباً من كتاب حياة البشرية.

لقد كانت في جزيرة العرب مراكز أخرى لنشر العقائد الدينية اليهودية أو المسيحية، وكان عرب مكة وقبائلها وثنيّين، ومكّة مركز تجارتها واستغلال المرابين بها، ومركز الشعور القومي العربي، ومركز تضارب الأديان المختلفة وتطور النظام القبلي إلى النظام الإقطاعي الفئوي.

وانتشر الإسلام في البداية بين صغار الكسبة والفلاحين والعبيد، وكان يشكّل حركة ديمقراطية ضدّ استغلال الربويّين الكبار، ولهذا اضطر إلى ترك مكّة إلى المدينة.

إن دين الإسلام كان يحتوي من ناحية على خصائص سائر الأديان أيضاً، ولكنه من جانب آخر كانت فيه جوانب حيويّة وماديّة، فاجتنابه الرهبنة، واتجاهه إلى التساوي بين العناصر والقبائل، والتساوي النسبيّ بين حقوق الرجل والمرأة، ودفاعه عن العبيد والفقراء وأبناء السبيل، وسذاجة أصوله وبساطتها، كل ذلك من مميّزاته عن سائر الأديان، والتي تمنحه عنوان نهضة اجتماعية متحركة وحيوية.

نزل الإسلام على رأس الحكام الدمويين والمغرورين كأقوى ضربة دامغة، وتلقاه الفلّاحون وصغار الكسبة والتجار المدنيين كرحمة وإنقاذ. وأورد الإسلام ضربته القوية في فرصة مناسبة على الجسد العظيم، لكن الواهي، للإمبراطوريتين، فسقطتا من تلك الضربة القاضية، ثم شكّل هو إمبراطورية عظمى من حدود الصين حتى حدود إسبانيا والأندلس»[١].

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

رسول الإسلام محمد ﷺ

كان «فولتير» الشاعر والأديب والمفكر الفرنسي في البداية أحد ألدّ أعداء الإسلام ومخالفيه، وكانت له أحكام جائرة بشأن الرسول الأكرم ﷺ، وبعد أربعين عاماً قضاها في الدراسات الدينية والفلسفية والتاريخية أدرك الحقيقة فأعلن صريحاً يقول:

«إنّ الدين الذي جاء به محمّد ﷺ كان أسمى من المسيحية بلا ريب، ولم يبتل المؤمنون به، بذلك الكفر الجنوني الذي ابتلي به النصارى، فقالوا: إنّ الإله الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد، فالإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد كان الأصل لهذا الدين. إنّ الإسلام مدين في وجوده لرجولة قائده... وفتوحاته، بينما يحمل النصارى الآخرين على دينهم بمعونة السيف وتلال النار. فيا ربّي، ليت شعوب أوربا يجعلون المسلمين أسوتهم وقدوتهم».

«كان محمّد رجلاً عظيماً جدّاً بلا ريب، وقد ربّى في حجر فضله وكماله رجالاً عظاماً أيضاً، كان مشرّعاً حكيماً، وسلطاناً عادلاً، ورسولاً تقيّاً، وأحدث أكبر ثورة في الأرض»[1].

وكان (فولتير) يحترم النابغة الكبير (مارتين لوثر)[2]، فكأنّه سُئل عن القياس بينه وبين النبي محمّد ﷺ، فقال: «ليس جديراً للوثر أن يحلّ بنود حذاء محمّد»[3].

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

(٢) (مارتن لوثر) قس ثار على الكنيسة الكاثوليكية وعلى سلطة البابا وأسس مذهب النصارى البروتستانت.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية.

الإسلام والعلم

كتب (بارون كارول دو) يقول: «إن المسلمين اكتسبوا توفيقا كبيراً في علوم مختلفة، وهم الذين علّموا الناس استعمال الأعداد... ونظّموا الجبر والمقابلة على شكل علم صحيح، وتقدّموا به خطوات كبرى، وأسّسوا أساس الهندسة التحليلية، ولا شك أنهم هم مخترعو المثلثات السطحية والكروية التي لم يكن لها سابقة في اليونان من قبل.

حينما كان العالم المسيحي الغربي في حروب مع البربر كان المسلمون العرب مشتغلين بدراسة العلوم، وكانوا يسعون سعياً حثيثاً للحفاظ على معنوياتهم ودينهم»[١].

وكتب (ويل ديورانت) الفيلسوف المعروف صاحب كتاب تاريخ الحضارة يقول: «إن الكيمياء بوصفه أحد العلوم كان من إبداع المسلمين تقريباً، فإنهم هم الذين أضافوا على عمل اليونان الذي كان محصوراً في بعض التجارب ثم الافتراضات المبهمة أضافوا إليها المشاهدات الدقيقة والتحاليل العلمية وثبت النتائج. إنهم حلّلوا كثيراً من المواد. ولهم كتب بشأن بعض الأحجار، وميّزوا بين أنواع الاسيد والمواد القلبائية. وبحثوا حول مئات الأدوية الطبية وصنّعوا مئات أخرى. ومن تبديل المواد بعضها ببعض ولاسيّما الذهب والفضة توصّلوا إلى الكيمياء الحقيقية. وبكثير من كتب العلماء المسلمين التي لم يعرف مؤلّفوها ولكنها تُرجمت إلى اللغة اللاتينية تقدم الكيمياء في أوربا»[٢].

يقول الجراح الفرنسي (موريس بوكاي) رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

(٢) م ن.

بشأن العلم والقرآن: «لم أجد التوافق بين الدين والعلم إلا يوم شرعت في دراسة القرآن الكريم، فالعلم والدين في الإسلام شقيقان توأمان»[١].

وعن الجانب العلمي في شخصية الرسول الأعظم يقول: «كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمّيا أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة»[٢].

وهذه شهادة عالم التشريح والأجنة البروفيسور (كيث مور)، وهو من أكابر العلماء في هذا الاختصاص في العالم، يعلن شهادته في أطوار خلق الإنسان في القرآن الكريم:

«إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلاّ كلام الله، وأن محمداً رسول الله» و«إنني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمداً ﷺ أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين، لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين»[٣].

كلامه هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٤].

وبالمقابل انظروا ماذا فعلت الكنيسة بالعلماء والمفكرين: (فيكتور هوگو)

---

(١) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ١١

(٢) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ١٨عن كتاب مور (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)/ ١٥٠.

(٣) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ٢٠ - ٢١.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٤.

الكاتب والشاعر الفرنسي يسخر من أرباب الكنائس ومحاكم تفتيش العقائد فيقول: «ليست حياة الكنيسة من تاريخ التقدم الإنساني بل إن حياتها خلف صفحات التاريخ، فهي التي جرحت (برنيلي) بضربات السياط لقوله بأن النجوم لا تقع من مواقعها! وهي التي حكمت على (كاميلاند) بالسجن مع الأعمال الشاقة سبعاً وعشرين مرّة، لقوله: بأن هناك غير عالمنا هذا عوالم عديدة. . ، ولإشارته إلى الهدف من الخلقة في كلماته. وهي التي عذّبت (هاروى) لأنه أثبت أن في عروق البدن مادةً سيّالةً باسم الدم تجري فيها، وليس في العروق دم ساكن لا حركة له. وهي التي سجنت (كريستوف كلمب) لاكتشافه أرضاً لم تتنبأ بها التوراة والإنجيل، فان اكتشاف أرض غير متنبأ بها في كتب العهدين كان يُعد عداءً لدين الكنيسة. وهي التي كفّرت «باسكال» باسم الأصول الدينية، و(مونتي) باسم الأصول الأخلاقية، و«مولر» باسم الأصول الدينية والأخلاقية»[١].

وكتب مارسل كاش يقول: «في هذا العهد شنقوا خمسة ملايين شخص بجرم التفكير بخلاف حكم البابا، أو أودعوهم سجوناً مظلمة مرطوبة حتى الموت. ومن سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٤٩٩م أي في ثماني عشرة سنة احرقوا بحكم (محكمة التفتيش) ألفاً وعشرين شخصاً حيّاً، وشقوا نصفين ٦٨٦٠ شخصاً، وعذّبوا ٩٧٠٢٣ شخصاً حتى الموت».

«وفي القرون الوسطى وبحكم محكمة تفتيش العقائد ومن العلماء والمفكّرين فقط احرقوا ثلاثمائة وخمسين ألفاً أحياءً»[٢].

وكتب المؤرخ الشهير الأمريكي (درابر) يقول: «كان للعلماء المسلمين يد طولى في أكثر العلوم القديمة والحديثة، وكانت لهم خبرة ومهارة تامة في علوم الميكانيك ومعادلات السوائل، وعلم الحركات الأولية (الديناميك) وحل المعادلات الكيمياوية والفيزياء والتقطير والتصعيد. في الجامعات الإسلامية كانت تدرّس مختلف العلوم من الفيزياء والكيمياء والهيئة والفلك إلى دروس الزراعة

(١) الإسلام والحضارة الغربية نقلاً عن دائرة معارف القرن العشرين ج٦/ ٥٩٨.
(٢) م ن.

والطب والأخلاق، وكان فيها أساتذة فلاسفة كبار، ولم تكن يومئذ أيّ جامعة كالجامعة الإسلامية تشتمل على ستة آلاف طالب»[١].

المساواة في الإسلام

وعن المساواة في الإسلام كتب العالم الفرنسيّ الشهير الدكتور (غوستاف لوبون) يقول: «إن المساواة لدى المسلمين تبلغ إلى درجات الكمال، هذه المساواة التي تذكر في أوربا بكل حرارة وهياج وهي وِردٌ على ألسنة مختلف الطبقات من الناس، ولكن لا نرى منها أثراً في الواقع الخارجي سوى في بطون الكتب...

كانت موجودة بين المسلمين عمليّاً وفي سلوك الشرقيّين. وهذا الخلاف الشديد الذي نراه بين مختلف طبقات أصحاب الثورة الأوربية (الفرنسية) لا نرى له نظيراً بين المسلمين، فقد ألغى الإسلام التمايز الطبقي والأسري والعائلي والشخصي بصورة كلية، والمسلمون كلهم في نظر رسول الإسلام إخوة متساوون.

قامت في العالَم العربيّ هذه الشخصية التي جمعت مختلف القبائل تحت كلمة واحدة، وربطتهم وقيّدتهم بسلسلة من القوانين والأنظمة الخاصة، فهم من أيّ عنصر وبلد لم يكن بعضهم أجنبياً على الآخرين منهم، فللمسلم الصينيّ بإسلامه من الحقوق في البلد الإسلاميّ نفس ذلك الحقّ الذي يكون للمسلم العربيّ، وإن كان بينهم بالنظر إلى عناصرهم وقومياتهم اختلاف كثير، ولكنهم لهم بدينهم ارتباط معنويّ خاصّ يسهّل عليهم اجتماعهم تحت لواء واحد»[٢].

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية نقلاً عن دائرة معارف القرن العشرين ج٦/ ٥٩٨.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية.

المرأة في الإسلام

وبشأن المرأة كتبت مارغريت ماركوس[١]، تقول:

«على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحيائهن من الانتهاك ومن ضياع الأسرة»[٢].

بالمقابل انظروا ما الذي جنته المرأة حينما انطلت عليها خدعة المساواة مع الرجل التي لا تتناسب حتى مع طبيعة تكوينهما الفسيولوجي.

كتب أستاذ علم النفس البروفسور (البرت كانلي) ضمن مقالة علمية يقول فيها: «حينما كانت النساء الإنجليزيات في سنة ١٩١٩م يناضلن للحصول على حقّ الدخول في البرلمان ولا يخشين السجون والموت، لم يكن يومئذ من يظنّ أن الحرية التي كنّ يطالبن بها ستتبدّل بعد نصف قرن بحيث تكون سبباً في الحطّ من المكانة الاجتماعية للمرأة بصورة كلية.

والآن لو كانت أولئك النسوة أحياء كان عليهن أن ينادين ويتظاهرن لاسترجاع هذه الحرية وحرمان النساء منها، فقد أثبتت التجربة في الخمسين سنة الأخيرة أن النساء لم يحصلن بحرّيتهن على شيء، بل إنهنّ ضحيّن بكرامتهنّ التي كانت لهن قبل ذلك»[٣].

أحببت هنا أن أنقل هذا الحديث الذي يكرم المرأة أيما إكرام:

وَفِي حَدِيثِ الْحَوْلَاءِ. . . فَقَالَتِ الْحَوْلَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا كُلُّهُ لِلرَّجُلِ، قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: فَمَا لِلنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَخْبَرَنِي

(١) أمريكية من أصل يهودي وضعت كتبا منها (الإسلام في مواجهة الغرب) و (رحلتي من الكفر إلى الإيمان) و (الإسلام والتجدد) و (الإسلام في النظرية والتطبيق).
(٢) نماذج حية للمهتدين إلى الحق ج٢/ ٢١٦.
(٣) الإسلام والحضارة الغربية.

أَخِي جَبْرَئِيلُ وَلَمْ يَزَلْ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ لَا يَحِلَّ لِزَوْجِهَا أَنْ يَقُولَ لَهَا أُفٌ، يَا مُحَمَّدُ اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ عَلَى أَمَانَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ مِنْ فُرُوجِهِنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ مِنْ فَرِيضَةٍ وَسُنَّةٍ وَشَرِيعَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقّاً وَاجِباً لِمَا اسْتَحْلَلْتُمْ مِنْ أَجْسَامِهِنَّ وَبِمَا وَاصَلْتُمْ مِنْ أَبْدَانِهِنَّ وَيَحْمِلْنَ أَوْلَادَكُمْ فِي أَحْشَائِهِنَّ حَتَّى أَخَذَهُنَّ الطَّلْقُ مِنْ ذَلِكَ فَأَشْفِقُوا عَلَيْهِنَّ وَطَيِّبُوا قُلُوبَهُنَّ حَتَّى يَقِفْنَ مَعَكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا النِّسَاءَ وَلَا تَسْخَطُوا بِهِنَّ وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا بِرِضَاهُنَّ وَإِذْنِهِنَّ[1].

(١) مستدرك الوسائل ج١٤/ ٢٥٣.

تعدد الزوجات

كتب الفيلسوف الألماني الشهير (شوبنهاور) عن هذا الموضوع يقول: «حينما يكون تعدّد الزوجات في مجتمع ما، قانونياً مسموحاً به، فمن الممكن القريب من الواقع، أن الأكثرية الساحقة من النساء يكون لهن أزواج وأولاد، وذلك يعني أنهنّ مقضيّات الحاجات الروحية والغريزية، ولكن في أوربا حيث لا تسمح لنا الكنيسة بهذا العمل، فسوف تبقى النساء غير المتزوجات أكثر بكثير جدا من النساء المتزوّجات، وما أكثر النساء والبنات اللواتي يحترقن لسنين وأعوام من أعمارهن في حسرة الأزواج والأولاد بل حتى اختفين ونمن في بطن الأرض من دون أن تقضى لهنّ هذه الحاجة الملحّة والطبيعية، . . ولم يبلغن بذلك إلى الزوج والولد وهما من الحاجات المشروعة والمصيرية لكل امرأة.

أنا كلّما أفكّر وأفتّش وأبحث فاني لا أتمكّن من أن أجد دليلاً مقنعاً على أن الرجل لو أصيبت امرأته بمرض مزمن، أو كانت عقيمة، أو عاجزة عن الحبل والولادة، لماذا لا يحقّ له أن يختار امرأة أخرى؟! وعلى الكنيسة أن تجيب، ولكنها أيضاً غير قادرة.

والقانون الجيّد هو ما يتكفّل العمل به، بحياة سعيدة، لا الذي يحدث العقد والحرمان أو يجعل الأيدي والأرجل في الأغلال والسلاسل، أو يزيد في الضلال والفساد والضياع والفحشاء وما ينافي عفاف النواميس»[1].

ويقول قائد الحركة العرفانية الإنجليزي (آني بيزانت):

«إنّ الغرب يدّعي أنه لم يقبل قانون تعدّد الزوجات، وحقيقة الأمر هي أن تعدّد

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

الزوجات موجود في الغرب ولكن بدون مسؤولية! بمعنى أن الرجل حينما يحصل على شهوته من رفيقته فإنه سوف يطردها عن نفسه، وبالتدريج تصبح امرأة متروكة في الشوارع والأزقة متحيّرة لا تدري إلى أين تأوي، ذلك أنه لا مسؤولية على عُهدة صاحبها عنها، وإنّ حالة هذه (الخالة الضائعة)! آسوأ مئة مرّة من المرأة التي قد أصبحت زوجة قانونية ثم أمّاً بل جدّة، تعيش في الأسرة تحت حماية الزوج والولد.

نحن حينما نرى ألوفاً من النساء البائسات قد تجمّعنّ في شوارع المدن الغربية طوال الليل وهنّ تائهات ضائعات لا يدرين إلى أين يذهبن، نطمئن إلى أنّ على الغربيّين أن يسدّوا أفواههم عن لوم الإسلام بشأن تعدّد الزوجات! إن المرأة حتى في حالة تعدّد الزوّجات إذ هي مع زوجها وأولادها القانونيين وبصورة محترمة في بيتها.. أفضل بكثير ومن جميع الجوانب وأسعد وأكثر كرامة وحرمة من امرأة تعيش متحيّرة متردّدة في الشوارع والأزقة، والتي أصبحت ضحية شهوات الرجال وهي تحمل طفلاً لا شرعية له ولا قانون يدافع عنها»[1].

وكتب الدكتور (غوستاف لوبون) الفرنسيّ يقول:

«لم يوصف شيء من تقاليد الشرق أسوأ مما وصف به موضوع تعدّد الزوجات، ولم تخطئ أوربا في شيء كما أخطأت بشأن هذا الموضوع. حقاً أنا متحيّر ولا أدري ماذا يختلف تعدّد الزوجات الشرعي في الشرق عن تعدد الزوجات غير القانوني في الغرب؟ ما الذي يعوزه؟ ولماذا؟ بل أنا اعتقد أن تعدّد الزوجات الشرعي أفضل وأليق من جميع الجوانب»[2].

نساء ألمانيا يطالبن بالسماح بتعدد الزوجات

اقرأ عزيزي القارئ وتأمل كيف أن الإسلام جاء منسجماً مع الفطرة وملبياً واقعياً لكل حاجات الإنسان الضرورية، واليك هذا المثال:

(١) الإسلام والحضارة الغربية.
(٢) م.ن.

في الحرب العالمية الثانية إذ ذهب ملايين من الرجال ضحيّة الموت والفناء والدّمار، وأرمل جمع كثير من النساء وأصبحن بلا أزواج ولا قيّم ولا كفيل، تشكلت جمعية منهنّ وطلبن من حكومة ألمانيا بعد الحرب أن تعلن عن السماح بتعدد الزوجات. ولكن الكنيسة خالفت في ذلك. وحيث لم تقدر أن تقدّم المسيحية طريقة منطقية لحلّ هذه المشكلة، تلوّث المجتمع بأنواع من المفاسد الأخلاقية والانحرافات الجنسية، وزيادة الفحشاء والعلاقات غير الشرعية سبّبت في ازدياد الأولاد غير الشرعيين.

وكتبت الجرائد تقول:

«بعد الحرب العالمية الثانية طلبت جمعية النساء غير المتزوّجات، من حكومة ألمانيا أن تعلن عن السماح بتعدّد الزوجات، وبذلك تساعد النساء لوصولهن إلى حاجاتهن الطبيعية الشرعية أي الزواج والولد القانونيين. وخالفت الكنيسة في ذلك، وكلنا يعلم أن مخالفة الكنيسة أصبح يساوي إصابة كل أوربا بكل ما ينافي العفّة العامّة»[1].

الزواج المؤقت (المتعة)

تتذكر عزيزي القارئ ما سطرناه في بداية هذا القسم من الفصل حيث قلنا إن الإنسان لو ترك على سجيته وأعمل عقله سيجد أن أحكام الإسلام تتناغم مع الفطرة، وهي الوحيدة التي تعي المشكلة بشكل حقيقي وتضع الحلول الناجعة والشافية بكل معنى الكلمة، اقرأ ماذا يقول هذا العالم الغربي عن زواج المتعة (المؤقت)، بمجرد أن أعمل عقله اهتدى إلى نفس الحل الذي وضعه الإسلام لهذه المشكلة قبل أربعة عشر قرنا مضت، إذن فليعرف الذي يشنع على هذا الحكم والحل الإسلامي لهذه المشكلة الخطيرة أي عقل واهن يملك.

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

فقد كتب الفيلسوف الانجليزي (برتراند راسل) عن هذا الموضوع مشيراً إلى أن أفضل حل لمشاكل الشباب من ضغط الحاجة الجنسية هو الزواج المؤقت، يقول:

«إن الضرورات اليوم والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية قد أخّرت زواج الشبان والشابات على خلاف ما نميل إليه ونريده، إذ الشاب قبل قرن أو قرنين كان يُنهي دراسته في ما قبل العشرين من عمره، فكان مستعداً للزواج في بدايات ضغوط الغريزة، وقليلاً جداً كان أولئك الذين كانوا يضطّرون إلى أن يستمرّوا في دراستهم في الفروع العلمية الاختصاصية حتى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم، فلا يستعدون للزواج قبل إنهائها... أما اليوم فان الشباب يدخلون الفروع الاختصاصية لتوهم في ما بعد العشرين، وبعد فراغهم من الدراسة يقضون فترة يبحثون فيها عن عمل مناسب لهم يؤمّنون به معاشهم، وبعد الخمسة والثلاثين من أعمارهم غالباً يستعدون للزواج وتأسيس الأسرة، ولهذا فان على الشباب اليوم أن يقضوا فترة طويلة في ما بين البلوغ والزواج كيفما كان وعلى أي حال، بينما هي الفترة الحسّاسة وعهد رشد الغريزة الجنسية وطغيانها وصعوبة المقاومة أمامها ومغريات الحياة.

ليس لنا أن نحذف هذا الشطر الحسّاس من حساب العمر أو نظام المجتمع البشري، ولو أردنا ألا نفتح حساباً خاصاً لهذه الفترة الطويلة والحسّاسة من العمر ولا نفكّر بهذا الشأن كان نتيجة ذلك شيوع الفساد وإهمال الصحة والنسل والأصول والأخلاق بين مختلف طبقات المجتمع رجالاً ونساءً، فماذا نعمل؟!.

الرأي الصحيح هو: أن تسمح القوانين المدنية لحلّ هذه المشكلة بنوع من «الزواج المؤقت» لهذه الفترة الحسّاسة من العمر، بحيث لا يستوجب تحمّل ثقل مشاكل الحياة العائلية ولا يكون زواجاً دائماً، في الوقت نفسه يحفظهم من مختلف المفاسد والأعمال غير المشروعة وتحمل الألم الروحي للذنوب والتخلف عن الأصول والأحكام، وكذلك من الأمراض المختلفة»[1].

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

الزواج والطلاق في الإسلام

إقرار فولتير بأن قانون الزواج والطلاق الإسلامي هو الأكمل والأشمل على وجه الأرض، حيث يقول:

«إنّ محمداً كان مشرّعاً عاقلاً يريد أن ينقذ البشرية من الشقاء والجهل والفساد، كان ينظر إلى مصالح جميع الناس في الأرض من الرجال والنساء والكبار والصغار، العقلاء والمجانين، الأبيض والأسود والأصفر والأحمر. وليس هو الذي أشاع تعدد الزوجات، بل هو الذي حدّد العدد غير المحدود من النساء اللواتي كنّ يرتمين في فراش الملوك وأمراء الدول الآسيوية إلى أربع فقط، إن قوانينه بشأن الزواج والطلاق أفضل بكثير من القوانين المشابهة في دين المسيح، أما في الطلاق فلعلّه لم يوضع لحد الآن قانون أكمل من قوانين القرآن بشأن الطلاق»[1].

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

القضاء في الإسلام

«أما العالم الفرنسي الشهير الدكتور (غوستاف لوبون) فقد كتب بشأن الأمور القضائية في الإسلام يقول: «إن الأمور القضائية وترتيب المحاكمات لدى المسلمين بسيطة ومختصرة جداً، فالذي يُعيّن من قبل أمير العصر بمنصب القضاء يحاكم جميع الدعاوى ويفصل فيها الحكم شخصياً، والحكم يكون حكماً قطعياً، يحضر طرفا الدعوى فيشرحون قضاياهم ويقيمون دلائلهم، ثم يقضي القاضي ويصدر الحكم في نفس تلك الجلسة من دون أيّ تأخير»[1].

مضيفاً: اتّفق لي أن حضرت إحدى المحاكم في مراكش والقاضي كان يستمع إلى الدعاوى والأدلة فشاهدت المجلس وقضاء القاضي، كان القاضي جالساً في مكان متصل بدار الحكومة من دون حصار حوله، وكل واحد من طرفي الدعوى وشهوده حوله وبيّن كل واحد منهم مطالبه في ألفاظ ساذجة مختصرة، وإذا كان أحدهم يحكم عليه بعقوبة السياط كان الحكم ينفّذ في نهاية الجلسة وفي نفس المكان.

ومن أكبر الفوائد في هذا الأسلوب من القضاء ألاّ تتلف أوقات أصحاب الدعوى، ولا يخسر هنا أحدهم تلك الخسائر الباهظة التي نراها اليوم على أثر التعقيدات المحكمية الكثيرة اليوم، وتُنفّذ بالعدل والإنصاف كل الأحكام الصادرة بصورة ساذجة ومن دون تشريفات كثيرة.

إذا اطمأن أفراد المجتمع إلى أنّ القانون الذي يسودهم قانون إلهي من قبل إله عادل، وأنّ الأمير المتعهد بإدارة أمورهم لا يتمتّع إلاّ بحقوق متكافئة لحقوقهم، وأن القاضي المستند إلى مسند القضاء يأخذ حكمه من القانون الإلهي ولا يستلهمها من أهوائه حينئذ تجفّ جذور القلق والاضطراب الناتج من العدوان على العدل، ويتمتّع جميع أفراد المجتمع بطمأنينة وأمان كامل تام.

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

فلو أراد العالَم أن يمنع من العدوان وأن ينجو بنفسه من مخالب التمييزات المختلفة وأن يعيش في ظل طمأنينة وسلام، فعليه أن يستلهم من تعاليم الإسلام القيّمة وأصوله وأنظمته الاجتماعية والسياسية، إن مختلف الأحلاف في العالَم اليوم بما أنها تدور في دائرة محدودة حول محور القومية أو المنطقة الجغرافية أو العنصر فإنها لا يمكنها أن تحلّ مشاكل العالم اليوم، وأن تربط بين جميع الأمم على الأرض بما لهم من خلافات في ما بينهم، وأن تدعوهم إلى توحيد الأفكار والتعاون من أجل بناء عالم جديد على أساس العدالة والمساواة. بل إنّ الإحساس القوميّ الحديث الذي يُدعم في كثير من الدول هو منشأ كثير من الاختلافات والنزاعات والتفرقات الأكثر بين أمم العالَم[١].

الإسلام والحرب

كتب البروفسور الدكتور محمّد حميد الله المستوفي أستاذ جامعة باريس في كتابه، قال: «كان محمّد يحكم على أكثر من مليون ميل مربع من الأرض، وهذه المساحة تعادل كل أراضي أوربا باستثناء روسيا، ومن المقطوع به أنّ هذه النقطة كانت مساكن ملايين من العرب، وقد قتل منهم ضمن عملية استيلائه عليهم مئة وخمسون رجلاً منهم في ساحات الحروب، أما من جانب المسلمين فقد كانت خسائرهم في أرواحهم في مدة عشر سنين تعادل كل شهر شهيداً ولا نظير لهذه المثابة من تقدير الدم البشريّ وحرمته في تاريخهم الطويل»[٢].

وهنا نأتي بمقاطع بارزة تبيّن هذه الحقيقة كنماذج شاهدة:

روى البرقي في (المحاسن) والكلينيّ في (الكافي) بسندهما عن الإمام الصادق، قال: كان رسول الله إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: «سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، لا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً الاّ أن

(١) الإسلام والحضارة الغربية. (٢) م ن.

نضطرّوا إليها. وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أقصاهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فان تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله».

وروى الكلينيّ في (الكافي) والطوسي في (التهذيب) بسندهما عن الإمام عليّ بن الحسين قال: إن علياً كتب إلى مالك (الأشتر) وهو على مقدمته في يوم البصرة بأن: (لا يطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن).

الإسلام وتحريم الخمر والميسر (القمار)

في المؤتمر العالميّ الرابع والعشرين لمكافحة الكحول المنعقد في فرنسا أعلنت الإحصائيات التالية من دراسات الأطباء في آثار الكحول في العقل والروح، ما يلي:

«عشرون بالمائة من النساء وستون بالمائة من الرجال الذين راجعوا المستشفيات كانوا مدمنين للخمرة معتادين عليها، وأربعون بالمائة من مرضى الأمراض الجنسية وسبعون بالمائة من المجانين كانوا يعانون من نتائج استعمال الكحول وشربها».

أما في بريطانيا فقد ثبت بدراسات العلماء أن خمسة وتسعين بالمائة من المجانين تقريباً كانوا يعانون الجنون من أثر المشروبات الكحولية»[1].

وهنا ننقل مقاطع من اعترافات عدد من العلماء غير المسلمين بشأن قيمة قانون تحريم المسكرات: قال العلاّمة الإنجليزي (بنتام) في كتاب (أصول الشرائع) ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، تحت عنوان (الجرائم الشخصية) ما نصّه:

«النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله، وفي الأقاليم الجنوبية

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

يُصيّره كالمجنون، ففي الأولى يكتفى بمعاقبة الأول على السكر كعمل وحشي، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد. وقد حرّمت ديانة محمّد جميع المشروبات، وهذه من محاسنها»[١].

ويقول فولتير: «إنّ دين محمّد دين معقول وجدّي وطاهر ومحبّ للإنسانية. معقول لأنه لم يتلوث بجنون الشرك والوثنية، ولم يجعل لله شريكاً ولا شبيهاً، ولم يبن أصوله على أسس أسرار متناقضة بعيدة عن العقل، وجدّي لأنه حرّم القمار والخمر وسائر: اللهو واللعب، وأقر بمكانهن خمس صلوات في اليوم والليلة، وطاهر ونزيه لأنّه حدّد عدد النساء اللواتي كنّ يرتمين على فراش شيوخ آسيا في أربع فقط. ومحبّ للإنسانية لأنه جعل الزّكاة ومعونة الآخرين أفضل من الحجّ، وهذا كله من ملامح حقيقة الإسلام».

ويقول المسيو (جول لابوم): «كان العرب يفرطون في شرب الخمر ويتباهون بلعب القمار، وكان الرجل يتزوّج ما شاء من النساء ويطلّق متى ما شاء وكنّ النساء يُحسبن من تركة الرجل وبعد موته يتزوجُهنّ أبناؤه... والإسلام نسخ كل ذلك»[٢].

ويقول البروفيسور (ادوارد مونته): «إن القرآن منع من التقرب بضحية الإنسان، ومن قتل البنات، واستعمال المسكرات، ولعب القمار الذي كان متداولاً بين العرب. والتقدّم الذي حصل للبشرية نتيجة لهذه الإصلاحات كان من الكبر والعظمة بحيث جعل محمّداً ﷺ من أكبر مريدي الخير للبشرية»[٣].

إن الكحول تسبب زيادة عدد الوفيات في البشر، إذ أنّ خمسين بالمائة من موت الرجال وثلاثين بالمائة من موت النساء ناتج من الكحول، وانّ خمسة وتسعين بالمائة من قاتلي الأطفال من الكحوليين، وستين بالمائة من الشباب الفاسد متولّدون من والدين كحوليّين، «دُعي في سنة واحدة إلى المحاكم القانونية في ألمانيا ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً من المجرمين من جرّاء استعمال المسكرات. وصدرت في سنة ١٨٧٨م من محاكم ألمانيا ٥٤٣٤٨ حكماً قطعياً بشأن النساء المجرمات من

(١) الإسلام والحضارة الغربية.
(٢) م ن.
(٣) م ن.

جرّاء استعمال الكحول، وبلغ هذا الرقم الموحش في سنة ١٩١٤م إلى ٦٠٠٣١ حكماً».

وقال أحد وزراء أتادونيه في خطابه: «إن أمريكا صرفت في مدة عشر سنين ثمانية عشر مليوناً على المشروبات الكحولية، ومن نتائج ذلك أن بعثت بمائة ألف شاب إلى دار المساكين وألقت في السجن مئة وخمسين ألف مجرم، وقتلت خمسمائة شخص، وحملت ألفي شخص على الانتحار، وأرملت مئتي ألف امرأة، وتركت مليون طفل يتيما بلا أب».

وأعلن المؤتمر الدولي لمكافحة الكحول: «إن خسائر الكحول الاقتصادية أيضاً ملفتة للنظر والانتباه. إن خسائر الكحول حسب الدراسة الدقيقة تحمّل خزانة الدولة مئة وثمانية وعشرين ملياراً من الفرنكات ما عدا الخسائر الشخصية، هكذا: عشرة مليارات لمصارف المستشفيات. وأربعون ملياراً للمصارف العامة والتعاون والأمور الخيرية. سبعة عشر ملياراً (لمصارف الأمن الاجتماعي، وستون ملياراً مصارف المحاكم والسجون، وعلاوة على ذلك فان ما يقرب من أحد عشر ملياراً أخرى، خسارة تلحق بخزينة الدولة من جرّاء تقليل العنب في أول نضجه. بينما لا ينفع بيع الكحول الدولة الفرنسية سوى ثلاثة وخمسين ملياراً من الفرانكات. وهكذا نلاحظ كم أن شرب الخمور يضرّ النظام الحكومي في فرنسا اقتصادياً!)»[1].

إقرار بفشل النظم (الماركسية والرأسمالية) التي تقود المجتمعات الغربية

الإنسان أعمق من أن يكون كائناً استهلاكياً، والماركسية والرأسمالية لا تتناسب مع طبيعته التكوينية، وانه مسحوق بينهما الآن، هذا ما ستقرؤه في الأسطر التالية كاعتراف من أبرز المفكرين العالميين في هذا العصر.

(١) الإسلام والحضارة الغربية.

يقول العالم الفرنسي الشهير (الدكتور الكسيس كاريل): «نحن بحاجة إلى عالم يقدر كل أحد أن يجد فيه محلاً مناسباً له، ولا ينفصل فيه الماديّ عن المعنويّ، ونعرف فيه كيف نعيش، فقد فهمنا تدريجياً أن السير في طريق الحياة بلا دليل خطر، والعجيب أنّ التفاتنا إلى هذا الخطر لم يدفعنا إلى البحث عن الوسائل المعقولة للحياة، والحقيقة هي أن الذين هم ملتفتون الآن إلى هذا الخطر قليلون جداً.

إنّ القسم الأعظم من الناس اليوم يعملون بأهوائهم، وهم في سكر غرور مما أعدّته لهم التكنولوجيا من التسهيلات المادية، وهم غير مستعدين لأن يغسلوا أيديهم ويصرفوا النظر عن أي شيء مما أحدثته لهم الحضارة من مزايا. إنّ حياتنا تتّبع منحدر تمنّياتنا وتنزلق نحو كل هوان وفساد، كمياه الأنهار التي تغوص في البحيرات أو الأهوار أو الرمال، كذلك تتمايل حياتنا اليوم، نحو النفعية وإشباع التمنّيات الشهوانية والملاهي المغريات.

بدل أن نبني حياتنا على المفاهيم العلمية، أي واقع الحقيقة، بنيناها في قوالب الإيديولوجيات المصوغة، فأصبحت حياة لا تقضي حاجاتنا الحقيقية، فسنبقى نحن فيها دائماً غرباء. إن الإنسان المتحضّر قدّم المادة وضحّى بالمعنويّ أمام الماديّ، وفضّل الراحة على القوة والنشاط.

نحن اليوم نتقدم إلى الإمام في سير الزمن وفقاً لمصادفات التقدم التكنولوجي، من دون أن نولي عناية إلى الحاجات الأصلية لأجسامنا وأرواحنا. مع أننا نغوص في هذا العالم الماديّ، نزعم أننا مستقلون عنه ولا نريد أن نعلم أننا من أجل استمرار حياتنا، علينا أن نسلك وفقاً لمقتضى طبيعتنا وطبيعة الأشياء، لا وفقاً لأهوائنا وشهواتنا، وقد مرّت على البشرية المتحضّرة عدة قرون وهي تنزلق في هذه اللّجة وتغوص.

إنّ الإنسان التكنولوجي اليوم مختلق بيد الماركسية والرأسمالية لا الطبيعة، إنه لم يُخلق من أجل أن يوجد شيئاً فيستهلكه، بل انّه منذ بداية تطوّره وتكامله، قد أقبل على حبّ الجمال والشعور والإحساس الديني، والاستطلاع الفكري، والتصور المبدع، وحياة الأبطال والتضحية والفداء والتفاني، ولو حُصر في نشاطه الاقتصادي فقط، فكأنّما هم يقتطعون شطراً كبيراً منه، وعليه فانّ الرأسمالية والماركسية كليهما

بسحقان ميوله الطبيعية الأصلية فيه»[١].

ولعل هذا ما أشارت إليه الرواية الشريفة الآتية:

«فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنف من الناس إلا وقد ولّوا على الناس حتى لا يقول قائل إنا لو ولينا لعدلنا ثم يقوم القائم بالحق والعدل»[٢].

وبالمقابل نرى أن الكثير من العلماء الذين عايشوا التجربة الغربية وأديانها يرون أن لا ملجأ للإنسانية إلى بالتوجه نحو التعاليم الإسلامية والعمل على وفقها.

كتب (جوب) يقول: «لا يزال للإسلام وحده القدرة على أن يخدم الإنسانية خدمة كبيرة وعُليا، وليس هناك أيّ نظام أو مبدأ أو منظمة أو فرقة سوى الإسلام تستطيع أن تلمع بانتصار كبير، في الجمع بين العناصر البشرية المختلفة في جبهة واحدة على أساس المساواة. إن المجتمع الإسلامي الكبير من أفريقيا والهند واندونيسيا وهذا المجتمع الصغير في الصين وذلك المجتمع الصغير في اليابان كلّ ذلك يدلّ على أنّ للإسلام القدرة على أن ينفذ في كلّ هذه العناصر والطبقات المختلفة والمتنوّعة. وحينما نزن اختلاف الدول الكبرى الشرقية والغربية بميزان التقييم نجد أن لا علاج لاقتلاع جذور الخلافات فيهم سوى الالتجاء إلى الإسلام»[٣].

يتنبؤون بقيام دولة المهدي الإسلامية في مقبل الأيام

يقول (تولستوي) الفيلسوف الروسي الشهير: «يكفي محمّداً فخراً، أنّه خلّص أُمّة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدّم، وإنّ شريعة محمّد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة»[٤].

ويؤكد ذلك الأديب والمفكر الايرلندي (برنارد شو) بقوله: «ما زلت دائماً أكن

(١) الإسلام والحضارة الغربية.
(٢) غيبة النعماني/ ٢٧٤.
(٣) الإسلام والحضارة الغربية.
(٤) الإسلام والحضارة الغربية.

كل الاحترام لدين محمّد لما فيه من خصائص الحيوية. فالإسلام بنظري هو الدين الوحيد الذي بإمكانه أن يفوق مختلف الحالات والصور المتغيّرة للحياة، وأن يواجه القرون المختلفة. أنا أتنبأ بأنّ أوربا ستقبل بدين محمّد وقد بدت آثاره (علائمه) من الآن.

إن رجال المسيحية في القرون الوسطى كانوا قد رسموا صورة قاتمة لدين محمّد نتيجةً لجهلهم أو تعصّبهم، انه كان قد بدا لهم يحمل الحقد والعصبية ضدّ المسيح، وأنا قد قرأت عن هذا الرجل الخارق وتوصلت إلى هذه النتيجة: انه لم يكن ضدّ المسيح، وليس هذا فقط، بل يجب أن نصفه بأنه منقذ البشرية، وأنا أرى أنه لو تكفّل رجل مثله بقيادة العالم اليوم لكان ينتصر في حلّ مشاكله، ولكان يحقق الصلح والسلام والسعادة التي هي حلم البشرية»[1].

لاحظ كيف يتنبأ هذا المفكر بقيام الإمام المهدي بقوله: «يجب أن نصفه بأنه منقذ البشرية، وأنا أرى أنه لو تكفّل رجل مثله بقيادة العالم اليوم لكان ينتصر في حلّ مشاكله، ولكان يحقق الصلح والسلام والسعادة التي هي حلم البشرية»، وكأنه قرأ الرواية التالية التي تقول: «قال رسول الله: المهدي من ولدي اسمه اسمي وكنيته كنيتي أشبه الناس بي خلقا وخلقا تكون به غيبة وحيرة تضل فيها الأمم ثم يقبل كالشهاب الثاقب يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»[2].

صدقت يا رسول الله ﷺ لقد حارت الأمم وتخبطت في الضلالة وهي اليوم بأمس الحاجة إلى من يوصلها إلى شاطئ النجاة وبر الأمان، وتتطلع إلى ذلك المنقذ الإلهي.

(١) م ن.
(٢) كمال الدين ج١/ ٢٨٦.

الفصل الثالث

هل الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف)
أو (القائد المنقذ أو مدير المشروع)
جاهز للقيام بأعباء إقامة دولة العدل المنتظر؟

بعد أن انتهينا في الفصل الثاني من مناقشة الدائرة الثانية أو الركيزة الثانية من ركائز المشروع الإلهي، أي (الفكرة) وقلنا إنها هنا تمثل الإسلام واتضح أنه أي (الإسلام) لا يمثل العقبة التي تعيق تحقق المشروع وتم دحض إدعاءات مخالفيه، بأنه غير قادر على مواكبة الحياة وقيادة الإنسان نحو السعادة والكمال.

أما في هذا الفصل فإننا سنناقش مدى جاهزية الإمام المهدي لقيادة الثورة الإصلاحية الكبرى، وقيادة الناس نحو قيم الكمال المتمثلة بطاعة الله وعبوديته، وبالتالي الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

وقبل أن نشرع بمناقشة من يميلون إلى أن القائد الإلهي لم ينضج بعد، نود أن نسجل اعتذارنا الشديد لسيدنا ومولانا، بقية الله في أرضه وحجته على عباده من مجرد مناقشة هذا الاحتمال، بيد أن الذي ألجأنا إليه لا يخفى عليه (عجل الله فرجه)، وهو جري على سنن القرآن الكريم الذي جعل من حرية الفكر ركنا أساسا في حياة الإنسان، وكذا محاولة لدعوة من يعتقد بعدم جاهزيته، دعوة لينة، وإفهامه على طريقة (وجادلهم بالتي هي أحسن)، ولا شك في أنهم وجدّهم ﷺ أول من أخرجها من حيز التنظير إلى ساحة العمل والمواجهة الفكرية.

الحقيقة أن هناك نظرية طرحت وتم فهمها أو بالأحرى تم تقديمها بشكل خاطئ صرحت بأن المدة التي امتدت من عصر الغيبة القصيرة إلى وقتنا هذا كانت ضرورية لإعداد الإمام الحجة إعداداً يتناسب وحجم الثورة التغييرية الكبرى التي ستعم العالم بل الكون كله.

هذه النظرية طرحها السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) في كتابه أو كتيبه (بحث حول المهدي) الذي ألفه في أيام معدودات كما يقول في نهاية مؤلفه المذكور.

أول المؤاخذات التي نسجلها على السيد رحمه الله هي تصديه لقضية الإمام

بعد أن انتهينا في الفصل الثاني من مناقشة الدائرة الثانية أو الركيزة الثانية من ركائز المشروع الإلهي، أي (الفكرة) وقلنا إنها هنا تمثل الإسلام واتضح أنه أي (الإسلام) لا يمثل العقبة التي تعيق تحقق المشروع وتم دحض إدعاءات مخالفيه، بأنه غير قادر على مواكبة الحياة وقيادة الإنسان نحو السعادة والكمال.

أما في هذا الفصل فإننا سنناقش مدى جاهزية الإمام المهدي لقيادة الثورة الإصلاحية الكبرى، وقيادة الناس نحو قيم الكمال المتمثلة بطاعة الله وعبوديته، وبالتالي الفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

وقبل أن نشرع بمناقشة من يميلون إلى أن القائد الإلهي لم ينضج بعد، نود أن نسجل اعتذارنا الشديد لسيدنا ومولانا، بقية الله في أرضه وحجته على عباده من مجرد مناقشة هذا الاحتمال، بيد أن الذي ألجأنا إليه لا يخفى عليه (عجل الله فرجه)، وهو جري على سنن القرآن الكريم الذي جعل من حرية الفكر ركنا أساسا في حياة الإنسان، وكذا محاولة لدعوة من يعتقد بعدم جاهزيته، دعوة لينة، وإفهامه على طريقة (وجادلهم بالتي هي أحسن)، ولا شك في أنهم وجدّهم ﷺ أول من أخرجها من حيز التنظير إلى ساحة العمل والمواجهة الفكرية.

الحقيقة أن هناك نظرية طرحت وتم فهمها أو بالأحرى تم تقديمها بشكل خاطئ صرحت بأن المدة التي امتدت من عصر الغيبة القصيرة إلى وقتنا هذا كانت ضرورية لإعداد الإمام الحجة إعداداً يتناسب وحجم الثورة التغييرية الكبرى التي ستعم العالم بل الكون كله.

هذه النظرية طرحها السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) في كتابه أو كتيبه (بحث حول المهدي) الذي ألفه في أيام معدودات كما يقول في نهاية مؤلفه المذكور.

أول المؤاخذات التي نسجلها على السيد رحمه الله هي تصديه لقضية الإمام

المهدي على طريقة أهل علم الاجتماع ومحاولة إسقاط نظرياته على شخصية الإمام المقدسة!!، اذ قال السيد في مقدمة المبحث الثالث ما نصه: «ونتناول الآن السؤال الثاني، وهو يقول:

لماذا كلّ هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطّل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل، وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المنتظر.

وبكلمة أخرى: ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرّر لها؟.

وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً، فنحن نؤمن بأنّ الأئمّة الاثني عشر مجموعة فريدة لا يمكن التعويض عن أي واحد منهم، غير أنّ هؤلاء المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلّبات المفهومة لليوم الموعود.

وعلى هذا الأساس نقطع النظر مؤقّتاً عن الخصائص التي نؤمن بتوفرها في هؤلاء الأئمّة المعصومين».

المشكلة أن السيد نسي أو تناسى أصلاً مهماً تعتقد به مدرسة أهل البيت، هو عبثية مقارنتهم مع أي أحد من الخلق، للبون الشاسع بين أطوارهم التكاملية وما وصل إليه من دونهم من الأنبياء والأولياء، مع جلالة أقدارهم طبعا ومكانتهم واحترامهم المحفوظ من قبلنا، بل أن من الواجب علينا كمسلمين، الإيمان بهم (الأنبياء) وبما قدموه من تضحيات في سبيل الله وأنهم من أفضل خلق الله أجمعين. بيد أنهم مع ذلك لا يقارنون بمحمد وآله فكيف بمن هو دونهم؟ ونجد هذا الأصل في الكثير من أحاديث أهل البيت كما في هذه الرواية: عن الإمام الباقر في رواية طويلة... إلى أن قال: «عَنْ مَرْوَانَ بْنِ صَبَّاحٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا فَأَحْسَنَ خَلْقَنَا وَصَوَّرَنَا فَأَحْسَنَ صُوَرَنَا وَجَعَلَنَا عَيْنَهُ فِي عِبَادِهِ وَلِسَانَهُ النَّاطِقَ فِي خَلْقِهِ وَيَدَهُ الْمَبْسُوطَةَ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَوَجْهَهُ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ وَبَابَهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ وَخُزَّانَهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ بِنَا أَثْمَرَتِ الْأَشْجَارُ وَأَيْنَعَتِ الثِّمَارُ وَجَرَتِ الْأَنْهَارُ وَبِنَا

يُنْزِلُ غَيْثُ السَّماءِ وَيَنْبُتُ عُشْبُ الْأَرْضِ وَبِعِبادَتِنا عُبِدَ اللّهُ وَلَولا نَحْنُ ما عُبِدَ اللّهُ»[1].

كما روى مسندا إلى رسول الله ﷺ قال: نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد من عباد الله، ومن والانا والتم بنا، وقبل منا ما أوحي إلينا، وعلمناه إياه، وأطاع الله فينا، فقد والى الله، ونحن خير البرية، وولدنا منا، ومن أنفسنا وشيعتنا منا من آذاهم آذانا ومن أكرمهم أكرمنا، ومن أكرمنا كان من أهل الجنة[2].

الروايتان واضحتان في دلالتهما على أفضلية الرسول الأكرم وأهل بيته عليهم السلام على جميع خلق الله ولا يجوز مقايستهم أو مقارنتهم مع أي أحد.

والغريب أن مقدم بحث السيد الصدر الدكتور عبد الجبار شرارة مع شدة دفاعه عن متبنيات السيد في بحثه هذا، إلاّ أنه يثير موضوعا مهما يطالب فيه المشككين بقضية الإمام المهدي بالالتزام به والالتفات إليه في تناولهم ملابسات القضية، ألا وهي مسألة الإيمان بالغيب.

وهو الذي لم يتطرق له السيد الصدر في بحثه للموضوع لما له من مدخلية أساسية في الدخول لفهم شخصية الإمام (أرواحنا فداه)، فبدلاً من أن يرفع الناس إلى مقام الإمام السامي وهو المراد من كل بعثات الأنبياء في رفع مستوى الناس لمقامات الأولياء، قام السيد الصدر رحمه الله بإنزال الإمام لهم، وبهذا لا هو حفظ للإمام مقامه العالي الذي اختصه الله به، ولم يقم كذلك برفع الناس إليه.

---

(١) الكافي ج١/ ١٤٤. المضمون نفسه في الرواية الآتية، قال رسول الله: ما خلق الله خلقا أفضل مني ولا أكرم عليه مني، قال علي عليه السلام فقلت يا رسول الله فأنت أفضل أم جبرئيل فقال يا علي إن الله تبارك و تعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللائمة من بعدك وإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا، يا علي الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا، يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض. علل الشرائع ج١/ ٥ وكمال الدين ج١/ ٢٥٤ ومنتخب الأنوار المضيئة لعلي بن عبد الكريم النيلي/ ١٢.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٥/ ٤٥.

يقول الدكتور شرارة في مقدمة الكتاب مناقشاً المشككين: «ينطلق المنكرون للإمام المهدي المنتظر عليه السلام من دوافع ومنطلقات لا تنسجم مع منهج الإسلام العام في طرح العقائد والدعوة إلى الإيمان بها، فمنهج الإسلام الذي يعتمد المنطق والفطرة، يقوم في جانب مهم منه على ضرورة الإيمان بالغيب، وتتكرر الدعوة في القرآن الكريم إلى ذلك، إذ هناك عشرات الآيات التي تتحدث عن الغيب والدعوة إلى الإيمان به، والمدحة عليه كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ۝٣﴾[1]، وفي الحديث النبوي الشريف كذلك، إذ هناك مئات الروايات وبصورٍ متنوعة وعديدة، وكلها تؤكد الإيمان بالغيب وعلى أنه جزء لا يتجزأ من العقيدة، وأنّ هذا الغيب سواء تعقّله الإنسان وأدرك جوانبه أو لم يستطع إدراك شيء منه وخفيت عليه أسراره، فإنه مأمور بالإيمان، غير معذورٍ بالإنكار، بلحاظ أنّ مثل هذا الإيمان هو من لوازم الاعتقاد بالله تعالى، وبصدق سفرائه وأنبيائه الذين يُنبئون ويُخبرون بما يُوحى إليهم، كما هو الأمر في الإيمان بالملائكة وبالجن وبعذاب القبر وبسؤال الملكين (منكر ونكير) وبالبرزخ وبغير ذلك من المغيّبات التي جاء بها القرآن الكريم أو نطق بها الرسول الأمين ونقلها إلينا الثقات المؤتمنون، وإذن فكلّ تشكيك بشأنها أي قضية المهدي عليه السلام إنما يتعلق بأصل التصديق بالغيب والكلام فيه يرجع إلى هذا الأصل»[2].

سبحان الله أن الآية التي استشهد بها المحقق هي بعينها التي يؤولها أرباب التفاسير بحسب روايات أهل البيت على قضية الإمام المهدي، وهي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ۝٣﴾، كما في تفسير كنز الدقائق: «عن يحيى بن أبي القاسم قال: سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عزوجل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ۝٣﴾، فقال: المتقون شيعة علي والغيب هو الحجة الغائب[3].

---

(١) سورة البقرة، الآيتن: ١ - ٣.

(٢) بحث حول المهدي/ مقدمة المحقق.

(٣) كنز الدقائق/ ج١، تفسير الصافي للفيض الكاشاني ج١/ ١٢ وتفسير الأمثل لمكارم الشيرازي ج١/ ٧٨.

وكذا في الميزان عن الصادق: في قوله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب، قال: من آمن بقيام القائم أنه حق[١].

فلا أدري لماذا لَم يتناول السيد الصدر المسألة بهذا البعد؟ مع أنه البعد المنطقي لهذه القضية، فكيف أستطيع التعامل مع شخص خُلق من نور الله؟ ومن يعرف كنه نور الله؟ وكيف أتعامل مع هيكل قدسي ونور الهي، بنظريات علم الاجتماع الدليئة بالنواقص والآراء المختلفة؟؟!!.

تناقض واضح

يقول السيد في منطوق السؤال الافتراضي الذي طرحه على لسان الذين يطالبون بتفسير اجتماعي للمسألة، كما أوضح في تبيين إجابته عن هذا السؤال: «لماذا كلّ هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطّل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخّض عنه المستقبل، وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المنتظر»؟

التناقض يكمن في نفس منطوق السؤال، فحينما يقر السائل بأن الله تبارك وتعالى قد عطل من أجل هذا الإنسان القوانين الطبيعية وهو أمر غير عادي بالمرة، بل هو نحو من التعامل مع هذا الإنسان بشكل يتعلق بقوانين تعدّ وراء قوانين هذا العالم المادي الظاهري، أي بعبارة أخرى التعامل مع هذا الإنسان بشكل غيبي.

فنقول: إذا أُقر بهذا فما معنى أن الله تبارك وتعالى يعطل له القوانين الطبيعية من أجل التزود بالخبرات التي ستأتيه عن طريق نفس هذه القوانين الطبيعية؟!، أوليس الاستفادة من خبرات هذا العالم الطبيعي بمختلف إرهاصاته العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الأمور، تنم عن أنه محتاج لهذا

(١) الميزان ج١.

العالم حاجة ماسة؟. فلا أعلم كيف يتم تعطيل القوانين الطبيعية لشخص ما، من أجل الاستفادة من نفس هذا العالم الذي تم تعطيل بعض من قوانينه؟!!. ولماذا لا يتم على ضوء منطوق السؤال نفسه أن يتزود هذا الإنسان بالخبرات اللازمة لمشروعه من نفس العالم الذي يكمن وراء العالم الذي تم تعطيله وهو الأنسب للمقام والمنطق السليم.

ملاحظة مهمة

نحن حينما سنتناول آراء السيد الصدر (رض) في بحثه المذكور، سنحفظ له كل احترام وإجلال، ونؤمن أن الذي قاله في متون بحثه لا يتعلق باعتقاده الشخصي، وإنما كانت محاولة لتبسيط غيبة الإمام لمن يؤمن بنظريات علم الاجتماع، وكان يحاول إفهامهم الفكرة بالطريقة التي يميل إليها فكرهم ومنطقهم، بيد أني لا أعلم لماذا كل هذا الاهتمام من السيد رَحِمَهُ اللَّهُ بحيث وضع نفسه بموضع المتهم من أجلهم وكبا هذه الكبوة!!، نعم نحن نحترم حرصه على هداية الناس ومثابرته على توضيح فكرة الإمام المهدي (روحي فداه)، بيد أننا نعترض على طريقته هذه لأنها لا ولن تؤدي إلى المطلوب. ويبين (رض) طريقته في تقديم الفكرة في أول المبحث الثالث بقوله: «ونتناول الآن السؤال الثاني، وهو يقول:

لماذا كلّ هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات، فتعطل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخّض عنه المستقبل، وتنضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على الساحة ويمارس دوره المنتظر.

وبكلمة أخرى: ما هي فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرّر لها؟ وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً، فنحن نؤمن بأنّ الأئمّة الاثني عشر مجموعة فريدة لا يمكن التعويض عن أي واحد منهم، غير أنّ هؤلاء المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعي للموقف، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلّبات المفهومة لليوم الموعود.

وعلى هذا الأساس نقطع النظر مؤقّتاً عن الخصائص التي نؤمن بتوفرها في هؤلاء الأئمة المعصومين»[١].

وعلى ضوء اعتقادنا هذا سنتصدى لبحث الآراء التي طرحها السيد الصدر، لا على أساس أنها من صميم أفكاره أو معتقداته، وإنما لقطع هذه الشبهات التي قد تعلق بفكر جمهور شيعة أهل البيت، أو حتى أولئك الذين كتب لهم السيد مبحثه حول المهدي، وسنعرض لهم وجها آخر، هو من صميم علم الاجتماع الإمامي الذي لا يتناسب إلا مع تلك الشخوص النورانية والهياكل القدسية لأهل بيت العصمة والطهارة (عليهم وعلى جدهم آلاف التحية والسلام).

تنويه

في البدء يجب أن نقدم اعتذارنا الشديد لبقية الله في الأرض (صلوات الله عليه وعلى آبائه البررة) خجلا من فتح النقاش في هذا الموضوع، بيد أننا اضطررنا اليه اضطراراً وسُحبنا إليه سحباً، حرصاً على تبيان الحق وتنزيها لنور الله في أرضه وحجته على عباده.

وعذراً أخي القارئ الكريم لأنني أدخلتك في لجة النقاش من دون مقدمات، بيد أني كنت قاصداً ذلك، لأصدمك كما صُدمت وتقف ملياً عند هذا الموضوع الخطير وتتدبر فيه.

إن مكمن الخطورة فيه يقع من وجهين، **الأول**: أن أصحاب هذا الرأي يدّعون ولو بشكل غير مباشر أن مسؤولية تأخير الظهور المبارك تقع على عاتق الإمام نفسه حاشاه!!!.

والثاني: أنه لم يصدر عن شخص عادي، بل صدر عن أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث.

---

(١) بحث حول المهدي/ المبحث الثالث.

ولأجل الوقوف على حقيقة الأمر ولإثبات أن هذا الرأي هو الكبوة التي كباها قلم وفكر السيد الصدر، والهفوة التي لم يكن يقصد فيها أية إساءة لمقام الإمام، جريا مع المثل القائل: «لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة»، سنقسم البحث في هذا الموضوع إلى قسمين، **الأول** منهما: يناقش الأدلة العقلية التي توجب كمال الإمام في كل عصر وآن، بمختلف دوائره العقلية والروحية والنفسية وحتى البدنية.

والثاني: المجيء بأدلة القرآن والسنة التي تثبت ذلك.

الدليل العقلي

إن من أولى بديهيات العقل القول بكمال الإمام المنصب من قبل الله تعالى، لسبب بسيط جداً، هو أن الله عزوجل ليس بعابث، وحكمته اقتضت أن يجعل للناس دليلا وهاديا للصراط المستقيم. فكيف يحتاج من جُعل دليلا للناس إلى من يدله منهم على الطريق الصحيح والرأي الصائب في المشاكل والمعضلات التي تواجه العالم؟!!، أو يحتاج أن يرى أخطاء القوم ليتعلم منها!! والغريب أنه والحال هذه، هو لا غيره المرجو والمعول منه حلحلتها والخروج بالناس إلى باب الفرج وشاطئ السعادة.!!

لذا لابد من وجود دليل لا يخطئ هدفه، معصوم من الذنب والخطأ والاشتباه، حتى لا يرمي الناس في الضلالة والالتباس.

والإمامة في معناها اللغوي: إمام كل شيء: قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، ويكون الإمام الطريق الواضح.

قوله: إني جاعلك للناس إماماً، أي يأتم بك الناس فيتبعونك ويأخذون عنك، لأن الناس يؤمون أفعاله أي يقصدونها فيتبعونها ويقال للطريق إمام، لأنه يُأم أي يقصد ويتبع. انتهى.

إذن الإمام هو القيّم على الناس والمصلح لهم ولأفعالهم، فكيف يكون من نصبه الله مُصلحاً وقيّماً على الناس وحجة عليهم، محجوجاً بهم، فإن كان هذا

فسيصبحون هم القيّمون عليه (حسب الفرض) إن احتاج أن يتعلم من أخطائهم!!

والإمام هو الذي يُقلد (بضم الياء وفتح اللام) بكل أفعاله، ويتبعه الكل ولا يتبع أحداً، ويُعلّم الكل ولا يتعلم من أحد.

ولعل المثير في ذلك، إمكانية عدم شجب الأخطاء التي وقع فيها القوم لأنها السبب وراء هداية العالم، فيكون الناس مدينين لأهل التجارب الأولى على محاولاتهم إصلاح العالم بأكثر من طريقة، وهذا في تصوري أحد الإشكالات التي ستطرح لو تبنينا رأي السيد الصدر، لأن من المتوقع مع كثرة المتربصين بالإسلام وكذا مذهب أهل البيت عليهم السلام أن يخرج علينا بعض منهم متبجحاً ليقول: إن إمامكم رجل قليل العلم عديم خبرة في الحياة والسياسة، لذا احتاج أن يراقب أصحاب التجارب أفرادا وأمما بغية الاستفادة من تجاربهم الناجحة والإعراض عن الفاشلة منها، وبالتالي فإن المنطق يقول: إنه غير جدير بقيادة ثورة الإصلاح العالمية الكبرى!!. لأنه احتاج إلى مئات السنين حتى يتخرج من مدرسة الحياة ولكي يفرغ من دراسة تجارب الأمم السابقة، ولا نعلم متى سيصبح جاهزاً للقيادة.

إضافة إلى أنه أصبح متعلماً وتلميذاً بدلاً من أن يكون معلماً ومرشداً كما تدّعون، كما أنه لن يأتي بشيء جديد كما تزعمون أيضاً، وإنما سيحاول توليف كل التجارب الناجحة للذين سبقوه ويحاول أن يجعل منها خليطا متجانساً من الأحكام والقوانين، فليس له فضل سوى في جمعها وطرحها للناس لا غير.

ولعمري هذا خلاف الحكمة الإلهية التي ولدت العالم وما فارقته قط، نعم فأي عقل سليم يرضى بهذا القول الذي مفاده: أن الخالق الحكيم جعل إماما للناس بغية قيادتهم نحو السعادة والكمال وتخليصهم من أذى وتعذيب الطواغيت من أتباع إبليس الملعون، وهم في وسط هذا الآتون المؤلم من الانتظار والترقب مع تكبد ما لا يطاق من الذل والهوان، ومواظبتهم على الدعاء والتوسل بتعجيل الفرج، إلا أنهم مضطرون ربما إلى آلاف السنين بحجة أن إمامهم الموعود لم يجهز بعد، لذا عليهم التحمل والصبر أكثر وأكثر وأكثر إلى أن يتحلى الإمام بالخبرة والكفاءة المطلوبة!!!.

أنا شخصياً لا أرضى بهذا القول وأحسب أن كل عاقل لا يرضى به، لأنه

خلاف الحكمة والعدل الإلهي، كما أنه يشير للذات الإلهية (تنزهت عن ذلك) بالظلم والعبث من جهة أخرى.

إضافة إلى أنه يعارض العقل الذي أمرنا الله تبارك وتعالى بإعماله، كما انه يخالف صريح القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين صرحا مرارا بكمال أولي الأمر المنصبين من قبل الله لهداية الخلق، وهذا يعني أيضاً (أي القول برأي السيد الصدر) عبثية المدة التي قضاها المؤمنون بالدعاء والتوسل في السنوات التي مضت، والتي سيقضونها في المستقبل، (إذا قدر للإمام ألاّ يظهر في هذا الزمان لا سمح الله) إذ لا أثر لدعائهم بشحن (الإمام) بالخبرة المطلوبة، فلا بد له من أن يرى ويسمع ويطّلع على التجارب الفاشلة منها والناجحة لاستثمارها في دولته!!!.

حاشاك يا سيدي ومولاي وعذرا مرة أخرى للخوض في هذا الحديث المؤلم، وكيف لا والحال أن شيعتك لا تزال تتناقش في هذا!!، فمتى يعرفون أنك نور الله في أرضه وأن قلبك محل مشيئة الله تبارك وتعالى، وأنك محيط بكل علم في عالم الإمكان، وأن الله لم يخف عنك خافية في الأرض أو في السماء إلا ما شاء، وأنك سره وكلمته التامة ووجهه الباقي ولسانه الناطق في الخلق وعينه الناظرة فيهم، وأنك القرآن الذي فيه تبيان كل شيء وأنك.. وأنك.. وأنك.. حتى تقف مدارك العقل ويضمحل المنطق.

مناقشة السيد الصدر (رض)

رد دعوى أن الإمام غير جاهز نفسياً

قال السيد الصدر في معرض بيانه لعلة العمر الطويل للإمام المهدي:

إنّ عملية التغيير الكبرى تتطلّب وضعاً نفسياً فريداً في القائد الممارس لها، مشحوناً بالشعور... بالتفوّق والإحساس بضآلة الكيانات الشامخة التي أعدّ للقضاء عليها، وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد.

فبقدر ما يعمر قلب القائد المغيّر من شعور بتفاهة الحضارة التي يصارعها،

وإحساس واضح بأنها مجرّد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان، يصبح أكثر قدرة من الناحية النفسية على مواجهتها والصمود في وجهها ومواصلة العمل ضدّها حتى النصر. ومن الواضح أنّ الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسي يتناسب مع حجم التغيير نفسه، وما يراد القضاء عليه من حضارة وكيان، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشمخ، تطلّب زخما أكبر من هذا الشعور النفسي المفعم[1].

لا أعلم لماذا يصر السيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الإمام ليس مؤهلا نفسيا لقيادة العالم والوقوف بوجه الحضارات الأرضية الزائفة؟.

إن الإمام الذي يتكلم عنه السيد الصدر ليس هو الإمام الذي عرّفه لنا الأئمة المعصومون عن جدهم الأكبر ﷺ عن الله تبارك وتعالى.

فالإمام الذي نعرفه هو العالم بما كان وما سيكون إلى يوم القيامة حسب ما جاء في النصوص التي سنوردها، بينما الإمام المتحدث عنه في نصوص السيد يحتاج إلى سنوات طويلة لكي يميز ويكتشف زيف هذه الحضارات المادية، إضافة إلى أنه غير مستقر نفسياً وعديم الثقة بقدرته على النجاح بقيادة ثورة الإصلاح الكبرى، ولعمري هذا غاية عدم المعرفة بمقام الإمامة العظيم.

فأي إمام هذا المهزوز نفسيا وغير القادر على المواجهة وكيف أجمع هذا الفهم مع النص التالي؟!. «عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين أنه قال: يا طارق: الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله وآية الله يختاره الله ويجعل فيه ما يشاء ويوجب له بذلك الطاعة والولاية على جميع خلقه فهو وليه في سماواته وأرضه أخذ له بذلك العهد على جميع عباده فمن تقدم عليه كفر بالله من فوق عرشه فهو يفعل ما يشاء وإذا شاء الله شاء ويكتب على عضده وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا فهو الصدق والعدل وينصب له عمود من نور من الأرض إلى السماء يرى فيه أعمال العباد ويلبس الهيبة وعلم الضمير ويطلع على الغيب ويرى ما بين المشرق والمغرب فلا يخفى عليه شيء من عالم الملك والملكوت ويعطى منطق

(١) بحث حول المهدي/المبحث الثالث.

الطير عند ولايته فهذا الذي يختاره الله لوحيه ويرتضيه لغيبه ويؤيده بكلمته ويلقنه حكمته ويجعل قلبه مكان مشيته وينادي له بالسلطنة ويذعن له بالإمرة ويحكم له بالطاعة وذلك لأن الإمامة ميراث الأنبياء ومنزلة الأصفياء وخلافة الله وخلافة رسل الله فهي عصمة وولاية وسلطنة وهداية وإنه تمام الدين ورجح الموازين الإمام دليل للقاصدين ومنار للمهتدين وسبيل السالكين وشمس مشرقة في قلوب العارفين ولايته سبب للنجاة وطاعته مفترضة في الحياة وعدة بعد الممات وعز المؤمنين وشفاعة المذنبين ونجاة المحبين وفوز التابعين لأنها رأس الإسلام وكمال الإيمان ومعرفة الحدود والأحكام وتبيين الحلال من الحرام فهي مرتبة لا ينالها إلا من اختاره الله وقدمه وولاه وحكمه فالولاية هي حفظ الثغور وتدبير الأمور وتعديد الأيام والشهور الإمام الماء العذب على الظمأ والدال على الهدى الإمام المطهر من الذنوب المطلع على الغيوب الإمام هو الشمس الطالعة على العباد بالأنوار فلا تناله الأيدي والأبصار وإليه الإشارة بقوله تعالى. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] والمؤمنون علي وعترته فالعزة للنبي وللعترة، والنبي والعترة لا يفترقان في العزة إلى آخر الدهر فهم رأس دائرة الإيمان وقطب الوجود وسماء الجود وشرف الموجود وضوء شمس الشرف ونور قمره وأصل العز والمجد ومبدؤه ومعناه ومبناه فالإمام هو السراج الوهاج والسبيل والمنهاج والماء الثجاج والبحر العجاج والبدر المشرق والغدير المغدق والمنهج الواضح المسالك والدليل إذا عمت المهالك والسحاب الهاطل والغيث الهامل والبدر الكامل والدليل الفاضل والسماء الظليلة والنعمة الجليلة والبحر الذي لا ينزف والشرف الذي لا يوصف والعين الغزيرة والروضة المطيرة والزهر الأريج والبدر البهيج والنير اللائح والطيب الفائح والعمل الصالح والمتجر الرابح والمنهج الواضح والطيب الرفيق والأب الشفيق مفزع العباد في الدواهي والحاكم والآمر والناهي مهيمن الله على الخلائق وأمينه على الحقائق حجة الله على عباده ومحجته في أرضه وبلاده مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب مطلع على الغيوب ظاهره أمر لا يملك وباطنه غيب لا يدرك واحد دهره وخليفة الله في نهيه وأمره لا يوجد له مثيل ولا يقوم له بديل فمن ذا ينال معرفتنا أو يعرف درجتنا أو

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

يشهد كرامتنا أو يدرك منزلتنا حارت الألباب والعقول وتاهت الافهام في ما أقول تصاغرت العظماء وتقاصرت العلماء وكلت الشعراء وخرست البلغاء ولكنت الخطباء وعجزت الفصحاء وتواضعت الأرض والسماء عن وصف شأن الأولياء وهل يعرف أو يوصف أو يعلم أو يفهم أو يدرك أو يملك من هو شعاع جلال الكبرياء وشرف الأرض والسماء جل مقام آل محمد عن وصف الواصفين ونعت الناعتين وأن يقاس بهم أحد من العالمين»[1].

من أين أبدأ وبأي مقطع من مقاطع هذه الرواية العظيمة أستشهد لمناقشة السيد الصدر؟ ولكن لأنه ركز على مسألة الاستعداد النفسي، فسأبدأ بهذا المقطع وأضعه بين يديك عزيزي القارئ الكريم.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وينصب له عمود من نور من الأرض إلى السماء يرى فيه أعمال العباد ويلبس الهيبة وعلم الضمير ويطلع على الغيب ويرى ما بين المشرق والمغرب فلا يخفى عليه شيء من عالم الملك والملكوت ويعطى منطق الطير عند ولايته فهذا الذي يختاره الله لوحيه ويرتضيه لغيبه ويؤيده بكلمته ويلقنه حكمته ويجعل قلبه مكان مشيته وينادي له بالسلطنة ويذعن له بالإمرة ويحكم له بالطاعة وذلك لأن الإمامة ميراث الأنبياء ومنزلة الأصفياء وخلافة الله وخلافة رسل الله فهي عصمة وولاية وسلطنة وهداية وإنه تمام الدين ورجح الموازين الإمام دليل للقاصدين ومنار للمهتدين وسبيل السالكين وشمس مشرقة في قلوب العارفين».

أنا أتساءل كيف لمن أعطاه الله عز وجل القدرة على الإطلاع على الغيب وعالمي الملك والملكوت ووراثة الأنبياء وخلافة الله أن يكون في أي لحظة من لحظاته غير مهيأ نفسياً للقيام بدوره الرسالي؟! أليس هذا من العجب العجاب!!؟.

وكيف لمن جعله الله سبحانه «دليلاً للقاصدين ومنارا للمهتدين وسبيلاً للسالكين وشمساً مشرقة في قلوب العارفين» أن يحتاج إلى مدة من الزمن لتحصيل الزخم النفسي للمواجهة؟.

---

(١) بحار الأنوار ج٢٥/ ١٧٠ - ١٧٢، مثله في المضمون نفسه عن الإمام الرضا عليه السلام الكافي ج١/ ١٩٩ والاحتجاج ج٢/ ٤٣٣ والأمالي للصدوق/ ٦٧٤ وتحف العقول/ ٤٣٦ والغيبة للنعماني/ ٢١٧.

كما وصفه عليه السلام بأن الله عز وجل «جعل قلبه مكانا لمشيته» وهذا من أعجب الأمور، القلب الذي جُعل متنزلا لمشيئة الله بحيث أصبح معبّراً وترجماناً لهذه المشيئة بكل ما تحمل من أبعاد خفية وأسرار عصية على أن يحملها قلب بشر عادي، فهل يمكن أن يقال عن هذا القلب إنه يحتاج إلى زخم نفسي ومدة طويلة من الاستعداد تتناسب وحجم الحضارة التي سيواجهها؟.

نحن الآن من له الحق في طرح هذا السؤال، ما معنى أن يكون قلب الإمام مكاناً لمشيئة الله؟ ونجيب أن هذا يعني أنه ما من أمر يرد إلى الأرض إلاّ والإمام أول المعنيين به، لأنه ببساطة المشرف على تنفيذ هذه المشيئة فإذا شاء البارئ أمراً قذف في قلبه هذا الأمر.

فهل يعقل بعد هذا أن نقول لهذا القلب الإلهي أنه غير مؤهل نفسياً في أي آن من آنائه ولحظة من لحظاته؟!.

وتأمل عزيزي القارئ بقول أمير المؤمنين عليه السلام «وذلك لأن الإمامة ميراث الأنبياء ومنزلة الأصفياء وخلافة الله وخلافة رسل الله» بهذه الكلمات فقط نستطيع أن ندحض كل ما جاء في نصوص السيد الصدر رحمه الله، الإمامة ميراث الأنبياء عليهم السلام هل سمعتم يوماً أن نبياً بعثه الله إلى قوم من الأقوام ثم غيبه لأنه اكتشف (سبحانه) أن النبي الذي اختاره لكي ينذر قومه غير قادر بعد على مواجهة قومه لعدم استعداده النفسي؟!.

وهل سمعتم أن خليفة الله في أرضه لا يستطيع تحمل أعباء خلافته في فترة معينة من الفترات لأنه يمر بطور الاستعداد النفسي للقيام بهذه الخلافة؟!.

والقولان باطلان عقلاً ونقلاً، **الأول**: أن النبي لا يصبح نبياً ما لم يكن يملك من صفات الكمال ما يؤهله للارتقاء لهذه المنزلة السامية، وأحدى هذه الصفات أن يكون على أشد درجات الاستعداد النفسي للقيام بوظيفة الإنذار رغم كل ما تؤدي إليه هذه الوظيفة من عواقب، قد تصل إلى حد قتله كما حدث للكثير من الأنبياء.

والثاني: على هذا الفرض سيبقى منصب خلافة الله شاغرا وسيختل النظام بأكمله، لأن الأرض لا تبقى من دون خليفة لله، يكون بمثابة السبب المتصل ما بين الأرض والسماء.

والإمام عليه السلام قد ورث هذا كله، فكيف يحتاج إلى ما يقوله السيد الصدر؟. وإليك عزيزي القارئ مقطعاً آخر يبين فيه أمير المؤمنين علي صفات تلك النفس الكاملة العظيمة، فيقول:

«فالإمام هو السراج الوهاج والسبيل والمنهاج والماء الثجاج والبحر العجاج والبدر المشرق والغدير المغدق والمنهج الواضح المسالك والدليل إذا عمت المهالك والسحاب الهاطل والغيث الهامل والبدر الكامل والدليل الفاضل والسماء الظليلة والنعمة الجليلة والبحر الذي لا ينزف والشرف الذي لا يوصف والعين الغزيرة والروضة المطيرة والزهر الأريج والبدر البهيج والنير اللائح والطيب الفائح والعمل الصالح والمتجر الرابح والمنهج الواضح والطيب الرفيق والأب الشفيق مفزع العباد في الدواهي» ولعمري إن هذا البيان يغني عن كل بيان. فيكفي أنه عليه السلام وصف بأنه الماء الثجاج، ونعلم أن الماء هو سر الحياة، وعليه يكون الإمام هو الروح التي تسري في العالم، وكل حياة قائمة به (أرواحنا فداه) فأين هذا من القول باحتياجه إلى زخم نفسي؟.

رد دعوى أن الإمام غير جاهز فكرياً

يقول السيد الصدر رحمه الله: «أضف إلى ذلك، أن التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوّراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود: لأنها تضع الشخص المدّخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكلّ ما فيها من نقاط الضعف والقوة، ومن ألوان الخطأ والصواب، وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقويم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها، وكلّ ملابساتها التاريخية.

وكلّ ذلك له مدخليّة في تربيته وإعداده الإعداد الخاص، بما في ذلك امتلاكه النظرة الشمولية العميقة، فضلاً عن شهوده بنفسه ضآلة أولئك المتعملقين الذين يملؤون الدنيا ضجيجاً وصخباً، ويسترهبون الناس، وهذا الشهود يؤهّله أكثر فأكثر

لأداء مهمته الكونية في التغيير، أي، ملؤه للأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً، هذا بغمض النظر عن مؤهّلاته الذاتية، والعناية الربّانيّة الخاصة[١].

وكأنما يتحدث السيد الصدر عن شخص من عوام الناس يراد إعداده للقيام بحركة ما، لا عن إمام بلغ من العلم والقرب الإلهي بأن جعله الله مفتاحاً لرحمته ونقطةً لإفاضة نعمه على خلقه وقيما وشاهداً على بريته!!.

اقرأ كيف يصف الإمام الصادق هذا الإمام العظيم وقارن بينه وبين الفهم المطروح لشخص الإمام في نصوص السيد الصدر، يقول الصادق عليه السلام:

«... لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَصَبَ الْإِمَامَ عَلَماً لِخَلْقِهِ وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ مَوَادِّهِ وَعَالَمِهِ وَأَلْبَسَهُ اللَّهُ تَاجَ الْوَقَارِ وَغَشَّاهُ مِنْ نُورِ الْجَبَّارِ يَمُدُّ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ مَوَادُّهُ وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِجِهَةِ أَسْبَابِهِ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ فَهُوَ عَالِمٌ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ مُلْتَبِسَاتِ الدُّجَى وَمُعَمِّيَاتِ السُّنَنِ وَمُشَبِّهَاتِ الْفِتَنِ»[٢].

الشيء الملتبس هو غير الواضح، والدجى هو الليل، والمعنى أنه لا يلتبس عليه شيء من الأمور حتى أشدها غموضاً، لأنه عين الله الناظرة في خلقه كما ورد في رواياتهم الشريفة، فكيف يلتبس أمر ما على عين الله؟.

وَمُعَمِّيَاتِ السُّنَنِ: هي الأمور التي تقف حائلاً بين الفهم الصحيح للسنن الإلهية أو النبوية، والإمام هو العالم بها والكاشف لها ومزيح غشاوتها من أمام بصائر الناس ليروا الحق حقاً، والسنن: هي الشرائع (القوانين) والآداب الإسلامية.

فأي فكر دنيوي يحتاجه الإمام (روحي فداه)، وهذا الرضا من آل محمد عليهم السلام يصفه كما يلي:

«الْإِمَامُ وَاحِدُ دَهْرِهِ لَا يُدَانِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ وَلَا يُوجَدُ مِنْهُ بَدَلٌ وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ مَخْصُوصٌ بِالْفَضْلِ»[٣].

---

(١) بحث حول الإمام المهدي/ المبحث الثالث. السيد الشهيد الصدر.

(٢) الكافي ج١/ ٢٠٤.

(٣) الكافي ج١/ ٢٠١، الاحتجاج ج٢/ ٤٣٣ والأمالي للصدوق/ ٦٧٤ وتحف العقول/ ٤٣٦ والغيبة للنعماني/ ٢١٧.

وأيضاً: «وَالْإِمَامُ عَالِمٌ لَا يَجْهَلُ وَرَاعٍ لَا يَنْكُلُ مَعْدِنُ الْقُدْسِ وَالطَّهَارَةِ وَالنُّسْكِ وَالزَّهَادَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ»[١].

وقال أيضاً: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَئِمَّةَ عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحِكْمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٢] وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٣] وَقَوْلِهِ فِي طَالُوتَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤] وَقَالَ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٥] وَقَالَ فِي الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ وَعِتْرَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ صلى الله عليه وآله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾[٦] وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَاماً فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ وَلَا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ»[٧].

أعتقد بعد هذا البيان الرائع من الإمام الرضا عليه السلام لا يبقى مجال للقول إن الإمام الذي ينصّبه الله للناس فيه نقص أو احتياج لفكر ما، أو خبرة يسعى لكسبها، والقول بهذا هو خلاف صريح لنهج القرآن في تعريف الإمام المنصّب لهداية الناس من قبل الله تبارك وتعالى.

---

(١) الكافي ج١، الاحتجاج ج٢/ ٤٣٣ والأمالي للصدوق/ ٦٧٤ وتحف العقول/ ٤٣٦ والغيبة للنعماني/ ٢١٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٦) سورة النساء، الآيتين: ٥٤ - ٥٥.

(٧) الاحتجاج ج٢/ ٤٣٣ والأمالي للصدوق/ ٦٧٤ وتحف العقول/ ٤٣٦ والغيبة للنعماني/ ٢١٧.

فكيف أجمع ما قاله السيد الصدر بشأن الإمام (روحي وأرواح العالمين فداه) وهو: «أضف إلى ذلك، أن التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوّراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود: لأنها تضع الشخص المدّخر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكلّ ما فيها من نقاط الضعف والقوة، ومن ألوان الخطأ والصواب، وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقويم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها، وكلّ ملابساتها التاريخية».

كيف أجمع هذا القول الصادر عن تصور دنيوي لفكر محدود، مع الوصف الصادر من حجة الله في أرضه ولسانه الناطق في خلقه وعدل القرآن بل القرآن الناطق.

هل يجتمع قول السيد الصدر مع قول الإمام الرضا عليه السلام: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَئِمَّةَ يُوَفَّقُهُمُ اللَّهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحِكَمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾».

هل الذي يؤتى من علم الله المخزون، ذلك العلم الواقعي الذي به يكون صاحبه أعلم أهل كل زمان، يحتاج لتجربة ما أو حضارة ليتعلم منها؟!، ألا يكون مشمولاً كل من يعتقد بكلام السيد بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]؟.

وعَنْ جَابِرٍ الْجُعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتَ مِيتَتِي وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَنِيهَا رَبِّي وَيَتَمَسَّكَ بِقَضِيبِ غَرَسَهُ رَبِّي بِيَدِهِ فَلْيَتَوَلَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَأَوْصِيَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَإِنَّهُمْ لَا يُدْخِلُونَكُمْ فِي بَابِ ضَلَالٍ وَلَا يُخْرِجُونَكُمْ مِنْ بَابِ هُدًى فَلَا تُعَلِّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكِتَابِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ هَكَذَا وَضَمَّ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ وَعَرْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى أَيْلَةَ فِيهِ قُدْحَانٌ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ عَدَدَ النُّجُومِ[2].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٥٤.

(٢) الكافي ج١/ ٢١٠، الأمالي للطوسي/ ٤٩٣ وبشارة المصطفى/ ٥٣ وبصائر الدرجات/ ٤٩ والطرائف لعلي بن طاووس ج١/ ١١٨ وكشف الغمة لعلي بن عيسى الأربلي ج١/ ٩٦.

الرواية واضحة الدلالة في قوله ﷺ: «فَإِنَّهُمْ لا يُدْخِلُونَكُمْ فِي بَابِ ضَلَالٍ وَلَا يُخْرِجُونَكُمْ مِنْ بَابِ هُدًى فَلَا تُعَلِّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ» على العصمة والعلم وأنهم مستغنون عن كل علم عند الناس، بل إن الناس لا تصلح أحوالهم إلاّ بالعلم الذي عندهم. فهذا أمر صريح من رسول الله في نهي الأمة عن محاولة تعليمهم، وهو أمر واضح بوجوب الأخذ بتعاليمهم، بقرينة قوله ﷺ: «فَإِنَّهُمْ لَا يُدْخِلُونَكُمْ فِي بَابِ ضَلَالٍ وَلَا يُخْرِجُونَكُمْ مِنْ بَابِ هُدًى»، وبقرينة الكلام المتقدم، هذا إضافة إلى أن النبي ﷺ صرح مراراً بعدم الافتراق بين الإمام والقرآن، والأخير باتفاق الأمة حاوٍ ومهيمن على جميع العلوم، وبالتالي فإن الإمام (روحي فداه) له الهيمنة على جميع العلوم في عالم الإمكان.

إذن لا معنى للقول بأن الإمام غير جاهز فكرياً (حاشاه من ذلك)، وكان الأولى لو قال على الأقل، إن المجتمع هو الذي بحاجة إلى إعداد نفسي وفكري لقيام قائم آل محمد ﷺ.

رد دعوى أن الله أمد بعمره وغيّبه حتى لا يتأثر بالحضارة القائمة

يقول السيد الصدر

«فلكي يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التي أعدّ لاستبدالها، لابدّ أن تكون شخصيته قد بنيت بناءً كاملاً في مرحلة حضارية سابقة هي أقرب ما تكون في الروح العامة ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجّه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته». ويقول أيضاً: «ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم وبالجور، تغييراً شاملاً بكلّ قيمه الحضارية وكياناته المتنوّعة، فمن الطبيعي أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم الذين نشأوا في ظل تلك الحضارة التي يراد تقويضها واستبدال حضارة العدل والحق بها؛ لأنّ من ينشأ في ظل حضارة راسخة،

تعمر الدنيا بسلطانها وقيمها وأفكارها، يعيش في نفسه الشعور بالهيبة تجاهها؛ لأنّه ولد وهي قائمة، ونشأ صغيراً وهي جبّارة، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة».

ويقول في الهامش: «ولا ينبغي أن يُشكِل أحدٌ بأنّ النبيّ محمد ﷺ مع عالمية رسالته ومهمّته التغييرية الكبرى، إلاّ أنه عاش في كنف الحضارة الجاهلية، ولم يتأثر بها، وكذا الأنبياء السابقون، فما هو الوجه في هذا الرأي؟.

فجوابه:

أ - إنّ النبيّ ﷺ قد أخضع فعلاً إلى حالة عزلة تامة عن الحضارة الجاهلية، وإنه كما ورد في السيرة النبوية قد حبّب إليه الخلاء، وكان يذهب إلى غار حراء يتحنّث فيه، وكذا الأنبياء كانوا يتنزّهون عمّا عليه مجتمعهم، وكانوا يعتزلون، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ﴾[1].

ب - إنّ النبيّ المرسل يوحى إليه، ويسدّد مباشرة من السماء، ويبلّغ بالأعمال والخطوات التي يتخّذها خطوةً خطوة، والإمام عليه السلام لا يوحى إليه كما هو عقيدة الإمامية، ولا يبلّغ بالأمور مباشرة من السماء، نعم يكون مسدّداً وتحت العناية الربانيّة، ولذلك فهو يحتاج إلى إعداد خاص. ففي نفس الوقت الذي يكون فيه قريباً ومتّصلاً بالحضارة الإسلامية مستمدّاً من آبائه عليهم السلام الأصالة والمعرفة والعلم، يكون مطّلعاً على التجارب البشرية والحضارات في صعودها وعوامل تكوّنها وقوّتها، وكذلك إخفاقاتها وعوامل ضعفها وانهيارها، فيستمد الخبرة والقدرة والإحاطة بالأمور جميعاً، هذا مع اعتقادنا بقدرات الإمام العلمية الذاتية التي وهبها الله تعالى له، وبكونه مسدّداً من السماء، كما سيتضح في المبحث الرابع»[2].

ولعمري إن السيد الصدر في قوله هذا، قد أعطى الذريعة لكل نفس مهزوزة

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٩.

(٢) بحث حول الإمام المهدي/ المبحث الثالث.

تأثرت بالحضارة الغربية وأوجهها المادية البراقة، فإذا كنا نعتقد أن الإمام (المعصوم) قد يتأثر بها في حالة احتكاكه المباشر بها، فلهم العذر إن تأثروا (حسب السيد الصدر)، وكيف لا يتأثرون؟! وبأي حق بعد ذلك نلومهم على الذوبان فيها، وهم أناس بسطاء في إمكانياتهم وعلمهم وطاقاتهم النفسية، بل المفهوم من كلام السيد الصدر أن الخشية هذه قد امتدت حتى للذات الإلهية (تنزهت عن ذلك) من تأثر الأنبياء، لذا أمرتهم، ومنهم أشرف وأكمل خلق الله من الأولين والآخرين الرسول الأكرم ﷺ، بالابتعاد والعزلة عن القوم خشية التأثر بهم وبآرائهم؟؟؟!!!. حيث يقول «إنّ النبيّ قد أخضع فعلاً إلى حالة عزلة تامة عن الحضارة الجاهلية».

عجبي من هذا القول، ودهشتي من قائله لا يدانيه عجب ولا دهشة.

النقاش مع السيد الصدر في هذا الجزء من الفصل، نقسمه إلى قسمين، الأول: بشأن التأثر بالحضارة.

والثاني: إن الإمام غير النبي في تحصيل العلوم وإنه لا يوحى إليه.

أما ما يتعلق بالأول فنقول: إذا أخذنا بهذا الرأي، فستكون النتيجة أن أي شخص يذكره التاريخ ويثبت أنه كان يتعايش مع الناس غير منعزل عنهم، ومع ذلك كان يترفع عن أفعالهم ولا يخشى التأثر بعاداتهم القبيحة، لهو الذي يستحق الشرف الرفيع والمنزلة الأقرب لدى الله، فهل يوجد مثل هذا الشخص في التاريخ؟.

والجواب: نعم يوجد الكثير من هذه النوعية من البشر الأتقياء العظماء التي جلت نفوسهم عن كل قبيح. فالقرآن يذكر أن موسى عليه السلام قد عاش وتربى في وسط الفراعنة، بل أنه عاش في كنف فرعون نفسه وفي قصره الملكي، وبقي ردحاً من الزمن يتعايش مع كل الطقوس والممارسات التي لا تتناسب مع الفطرة السليمة للإنسان السوي فضلاً عن روحه الكبيرة، ومع ذلك خرج متنكرا لها معلنا الحرب عليها وعلى الشخص الذي عاش في قصره وتحت حمايته من دون أدنى درجة من التأثر.

قال الله تبارك وتعالى بشأن موسى عليه السلام وعلى لسان فرعون حينما أعلن عتبه واستغرابه من موقف موسى المعادي لعقيدته ونظام حكمه الطاغوتي، وهو الذي

تربى في كنفه وكان يعتقد أنه أصبح واحداً منهم بعد المدة الطويلة التي قضاها فيهم: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فها هو القرآن يشهد أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام أعظم شأناً من أن يتأثروا، وكيف لتلك الأرواح العظيمة التأثر بعقائد سخيفة وسلوكيات قبيحة كتلك التي ثاروا عليها.

أضف إلى أننا [والسيد الصدر رحمه الله أعلم منا بذلك] نعتقد كمذهب إمامي اثني عشري بأن النبي يولد نبياً، كما هو واضح في مصداق النبي عيسى عليه السلام الذي يقول القرآن على لسانه: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾[3].

فعيسى كان نبياً وهو لا يزال في المهد، فكيف لمن كان نبياً مصلحاً للناس بأمر الله، أن يكون مهزوزاً وخائفاً من أن يتأثر بما جاء لينهاهم عنه؟ والحقيقة أن القرآن يقول بخلاف ما أورده السيد الصدر بشأن الأنبياء عليهم السلام.

اعتقد أن هناك الكثير من الاضطراب في حديث السيد وعدم التدبر، حيث يقول في بداية المقطع الذي أوردناه: «فلكي يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التي أعدّ لاستبدالها»، معنى المقطع أن الله أراد بالغيبة وطول العمر أن يضمن عدم تأثر الإمام بالحضارة التي أُعد لاستبدالها، وتمثل بغيبة الأنبياء وعزلتهم، حتى أنه قال لقد أُخضع الرسول الأكرم للعزلة عن قومه إخضاعا (أي أن السماء هي التي فرضت عليه هذه العزلة)، بينما قال بعد سطر واحد: «وكان يذهب إلى غار حراء يتحنّث فيه، وكذا الأنبياء كانوا يتنزّهون عمّا عليه مجتمعهم، وكانوا يعتزلون، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة مريم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

إِسْحَقَ﴾[١]»، والفرق واضح بيّن، بين تنزه الأنبياء عن أفعال أقوامهم القبيحة والانعزال عنهم بسببها، وبين الخوف من أن تؤثر بهم هذه الحضارات الوهمية، فمرة يقول إنه ﷺ قد أُخضع إلى عزلة تامة عن قومه لضمان عدم تأثره بحضارتهم (وحاشاه من ذلك)، وأخرى يقول إنه والأنبياء كانوا ينعزلون تنزهاً، ولعمري إن الفرق واضح وجلي لكل ذي لب أو ألقى السمع وهو شهيد، بين من ينعزل اشمئزازاً من الأفعال القبيحة وبعد يأسه من إصلاح أصحابها وبين ذلك الشخص الذي ينعزل خشية من تأثره بعادات قومه وسلوكهم المشين.

وأيضاً (بحسب قانون السيد الصدر) سأجري مقارنة بين من كان يعتزل الناس لضمان عدم التأثر (وهم الأنبياء)، وبين من كان يسير شامخاً بين قومه رافضاً ومنكراً أفعالهم، وهو على تماس معهم غير منعزل عنهم، ولا يخشى تأثره بهم، لأنه مطلع على قبح أفعالهم المشينة التي لا تتناسب مع العقل المتزن والفطرة السليمة، (مع أنه ليس بنبي)، وليقل لي السيد أو من يؤمن بطرحه، من منهم يستحق النبوة والقرب الإلهي؟. فهذا جعفر بن أبي طالب عليه السلام يحدّث النبي ﷺ كيف أنه لم يرتكب القبيح لوضوح قبحه العقلي، «فَعَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ أَنِّي شَكَرْتُ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْبَعَ خِصَالٍ فَدَعَاهُ النَّبِيُّ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَكَ مَا أَخْبَرْتُكَ، مَا شَرِبْتُ خَمْراً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنِّي إِنْ شَرِبْتُهَا زَالَ عَقْلِي، وَمَا كَذَبْتُ قَطُّ لِأَنَّ الْكَذِبَ يَنْقُصُ الْمُرُوءَةَ، وَمَا زَنَيْتُ قَطُّ لِأَنِّي خِفْتُ أَنِّي إِذَا عَمِلْتُ عُمِلَ بِي، وَمَا عَبَدْتُ صَنَماً قَطُّ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، قَالَ فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِهِ وَقَالَ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جَنَاحَيْنِ تَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ»[٢].

هنا السؤال، وهو موجه إلى كل من يؤمن بنظرية السيد الصدر (التي قلنا في البدء) إننا نعتقد أن السيد الصدر لا يتبناها وإنما أراد أن يخاطب بها من يريدون فهم

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج٤/ ٣٩٧، الأمالي للصدوق/ ٧٥ وروضة الواعظين لمحمد بن الحسن الفتال ج٢/ ٢٦٩وعلل الشرائع ج٢/ ٥٥٨.

الأمور على طريقة علم الاجتماع كما قال في مقدمة المبحث الثالث، السؤال هو: من يستحق النبوة وفق هذا المبنى الذي يطرحه السيد؟ (النبي) الذي يخضع لعزلة قسرية خشية عليه من التأثر؟ أم (غير النبي) الذي يسير شامخا بين المنحرفين غير آبه بهم وبأخلاقهم الذميمة وهو يسير بالإصلاح بسيرته الكريمة بينهم؟ ومثاله جعفر بن أبي طالب الذي شكر له الله تبارك وتعالى هذه الأخلاق الكريمة والسلوك الحسن وسط ذلك الكم الهائل من الانحراف الأخلاقي والسلوك المشين؟ بيد أننا نعتقد أن الأنبياء عليهم السلام أعظم درجة وأكمل وأجل من أن يساووا أقوامهم أو يخشوا من التأثر بأي من أخلاقهم القبيحة. أترك الإجابة لعقل القارئ الواعي.

الثاني: إن الإمام غير النبي في تحصيل العلوم وإنه لا يوحى إليه.

القسم الثاني الذي سنبحثه في هذا الجزء هو ما تقدم في العنوان من تفريق السيد الصدر رحمه الله بين الإمام والنبي في تحصيل العلم، مدعياً أن الإمام لا يوحى إليه وقد عبر عنه بأنه عقيدة الإمامية؟!.

في البدء علينا أن نقول: إن قول السيد إن الإمام لا يوحى إليه لا يوجد ما يدل عليه لا من القرآن ولا من السنة الشريفة للنبي الأكرم وآل بيته الأطهار، بل الأمر على عكس ذلك تماماً، ولدينا الكثير من الأدلة التي تثبت ذلك.

بيد أننا لا بد أن نوضح للقارئ الكريم ما المقصود من الوحي، وما الفرق بين الوحي الذي يتنزل على الأنبياء وبين ذلك الذي يتنزل على غيرهم.

تقسيمات الوحي

يقسم الوحي حسب المفهوم من آيات القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع، تكويني وتشريعي وآخر ندعوه بالوحي الإرشادي.

١ - الوحي التكويني

فأما الوحي التكويني فيتعلق بالمخلوقات التي يمكن أن نطلق عليها اصطلاحاً أنها غير مختارة بالنسبة إلى التكليف كالإنسان، فالوحي إليها هو عبارة عن خطة العمل المطلوب منها تأديته وسط النظام العام للخليقة أو ما يطلق عليه (الغريزة) عند الحيوانات والحشرات فهي تبعاً لهذه الأخيرة تعرف من دون أن يعلّمها أحد ما المطلوب منها تحديداً، أما بالنسبة للطبيعة فإن الوحي إليها، هو عبارة عن السنن أو القوانين الكونية التي تسيّر عالم التكوين نحو الغاية المرجوة من خلقها والتي لا تختلف أو تتخلف كما في القوانين الطبيعية المسؤولة عن تدبير الأجرام السماوية أو غيرها.

وهذا المفهوم يصرح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1].

وهو وحي تكويني كما هو بيّن، فمن غير المعقول أن يوحي الرب العظيم إلى هذه الحشرة كما يوحي إلى أنبيائه مثلاً، فهذا الوحي هو عبارة عن شحن هذه الحشرة المفيدة بخطة الحياة الكاملة لها على الأرض والمراد المطلوب منها أن تؤديه، وكذا في وحيه للأرض في قوله تعالى في سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ

(١) سورة النحل، الآية: ٦٨.

زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ . . .﴾[١].

فالوحي إلى الأرض من هذا النوع الذي أشرنا إليه.

٢ - الوحي التشريعي

هو الكلام حسب التعبير القرآني أو الخطاب أو المراد الذي يصل إلى الأنبياء عليهم السلام من قبل الله تبارك وتعالى. وهو بدوره ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢].

تقسيمات الوحي التشريعي

يبيّن الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن الكلام الذي يجري بينه وبين البشر والمقصود منهم الأنبياء أو (غيرهم) كما سيتضح في قسم الوحي الإرشادي، يكون على ثلاثة طرق كما في الآية، فما المقصود من هذه الطرق وما هي كيفيتها؟

أ - سنبدأ من آخر الطرق الثلاثة حتى ننتهي عند الذي نريد إثباته، فآخر هذه الطرق كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وهو المتعارف عليه من بعث أمين الوحي جبرائيل إلى أنبيائه الكرام عليهم السلام أو غيره من الرسل من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[٣]. أو قصة إبراهيم عليه السلام يوم وصلته البشرى بأن سيكون له ذرية أنبياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[٤]، أو قصة لوط عليه السلام

(١) سورة الزلزلة، الآيات: ١ - ٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.
(٤) سورة هود، الآية: ٦٩.

حينما جاءته الرسل بنبأ إنزال العذاب على قومه، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1].

هذه الآيات توضح معنى قوله تعالى: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني تصله المعلومة عن طريق رسول سماوي أو ملك الوحي كما هو المتعارف عليه.

ب - أما قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فأوضح مصداق له هو الكلام الذي دار بين الله تبارك وتعالى وبين موسى كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وكذا قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾[3].

فالحجاب الذي دار من ورائه الكلام هو الشجرة المباركة، بصرف النظر عن اعتقادنا أنها شجرة مادية أو شجرة معنوية نورية، فليس هذا داخلاً في موضوعنا.

معنى الوحي في الآية

ج - أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، يقول السيد الطباطبائي في الميزان ما نصه: «وقيل المراد به الوحي مطلقا لأن الوحي تكليم خفي، وقد سماه الله تعالى تكليماً حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[4]. ويقول أيضاً: ﴿أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ﴾[5]. والمعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعا من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحي وحيا أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قيد

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٣) سورة طه، الآيات: ١١ - ١٣.
(٤) الميزان ج٢.
(٥) الميزان ج١٦.

القسمان الأخيران بقيد كالحجاب، والرسول الذي يوحي إلى النبي، ولم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلا، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكل منهما واسطة، غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح وإنما الوحي من ورائه.

فتحصل أن القسم الثالث ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه... وإن القسم الثاني ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتدئ الوحي مما وراءه لمكان من، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[1]. وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[2].

وإن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض[3].

إذن معنى الوحي هو التكليم الخفي أو الرمزي الذي يكون من دون واسطة بين الله تبارك وتعالى وبين الموحى إليه.

قال الله تبارك وتعالى في قصة البشارة التي حصل عليها زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾[4].

هل لنا أن نسأل كيف سيتحدث زكريا عليه السلام بلغة الرمز؟

---

(١) سورة البروج، الآية: ٢٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.
(٣) الميزان ج١٨.
(٤) سورة آل عمران، الآيات: ٣٩ - ٤١.

ويأتي الجواب: في سورة مريم حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[1].

إذن معنى الوحي المستخلص من هذه الآيات الشريفة هو: إيصال المعلومة عن طريق الرمز، وهو نوع من أنواع الكلام الخفي.

وعليه فالإمام تصله المعلومة عن طريق البارئ جل شأنه إما بالكلام المباشر الموحى إليه، أو النكت في القلب (الإلهام)، أو عن طريق رمز ما، يكون مفهوماً من قبل الإمام عليه السلام أو يمكن أن يبعث الله له رسولاً كما بعث إلى مريم عليها السلام وهذه كلها تسمى وحياً وهي قسم من مصادر الإمام في تلقي العلوم، وسيأتيك أن الإلهام نوع من أنواع الوحي كما يفسره ابن منظور في لسان العرب، لا أن الإلهام غير الوحي كما يقول بذلك أغلب المفسرين.

٣ - الوحي الإرشادي

وهو الوحي الخارج عن حدود إنزال الشرائع، أو بعبارة أخرى ليس مهمته تبليغ شريعة ما، أو حكم سماوي للناس كما هو حاصل للأنبياء عليهم السلام وإنما يتعلق بالتسديد الإلهي أو الإرشادي الذي لا يخرج عن حدود الشريعة التي يدين بها الموحى إليه، وغالباً ما يحدث عند مرحلة خطيرة أو مفصلية في حياة الناس، وهو أعم من أن يكون للأنبياء، ومثاله الوحي الذي كان لأم موسى عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾[3].

أو في وحيه لمريم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) سورة مريم، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.
(٣) سورة طه، الآية: ٣٨.

ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مع ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وكذا في مريم أيضاً ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾[2].

أو في وحيه للحواريين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[3].

يتضح من خلال هذه الآيات المباركات أن الوحي لا يختص بالأنبياء وحدهم، فمن الممكن أن يوحي الله لكل من شاء أن يوحي إليه. بيد أننا نقول إنه وحي إرشادي ونفرق بينه وبين وحي النبوة المتعلق بإنزال شريعة أو حكم ما.

والآن، هل الإمام (عجل الله فرجه الشريف) كما هو حال آبائه عليهم السلام كان ممن يوحى إليهم، أو لا؟ كما يزعم ذلك السيد الشهيد الصدر (رض).

دليل العقل

لا يوجد ما يتنافى مع العقل في حصول الوحي للأئمة عليهم السلام لعدة اعتبارات.

أولاً: أنهم ليسوا أقل شأناً من مريم أو أم موسى أو الحواريين.

ثانياً: بل أننا نعتقد أن الأئمة هم ورثة جميع الكمالات التي كانت للرسول صلى الله عليه وآله لاسيما أن أمير المؤمنين عليه السلام هو نفس الرسول بنص آية المباهلة إلا ما خرج لتفرده بالمنزلة الرفيعة عن الخلق أجمعين.. وبهذا يكونون أفضل حتى من الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة مريم، الآيات: ١٦ - ١٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١١.

ثالثاً: إذا كان هذا الوحي يحدث نتيجة لحالة خطيرة أو حدث مفصلي يستدعي التدخل الإلهي، كما جرى في وحي أم موسى، فحياة الأئمة عليهم السلام كانت مليئة بهذه الأحداث والتحولات المفصلية في مسيرة الإسلام. على هذا فليس هناك ما يمنع من تلقيهم الوحي من قبل الله تبارك وتعالى.

دليل النقل

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: يملك القائم ثلاثمائة سنة ويزداد تسعا كما لبث أهل الكهف في كهفهم يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً فيفتح الله له شرق الأرض وغربها ويقتل الناس حتى لا يبقى إلا دين محمد ويسير بسيرة سليمان بن داود ويدعو الشمس والقمر فيجيبانه وتطوى له الأرض ويوحي الله إليه فيعمل بأمر الله[1].

وبإسناده رفعه إلى أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك أخبرني عن صاحب هذا الأمر، قال: يمسي من أخوف الناس ويصبح من آمن الناس يوحى إليه هذا الأمر ليله ونهاره قال: قلت يوحى إليه يا أبا جعفر قال: يا أبا جارود إنه ليس وحي نبوة ولكنه يوحى إليه كوحيه إلى مريم بنت عمران وإلى أم موسى وإلى النحل يا أبا الجارود: إن قائم آل محمد لأكرم عند الله من مريم بنت عمران وأم موسى والنحل[2].

تبين هذه الرواية المعنى الذي عبرنا عنه بالوحي الإرشادي، كما تثير أهل العقول للتدبر في القرآن، فإن كان الله تبارك وتعالى قد أشار وبأوضح عبارة بأنه قد

---

(١) دلائل الإمامة للطبري/ ٢٤٢، بحار الأنوار ج٥٢/ ٣٩٠ ومستدرك سفينة البحار ج٣/ ١ ومعجم أحاديث الإمام المهدي ج٣/ ٣١٨..

(٢) بحار الأنوار ج ٥٢/ ٣٨٩. معجم أحاديث الإمام المهدي الشيخ علي الكوراني ج٣/ ٢٩١ والإمام المهدي المنتظر السيد عدنان البكاء/ ١٩١ ومائتان وخمسون علامة حتى ظهور الإمام السيد محمد علي الطباطبائي/ ٣٣.

أوحى لحواريي عيسى فكيف لا يوحي لمن سيصلي عيسى خلفه مأموماً، بيد أنها تؤكد أنه ليس وحي نبوة تماشياً مع القرآن والسنة المعصومية وهذا ما قلناه وأكدنا عليه.

وبهذا اتضح المطلوب أن الإمام المهدي عليه السلام يوحى إليه وحياً تسديدياً إرشادياً.

ولعل من المناسب أن نعرج ولو بشكل مختصر على أهم المصادر التي يستقي منها الإمام علمه.

مصادر علم الإمام

يقسم السيد كمال الحيدري في كتابه (الراسخون في العلم) المصادر أو المناهل التي ينهل منها الإمام علمه إلى خمسة مصادر رئيسة، كل واحد من هذه المصادر ربما يتضمن عدة أقسام:

الأول: الإلهام وحديث الملائكة.

الثاني: روح القدس.

الثالث: العلم اللدني.

الرابع: التعليم والوراثة من النبي صلى الله عليه وآله.

الخامس: الصحيفة والجامعة والجفر.

الإلهام وحديث الملائكة

حينما يتحدث السيد الحيدري عن هذا الموضوع تشعر أنه يتحدث بحذر شديد، بل يعلن ذلك خشية من أن تكال التهم الجزافية على شيعة أهل البيت من قِبل النواصب الذين يتبعون ما تشابه ابتغاء للفتنة، حيث يقول: «والقول بأن الإلهام

وحديث الملائكة من وسائل علم المعصوم قد يعتريه بعض الشكوك والأوهام إذ يدخله في دائرة الوحي المخصوص بالأنبياء فتكال لنا التهم الجزافية، من هنا كان لابد قبل بيان كيفية تزود المعصوم بالعلم عن طريق الإلهام أن نشير إلى الفارق بينه وبين الوحي.... والشيعة يؤمنون بأن الوحي لا ينزل على الأئمة عليهم السلام وأن أبواب الوحي بعد وفاة خاتم الأنبياء ﷺ قد أُوصدت والى الأبد وهذا ما قرره أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك، من النبوة والإنباء وأخبار السماء...»[1].

ثم يعرج على تبيين الفرق بين الوحي والإلهام فيقول: قال الراغب الأصفهاني: (أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة: قيل أمر وحي، وقد يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح والكتابة). وقال صاحب مقاييس اللغة: (الوحي أصل يدل على إلقاء علم في خفاء إلى غيرك، فالوحي الإشارة، والوحي: الكتابة والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه، فهو وحي كيف كان.. والوحي السريع..) وفي لسان العرب: (الوحي: الإشارة والكتابة، والرسالة والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، ويقال: وحيت إليه الكلام، وأوحيت.. وأوحى أيضاً كتب..) ويجمع أهل اللغة من خلال هذه النصوص وغيرها أن الوحي هو الإعلام بخفاء بطريقة من الطرق[2].

يثبت هنا صاحب لسان العرب أن الإلهام من معاني الوحي، وأن الوحي هو الإعلام بخفاء بطريقة من الطرق. إذن أية طريقة يتم من خلالها إيصال المعلومة تسمى وحياً بشرط أن تتم بخفية.

ويثبّت السيد كمال الحيدري كما ينقل عن العارف السيد حيدر الآملي قوله: «والوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء، وكما أن النفس دون العقل، والولي

(١) الراسخون في العلم/ ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٢) الراسخون في العلم/ ٢٢٦.

دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبة الوحي، قوي بنسبة الرؤيا»، وقبلها يقسم السيد الآملي حسب ما نقله السيد الحيدري أقسام العلم إلى: «العلم الحاصل عن طريق الوحي يسمى علماً نبوياً والذي يتحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنياً»[١].

أقول: لا اعرف من أين جاء السيد الآملي بهذا التقسيم الذي يخالف القرآن مخالفة صريحة، فبناء على ما قرره السيد الآملي، أين أضع العلم الحاصل لمريم عليها السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٢]. أو ليس المصطفون والمطهرون في القرآن هم العلماء ومريم منهم؟ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٣].

أيمكن لأحد أن يخرج مريم عليها السلام من هذه المجموعة المصطفاة؟ أولم تكن مريم الصديقة عالمة من علماء بني إسرائيل وممن ورثت علم الكتاب؟ أو ليس حديث الملائكة معها يُعد تعليما لها؟ أوليس إخبارها بتكليف السماء لها بأن تسجد وتركع لله مع الراكعين ينم عن علو مقاماتها المعنوية التي لا تتأتى إلا لمن كان من العلماء بالله، هذا أولاً، وثانياً: ألا يُعد هذا التكليف إعلاماً لها عن طريق الملائكة وهو نوع من أنواع الوحي؟.

أولاً يدل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٤]، على أن مريم كانت تتلقى العلم عن طريق الوحي (من القسم الذي يقول فيرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء) مع أنها ليست نبية؟ إذا لم تكن كذلك فلماذا تفصّل هذه الآيات لمريم كل المراحل

(١) م ن/ ٢٢٩.
(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

التي سيمر بها ولدها المسيح عليه السلام في الدنيا والآخرة؟ أولا يسمى هذا علما عن طريق الوحي مع أنه ليس علما نبويا، لأن مريم ببساطة ليست نبية؟.

وأكبر دليل على عظمة علم مريم أنها كانت مُلهمة لنبي الله زكريا، فمع أن زكريا كان نبيا من أنبياء الله وكان حجة عليها. إلّا ان ذلك لم يمنع من أن تكون مُلهمة له بعبارة تدل على سعة علمها وقربها من الله تعالى، وهذه العبارة نقرأها في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾[1].

والنكتة هي في قول القرآن، هنالك دعا زكريا، وكأنه تنبه لشيء استفاده من كلام مريم بقولها: إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، والكلام صدر من مريم شرحا وتعليلاً لما شاهده زكريا عليه السلام من أنواع الفواكه التي كانت لدى مريم في غير وقتها المتعارف عليه، (بحسب المفسرين)، فجاءت كلمة مريم التي دلت على معرفتها الكبيرة بالله وهي المصطفاة المطهرة فقالت إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، أي إن القوانين الجارية في الدنيا إنما تجري علينا نحن لا على الله فإن الله تبارك وتعالى إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

وكأن زكريا قد تنبه للإشارة التي وصلته عن طريق مريم ولا أعلم حقيقة، هل أن مريم كانت مأمورة بإيصال هذه الرسالة التي فهمها زكريا وبادر إلى العمل بها؟ أو أن مريم كانت في محل الثناء والشكر لله وعدم التعجب من قدرته؟ وذهب إلى قريب من هذا المعنى صاحب تفسير الأمثل الشيخ مكارم الشيرازي (حفظه الله) بقوله: «وعلى الرغم من كبر سن زكريّا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعيّة عن أن يرزقا طفلاً، فإنّ حبّ الله ومشاهدة الفواكه الطرية في غير وقتها في محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملاً بإمكان حصوله في فصل شيخوخته على ثمرة الأُبوّة،

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

لذلك راح يتضرّع إلى الله (قال ربّ هب لي من لدنك ذرّية طيّبة إنّك سميع الدعاء)»[١].

وقد يستغرب البعض ويقول: كيف تدعي أن مريم يمكن أن تكون ملهمة لنبي الله زكريا عليه السلام؟.

أقول: وما الضير في ذلك، وأنا أسأل: ما الأمر الأكثر غرابة، أن تكون ملهمة لنبي أم تكون منبئة إياه بشي لم يحط به علماً؟ فها هو القرآن يحدثنا عن سليمان نبي الله ومحاورته مع الهدهد، حيث يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٢].

هذه الآيات تشهد أن الهدهد هذا الطائر الضئيل في حجمه أحاط بما لم يحط به نبي الله سليمان عليه السلام هذا وهو حيوان فكيف بمن فضله الله على جميع مخلوقاته وهو الإنسان، بل وكيف بمن فضلها الله على سائر الناس في وقتها وهي مريم عليها السلام التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين.

والآن هل يختص العلم الحاصل عن طريق الوحي بالأنبياء فقط؟ وهل حقاً يكون الولي والإمام دون النبي في تحصيل العلم؟.

وخوفا من الإطالة ورعاية للاختصار، أطرح تساؤلاً أترك إجابته للقراء وأهل الاختصاص، مفاده: هل أن العلم الحاصل لإبراهيم عليه السلام بعد إمامته كان أضعف أم أقوى؟ وهل كان تلقيه للوحي، أوضح من الذي كان في مدة نبوته قبل الإمامة، أم لا؟.

---

(١) الأمثل ج٢/ ٤٨٦.

(٢) سورة النمل، الآيات: ٢٢ - ٢٧.

والسؤال الآخر: هل كان يقصد من الولي مطلق الصالحين، أم أن الإمام المعصوم من أئمة أهل البيت عليهم السلام منهم؟.

فإن كان يتحدث عن مطلق الصالحين من دون الأنبياء والأئمة عليهم السلام فليس لدينا أي اعتراض على ذلك، مع أن قضية الخضر مع موسى تشير إلى عكس ذلك، فربما نال عبدا من الأولياء والصالحين تكاليف معينة تقتضي علما لدنيا ليس لنبي الوقت دراية به، وقد يكون هذا جرى للخضر عليه السلام فقط على اعتبار أنه لم يكن من قوم موسى، وأنه كان يعيش تكاليف خاصة به عن طريق العلم اللدني، لأنه كان يمتد مع الزمان، فقد كان قبل موسى وبقي بعده، مع أنه لم يكن نبياً على المشهور.

أما إذا كان يعد الأئمة من جملتهم، فإن الموضوع يأخذ بعداً آخر ونسجل اعتراضنا عليه، لأننا نعتقد كما تجمع على ذلك مدرسة أهل البيت بأن الأئمة الإثني عشر عليهم السلام أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وعليه فلا معنى للقول أن الولي دون النبي، لاسيما أن السنة المعصومية تنقل خلاف قول السيد الأملي، ففي رواية عن صادق أهل البيت عن أبي الصامت قال: قال أبو عبد الله عليه السلام إن حديثنا صعب مستصعب شريف كريم ذكوان ذكي وعر لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن، قلت فمن يحتمله جعلت فداك قال من شئنا يا أبا الصامت، قال أبو الصامت فظننت أن لله عبادا هم أفضل من هؤلاء الثلاثة.

ويعلق الشيخ المجلسي تعليقاً غاية في الروعة فيقول:

لعل المراد الإمام الذي بعدهم فإنه أفضل من الثلاثة واستثناء نبينا صلى الله عليه وآله ظاهر والمراد بهذا الحديث الأمور الغريبة التي لا يحتملها غيرهم عليهم السلام [1].

وتؤيده الرواية الآتية: عن عيسى الفراء عن أبي الصامت قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن من حديثنا ما لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا عبد مؤمن قلت: فمن يحتمله، قال: نحن نحتمله[2].

---

(١) بحار الأنوار ج٢/ ١٩٢.

(٢) بصائر الدرجات/ ٢٣. تفسير الصافي الفيض الكاشاني ج١/ ١٣ وتفسير الأمثل ج٨/ ١٥٣ =

الأمر الآخر: يقول السيد الأملي الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبة الوحي، قوي بنسبة الرؤيا. ونحب أن ننوه بأن ابن منظور في لسان العرب كان قد قال: الوحي: الإشارة والكتابة، والرسالة والإلهام، أي أن الإلهام هو الوحي، ويقول السيد الحيدري (حفظه الله) في معنى الإلهام، «وحاصل كلام أهل التفسير في الإلهام أنه: عبارة عن فكرة يدركها الإنسان مصحوبة بالشعور الواضح، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الإنسانية، وإن كان الإنسان لا يدرك شكل الطريقة التي تم فيها هذا الإلقاء، والفرق بين الإلهام والوحي هو عدم وضوح الطريقة التي تم فيها الإلقاء وإلاّ فإن كانت واضحة فهي الوحي»[١].

أنا أتساءل مجدداً هل أن الحديث هنا يشمل أئمة أهل البيت عليهم السلام أم إن المقصود غيرهم؟ أقول إن من المسلّم به أن أهل البيت لا يشملهم هذا القول، لأن أهل البيت أجل من أن تكون الطريقة التي تأتيهم بها الواردات غير واضحة، فإن هذا يتنافى مع منازلهم ومقاماتهم التي بينوها لنا وعرفناهم من خلالها.

والمشكلة حقاً أن عالماً مثل السيد الحيدري يقول بذلك ويقرّ به كما في قوله: فالإلهام من الله العلي القدير، وحديث الملائكة معهم، من الكرامات التي اختص بها الله أئمة أهل البيت عليهم السلام [٢].

المشكلة أن حديث الملائكة أصبح كرامة لأهل البيت وهم أشرف الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا ما لم أفهمه فكيف يكون كلام الخادم مع سيده شرف وكرامة للسيد لا للخادم؟.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله فينا خطيبا فقال: الحمد لله على آلائه وبلائه عندنا أهل البيت وأستعين الله على نكبات الدنيا وموبقات الآخرة وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني محمداً عبده ورسوله...

- والاختصاص للشيخ المفيد/ ١٦٤ والهداية الكبرى للخصيبي/ ١٣٠ ومختصر بصائر الدرجات الحسن بن سليمان الحلي/ ٤٢ والكثير من المصادر إلا أنها ليس فيها (قلت فمن يحتمله قال نحن نحتمله).

(١) الراسخون في العلم/ ٢٢٩.

(٢) م ن/ ٢٢٩.

إلى أن قال: فقال له عبادة بن الصامت إذا كان كذلك فإلى من يا رسول الله قال فإذا كان ذلك فعليكم بالسمع والطاعة للسابقين من عترتي فإنهم يصدونكم عن البغي ويهدونكم إلى الرشد ويدعونكم إلى الحق فيحيون كتابي وسنتي وحديثي ويميتون البدع ويقمعون بالحق أهلها ويزولون مع الحق حيث ما زال فلن يخيل إلي أنكم تعملون ولكني محتج عليكم إذا أنا أعلمتكم ذلك فقد أعلمتكم أيها الناس إن الله تبارك وتعالى خلقني وأهل بيتي من طينة لم يخلق منها أحدا غيرنا فكنا أول من ابتدأ من خلقه فلما خلقنا فتق بنورنا كل ظلمة وأحيا بنا كل طينة طيبة وأمات بنا كل طينة خبيثة ثم قال هؤلاء خيار خلقي وحملة عرشي وخزان علمي وسادة أهل السماء والأرض هؤلاء الأبرار المهتدون المهتدي بهم من جاءني بطاعتهم وولايتهم أولجته جنتي وكرامتي ومن جاءني بعداوتهم والبراءة منهم أولجته ناري وضاعفت عليه عذابي ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [2].

لاحظ أنه ﷺ يقول إن أهل البيت هم سادة أهل السماء، والمعروف أن الملائكة من سكان السماوات.

وجاء في العمدة: قال يحيى بن الحسن أيده الله اعلم أن النبي قد أبان سادة الحسن والحسين عليهما السلام على كافة خلق الله تعالى لأن سادة خلق الله أهل الجنة خلاف لأن الله سبحانه وتعالى ما يختص بجنته إلا الأنبياء والأوصياء وأهل الإيمان من سائر أهل الملل وكلهم بلا خلاف فيه لا يدخلون الجنة إلا جرداً مرداً شباباً ولا يدخلها شيخ ولا عجوز ولا كهل وهذا لا خلاف فيه بين الأمة وإذا ثبت لهما السيادة على خيار خلق الله وهم أهل الجنة فيثبت أنهما خير الخليقة جميعاً[3].

ولا يوجد أوضح من الرواية التالية: فعن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما خلق الله عزوجل خلقا أفضل مني ولا أكرم عليه مني قال علي عليه السلام: فقلت يا رسول الله: فأنت أفضل أو جبرئيل، فقال: ﷺ يا علي إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٩.
(٢) بحار الأنوار ج١٦/ ٣٧٥.
(٣) العمدة/ بن البطريق الحلي/ ٤٠٧.

ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من بعدك وإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا يا علي ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[١] بولايتنا يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه لأن أول ما خلق الله ﷻ خلق أرواحنا فأنطقنا بتوحيده وتحميده ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نوراً واحداً استعظموا أمرنا فسبحنا لتعلم الملائكة أنا خلق مخلوقون وأنه منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا فلما شاهدوا عظم شأننا هللنا لتعلم الملائكة أن لا إله إلا الله وأنا عبيد ولسنا بآلهة يجب أن نعبد معه أو دونه فقالوا لا إله إلا الله فلما شاهدوا كبر محلنا كبرنا لتعلم الملائكة أن الله أكبر من أن ينال عظم المحل إلا به فلما شاهدوا ما جعله لنا من العزة والقوة قلنا لا حول ولا قوة إلا بالله لتعلم الملائكة أن لا حول لنا ولا قوة إلا بالله فلما شاهدوا ما أنعم الله به علينا وأوجبه لنا من فرض الطاعة قلنا الحمد لله لتعلم الملائكة ما يحق لله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمته فقالت الملائكة الحمد لله فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده[٢].

والآن لمن تكون الكرامة بالتكلم مع الآخر، للملائكة أم للأئمة عليهم السلام؟ وعلى هذا فهنيئاً للملائكة بالتكلم مع خير الخلق أجمعين.

الذي نريد أن نقوله أن هناك تخبطاً واضحاً في تعريف الإلهام ومحاولة عزل الوحي عن الأئمة عليهم السلام ولصق الإلهام بهم مع أنه لا دليل عليه في كتاب الله، بل أن القرآن واضح في بيانه أن من الممكن أن يوحي الله لغير الأنبياء بيد أنه وحي إرشادي كما اصطلحنا عليه، كما في وحي أم موسى ومريم والحواريين، فأين المشكل في ذلك، ولا أعلم لما يتخوف العلماء من التصريح بأن الأئمة عليهم السلام يوحى إليهم، كما ثبت ذلك في الرواية التي أوردناها آنفاً والمتضمنة دليلاً عقلياً

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧.

(٢) كمال الدين ج١/ ٢٥٥. علل الشرائع ج١/ ٥ وعيون أخبار الرضا عليه السلام ج١/ ٢٦٢ ومنتخب الأنوار المضيئة/ ١٢ وتأويل الآيات الظاهرة السيد شرف الدين الحسيني/ ٨٣٥.

يورده الإمام عليه السلام لرفع استغراب السائل حينما قال له: «قلت يوحى إليه يا أبا جعفر قال يا أبا جارود إنه ليس وحي نبوة ولكنه يوحى إليه كوحيه إلى مريم بنت عمران وإلى أم موسى وإلى النحل يا أبا الجارود إن قائم آل محمد لأكرم عند الله من مريم بنت عمران وأم موسى والنحل»، وهنا يخالجني تساؤل يلح علي وهو: من أين جاء إجماع الشيعة على أنه لا يوحى إلّا للأنبياء عليهم السلام كما في قول السيد الحيدري (حفظه الله): «أن الشيعة يؤمنون، ومن عقائدهم المتفق عليها بين علمائهم، أن الوحي لا ينزل على الأئمة، وأن أبواب الوحي بعد وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله قد أُوصدت إلى الأبد، وأن الوحي قد انقطع بعد وفاته صلى الله عليه وآله.

لذا فإنهم ينقلون عن الإمام علي عليه السلام بأنه قال وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله: (بأبي أنت وأمي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنباء وأخبار السماء)، وفي كلام آخر له يقول عليه السلام: أما رسول الله فخاتم النبيين ليس بعده نبي ولا رسول، وختم رسول الله الأنبياء إلى يوم القيامة) ومن أراد أن يقف على نصوص الأئمة الاثني عشر في ختم النبوة وانقطاع الوحي وسد باب التشريع بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله، فإنه سيجد قرابة نصاً من النبي الأكرم وأهل بيته الطاهرين في ذلك المجال»[1].

أقول إن المشكلة تكمن في حصر الوحي بالأنبياء فقط في حين فصّل القرآن الوحي إلى ما قدمناه من تكويني وتشريعي وإرشادي، وكذا فعل الإمام الصادق في الرواية المتقدمة حينما بين أن الوحي النازل على الإمام ليس وحياً نبوياً. ولا أدري لماذا يصر العلماء على حصر الوحي بالنبي ولا يفرقون بين أنواع الوحي النازل، نعم لا شك أن الوحي التشريعي انقطع بموت الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله على اعتبار إكمال الدين كما في آية إكمال الدين فلا حاجة لنزول الوحي بتشريع جديد، بيد أن النازل على الإمام ليس وحي نبوة كما بيّن الإمام فافهم.

والغريب أن السيد الحيدري يقول نفس الكلام الذي نقوله بما ساقه من دليل على انقطاع الوحي، «ومن أراد أن يقف على نصوص الأئمة الاثني عشر في ختم

(١) الراسخون في العلم/ ٢٣١.

النبوة وانقطاع الوحي وسد باب التشريع بعد رحلة الرسول ﷺ»، فهذا الذي نقوله أن الوحي الذي انقطع هو الوحي التشريعي لا مطلق الوحي، والروايات التي ساقها تعطي هذا المعنى، فإن الإمام يقول إن المنقطع بموت الرسول هو النبوة والإنباء وأخبار السماء، المتعلقة بالتشريع لا مطلق الأخبار، وإلا فما الذي ينزل على الإمام في ليلة القدر؟ ففي رواية عن الباقر عليه السلام: «..بلى ولكنه إنما يأتي بالأمر من الله تعالى في ليالي القدر إلى النبي وإلى الأوصياء: افعل كذا وكذا لأمر كانوا قد علموه، أمروا كيف يعملون فيه..»[1]! إن الإمام يتحدث هنا عن انقطاع النبوة لا انقطاع الوحي، والوهم الذي تصوروه هو أن لا وحي إلا وحي النبوة، في حين أن القرآن يقول غير ذلك.

وإلاّ فإن السيد الحيدري نفسه وفي الكتاب عينه يقول بأن الملائكة كانت تتحدث إلى الأئمة وتأتيهم بالأخبار وهم أحد مصادر علومهم كما في هذه الرواية التي ينقلها السيد الحيدري في صفحة ٢٣٨ عن عيسى بن حمزة الثقفي قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا نسألك أحياناً فتسرع في الجواب، وأحياناً تطرق ثم تُجيبنا. قال: إنه نعم ينقر وينكت في آذاننا وقلوبنا، فإذا نكت أو نقر نطقنا، وإذا أمسك عنا أمسكنا). وفي صفحة ٢٣٩ يقول ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إن علياً عليه السلام كان محدثاً. فراجعه بعض أصحابه وسألوه ليعرفوا منه من كان يحدثه. فقال عليه السلام يحدثه ملك، ولما سألوه: هل كان نبياً؟ فأومأ بيده بالنفي والإنكار، ثم قال عليه السلام: كصاحب سليمان، أو كصاحب موسى، أو كذي القرنين، ثم قال عليه السلام: أو ما بلغكم أنه قال: وفيكم مثله).

سبحان الله نفس المشكلة التي يعاني منها القوم الآن، جاءت في هذه الرواية، فإن الأصحاب كانوا يظنون أن الملائكة لا تتنزل إلا على الأنبياء، ويوضح لهم الباقر عليه السلام أن لا ضير من نزول الملائكة على الأئمة ولا يشترط أن يكونوا أنبياء.

وهذه الرواية تبين ذلك: «عن عبد الله بن أبي يعفور قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنا نقول إن علياً لينكت في قلبه أو يوقر في صدره فقال إن علياً كان

(١) دروس في علم الإمام السيد كمال الحيدري/ ١٩١.

محدثاً قال فلما أكثرت عليه قال إن علياً كان يوم بني قريظة وبني النضير كان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره يحدثانه»[١].

ولعل القول الفصل في ذلك ما جاء به السيد الحيدري نفسه في الكتاب عينه الذي ننقل عنه، فقد جاء في صفحة ٢٦٣ في معرض بيانه معنى مصحف فاطمة، أنه قال: «وعن كيفية وجود هذا المصحف، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل: (إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة وسبعين يوماً، وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيّب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة)».

هل لاحظت عزيزي القارئ كيف أن السيد قد أتى برواية يثبت فيها أن أخبار السماء قد انقطعت بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله، وفهم منها مطلق الوحي ومطلق الأخبار، ثم يأتي بهذه الرواية التي تثبت لا فقط أن أخبار السماء تأتي إلى فاطمة عليها السلام لا، بل أن الذي يأتي بها جبرئيل أمين الوحي عليه السلام والحقيقة أن هذا تناقض واضح لم نعهده في أعلمية السيد الحيدري، إلاّ اللهم أن الذي أدى إلى ذلك هو الضغط الذي يعيشه في ما يعرفه وما يريد أن يقوله، حفاظاً على عدم الشذ عن الإجماع الذي يدّعيه المسلمون أن لا وحي بعد الرسول مطلقاً، وإلاّ ما معنى هذا التناقض الواضح في كلام السيد الحيدري؟ فهذا جبرئيل يأتي إلى فاطمة عليها السلام بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله مع أنها ليست نبية ويأتيها بأخبار السماء والأرض، والغريب أن يأتي بهذه الرواية بعد أن يثبت أن لا وحي بعد الرسول صلى الله عليه وآله فما معنى هذه الرواية؟ فإن كان يقول إن نزول جبرئيل على فاطمة لا يسمى وحيا، فإنا نقول ما الذي يختلف عن نزوله على مريم عليها السلام؟ وماذا يسمي محادثته مع فاطمة عليها السلام ألا يدعى هذا وحياً؟ وهنا نسأل: هل أن جبرئيل نزل بأمره أم بأمر الله؟ وهل أن الأخبار التي

---

(١) بصائر الدرجات/ ٣٢١، «عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الذي إملاء جبرئيل على علي عليه السلام أقرآن هو؟ قال: لا» بصائر الدرجات/ ١٥٧ وعن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا قال أبو جعفر عليه السلام يعني الأئمة من ولد فاطمة يوحى إليهم بالروح في صدورهم، تأويل الآيات الظاهرة/ ٣٢٣.

أخبر بها فاطمة كانت من عنده أم كانت مرسلة من عند الله؟ فإن قال قائل: إنها من عنده، فإن القرآن ينزه الملائكة عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

إذن جبرئيل كان مرسلاً إلى فاطمة عليها السلام كما كان مرسلاً إلى مريم ولا نبوة في ذلك، وإن كل الذي أخبرها به فما كان مرسلاً به من عند الله، إلاّ أنه ليس وحي نبوة لأنها انقطعت بعد الخاتم صلى الله عليه وآله، وهذا ما نقوله من تحدث الروايات عن نزول الوحي على الإمام (روحي فداه) وهو ليس وحي نبوة إنما هو كهذا الوحي المرسل إلى الزهراء عليها السلام فلم الإصرار على نفي ذلك ومن أين جاء الإجماع الذي يتحدث عنه الشيخ المفيد (رض) أيضاً بأن لا وحي إلا للأنبياء كما سيأتي.

والمحصلة إلى الآن: إن كانوا يقصدون من عدم نزول الوحي على غير الأنبياء لا سيما بعد ختم النبوة نزول جبرئيل وكانوا يقصدون الوحي الذي اصطلحنا عليه (الوحي الإرشادي) والذي قلنا إنه ممكن التحقق للأئمة عليهم السلام فإن هذا خلاف القرآن والسنة، فإن القرآن ثبّت نزوله على مريم والسنة ثبتّت كذلك نزوله على فاطمة وهن من غير الأنبياء!!.

أما إذا كانوا يقصدون من الوحي هو الذي ينزل بصورة مباشرة وبلا واسطة من الله على الموحى إليه، فإن هذا أيضاً ثابت للأئمة عليهم السلام في السنة المعصومية ولا يمنع منه القرآن الذي قال بالوحي إلى الحواريين كما تقدم.

فأما السُنة إضافة إلى ما قدمناه من الروايات تقول: جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

إن الله تعالى جعل الذكر جلاء للقلوب تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد الغشوة وتقاد به بعد المعاندة وشرح الله عزت أسماؤه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات صدور عباد ناجاهم في قلوبهم وكلمهم في ذات عقولهم فأصبحوا بنوره يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة يذكّرون بأيام الله يخوّفون مقامه بمنزلة

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

الأدلة في القلوب فمن أخذ القصد حمدوا إليه الطريق وبشروه بالنجاة ومن أخذ يميناً وشمالاً لزموا إليه الطريق وحذروه من الهلكة كانوا لذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات»[١].

يقول الإمام عليه السلام: «صدور عباد ناجاهم في قلوبهم وكلمهم في ذات عقولهم» أليس هذا هو الوحي بعينه حسب تعريف الفقهاء بل حسب تعريف النسبة الأمامي والحيدري أنفسهم؟ كلمهم في ذات عقولهم، أي أنه كلام خفي وصل مباشر من الله تبارك وتعالى إلى هؤلاء العباد، ودعونا نتذكر كيف دعا الله الوحي إلى البشر لما بيّن طرق حديثه معهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٢] إذن الوحي هو الكلام وكما قال المفسرون إنه الكلام الخفي الذي لا يتوسطه حجاب أو واسطة. وأمير المؤمنين يقر ذلك للعباد، فهل يا ترى يمكن لي أن أضع الإمام المهدي عليه السلام على رأس هؤلاء العباد الذين يناجيهم الله في قلوبهم ويكلمهم في ذات عقولهم، ومن يستحق ذلك غير الإمام لاسيما أن أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى أزمنة الفترات، ولا فترة كالتي نعيشها اليوم في عصر الغيبة.

وعلى هذا لا معنى لقول الشيخ المفيد (رض): «وأقول إن العقل لا يمنع من نزول الوحي إليهم وإن كانوا أئمة غير أنبياء فقد أوحى الله عزوجل إلى أم موسى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٣] فعرفت صحة ذلك بالوحي وعملت عليه و لم تكن نبياً ولا رسولاً ولا إماماً ولكنها كانت من عباد الله الصالحين، وإنما منعت من نزول الوحي عليهم والإيحاء بالأشياء إليهم للإجماع على المنع من ذلك والاتفاق على أنه من يزعم أن أحداً بعد نبينا صلى الله عليه وآله يوحى إليه فقد أخطأ وكفر ولحصول العلم بذلك من دين النبي صلى الله عليه وآله كما أن العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبينا ونسخ شرعه كما نسخ ما قبله

(١) إرشاد القلوب ج١/ ٥٩، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١١/ ١٧٦.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧.

من شرائع الأنبياء، وإنما منع ذلك الإجماع والعلم بأنه خلاف دين النبي ﷺ من جهة اليقين وما يقارب الاضطرار، والإمامية جميعاً على ما ذكرت ليس بينها فيه على ما وصفت خلاف[١].

لاحظ عزيزي القارئ هذا التخبط في كلام الشيخ المفيد (رض) وأنا أعتذر عن كلامي هذا أشد الاعتذار، لكن الذي ألجأني إليه بيان الحقيقة ومناقشة المطلب، انظر أخي القارئ فالشيخ ليست لديه مشكلة في نزول الوحي لغير الأنبياء (عقلاً) مع أنه يورد نص الآية وهي تعد دليلاً نقلياً أيضاً، بيد أنه يعود على الرغم من وضوح الدليل إلى قوله: «وإنما منعت من نزول الوحي عليهم والإيحاء بالأشياء إليهم للإجماع على المنع من ذلك والاتفاق على أنه من يزعم أن أحدا بعد نبينا ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر ولحصول العلم بذلك من دين النبي ﷺ»، ولا أعلم من أين جاء بهذا الإجماع والاتفاق على عدم نزول الوحي بعد النبي مع أن القرآن والسنة الشريفة يقولان بنزول الوحي الإرشادي على غير الأنبياء. وعلى الرغم من ذلك فإن الشيخ المفيد يصر ويمنع حتى الوحي الإرشادي من التحقق بعد النبي ﷺ وذلك رأياً من عنده واجتهادا منه خلافاً للنص.

أما قوله: «كما أن العقل لم يمنع من بعثة نبي بعد نبينا ﷺ ونسخ شرعه كما نسخ ما قبله من شرائع الأنبياء، وإنما منع ذلك الإجماع والعلم بأنه خلاف دين النبي ﷺ»، فهو يبدو كالأجنبي عن الموضوع، فإنه وإن كان العقل لا يمنع من بعثة نبي آخر، إلاّ أننا ما دمنا ثبت عندنا بالدليل القطعي أن لا نبي بعد الخاتم ﷺ فلا مندوحة للعقل مع هذا القطع، وهذا خلاف مسألة الوحي، فلا يوجد ما يدل أن لا وحي غير تشريعي (إرشادي) بعد النبي ﷺ.

(١) الراسخون في العلم/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

ادّعوا الإلهام هروباً من الإقرار بالوحي للأئمة عليهم السلام

قالوا إن الإلهام دون الوحي كما أسلفنا في الصفحات السابقة، وإنه للأولياء ومنهم الأئمة عليهم السلام وهذا على عهدة الكتاب الذي أنقل عنه وهو ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾[1]، على اعتبار أنه يختص في ما يختص بتبيان مصادر علم الإمام عليه السلام وقد قمت بمناقشة مختصرة في الصفحات السابقة، ولكن الذي لفت نظري هو ذلك التخبط الواضح وإصرار العلماء على إبعاد كلمة الوحي من قاموس المسلمين، وأنه لا يمكن أن يوحى لأحد بعد النبي صلى الله عليه وآله، غفلة منهم عن أن الوحي لا ينحصر بالتشريعي فقط وإنما هناك وحي إرشادي أيضاً يمكن أن يتحقق لغير الأنبياء ومنهم الإمام في زماننا الحاضر. فتراهم يفسرون ما يأتي إلى الأئمة من واردات إلهية بالإلهام، حتى وإن دل القرآن الكريم وروايات أخرى على مسألة الوحي إليهم فمن الغريب أن يصر الشيخ المفيد (رض) على هذا الموضوع، ويقول عن الذي دعاه القرآن وحياً، إنه إلهام!، (من غير أن يبيّن لم فسره بالإلهام هنا)، فقد جاء في صفحة (٢٣٤) من الراسخون في العلم وهو ينقل كلام الشيخ المفيد (رض): «قال الله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) يريد به الإلهام الخفي، إذ كان خاصّاً بمن أفرده دون سواه، فكان علمه حاصلاً للنحل بغير كلام جهز به المتكلم فأسمعه غيره». انتهى. فمع أن القرآن يقول أوحى ربك إلى النحل، إلاّ أن الشيخ المفيد يقول إن هذا إلهام، ولا نعلق أكثر على الموضوع.

ومرة يقولون إن الفرق بين الوحي والإلهام هو عدم وضوح الطريقة التي يتم فيها الإلقاء، وإلاّ إن كانت واضحة فهي الوحي، ولعمري لا أدري ماذا أقول عن هذا الكلام الذي لا يليق بالمقامات الرفيعة الثابتة لآل محمد عليهم السلام فهل الذي علم الملائكة التسبيح، تكون الطريقة التي يتلقى فيها الواردات الإلهية غير واضحة بالنسبة إليه؟ وهل الذي بعثه الله هادياً للأمة وسببا بين الأرض والسماء وعين الله

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

الناظرة في خلقه ولسانه الناطق ووجهه الباقي فيهم، يعاني من عدم وضوح الطريقة التي يتلقى فيها العلم (الإلهام) ليس من الله حصراً، لا، ولكن ربما من الملائكة أيضاً الذين هم دونهم رتبة!!.

القذف في القلب هل هو وحي أم إلهام أم كلاهما؟

جاء في الروايات أن من مصادر علومهم، القذف في القلب، أو (النكت في القلب والأسماع)، عن الحرث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هذا العلم الذي يعلمه عالمكم أشيء يلقى في قلبه أو ينكت في أذنه؟ فسكت حتى غفل القوم ثم قال ذاك وذاك[1].

(١) بصائر الدرجات/ ٣١٧. عَنْ عَلِيٍّ السَّابِيِّ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: مَبْلَغُ عِلْمِنَا عَلَى ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ مَاضٍ وَغَابِرٍ وَحَادِثٍ فَأَمَّا الْمَاضِي فَمُفَسَّرٌ وَأَمَّا الْغَابِرُ فَمَزْبُورٌ وَأَمَّا الْحَادِثُ فَقَذْفٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَهُوَ أَفْضَلُ عِلْمِنَا وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا. وعَنِ الْحَارِثِ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ قُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ عِلْمِ عَالِمِكُمْ قَالَ وِرَاثَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص وَمِنْ عَلِيٍّ ع قَالَ قُلْتُ إِنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ يُقْذَفُ فِي قُلُوبِكُمْ وَيُنْكَتُ فِي آذَانِكُمْ قَالَ أَوْ ذَاكَ. وعن عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ ع رُوِّينَا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع أَنَّهُ قَالَ إِنَّ عِلْمَنَا غَابِرٌ وَمَزْبُورٌ وَنَكْتٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ فَقَالَ أَمَّا الْغَابِرُ فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِنَا وَأَمَّا الْمَزْبُورُ فَمَا يَأْتِينَا وَأَمَّا النَّكْتُ فِي الْقُلُوبِ فَإِلْهَامٌ وَأَمَّا النَّقْرُ فِي الْأَسْمَاعِ فَأَمْرُ الْمَلَكِ. الكافي ج١/ ٢٦٤. لاحظ عزيزي القارئ وتذكر أن الله يقول في محكم كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. أفلا تدل الفقرة الأخيرة في الآية على المطلب، وألا يكون هذا الرسول ملكا من قبل الله إلى الموحى إليه؟ وهاهو الإمام يقول: الذي يحدثنا ملك، والملك لا ينزل من نفسه، فيكون وحيا، بيد انه ليس وحيا نبويا أي تشريعيا، وهذا معنى قول الإمام (سلام الله عليه): (وأَمَّا الْحَادِثُ فَقَذْفٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَهُوَ أَفْضَلُ عِلْمِنَا وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا)، أي أنه يقول الذي يحدثنا ملك والذي يأتينا وحي إلا أنه ليس وحيا نبويا تشريعيا لأن الشريعة تمت على يد صاحبها، بل هو وحي كوحي أم موسى وقد تكرر هذا القول منهم مرارا. والمصادر التي تحدثت عن النكت والنقر، أي حديث الملائكة كثيرة، ومنها: الإرشاد ج٢/ ١٨٦ و إعلام الورى/ ٢٨٤ والخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي ج٢/ ٨٩٤.

وعن يزيد بن إسحاق عن أبي حمزة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن منا لمن ينكت في قلبه وإن منا لمن يؤتى في منامه وإن منا لمن يسمع الصوت مثل صوت السلسلة في الطشت وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرئيل وميكائيل.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: منا من ينكت في قلبه ومنا من يقذف في قلبه ومنا من يخاطب، وقال أيضاً: إن منا لمن يعاين معاينة وإن منا لمن ينقر في قلبه كيت كيت وإن منا لمن يسمع كما يقع السلسلة في الطشت، قال قلت: والذي يعاينون ما هو، قال خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلت كيف يزاد الإمام فقال منا من ينكت في أذنه نكتاً ومنا من يقذف في قلبه قذفا ومنا من يخاطب»[2].

إذن واحدة من مصادر علم الإمام هي القذف في القلب، فما هو القذف في القلب؟ فلندع الرواية التالية تجيب عن هذا التساؤل.

وفي حديث طويل عن علي عليه السلام يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات: فأما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[3] ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، وليس بكائن إلا من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، كذلك قال الله تبارك وتعالى علواً كبيراً، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء، فتبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه من غير أن يرسل الكلام مع رسل أهل السماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل هل رأيت ربك؟ فقال جبرئيل: إن ربي لا يُرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أين تأخذ الوحي؟ فقال: آخذه من إسرافيل، فقال: ومن أين يأخذه إسرافيل؟ قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ قال: يُقذف في قلبه قذفاً، فهذا وحي وهو كلام الله عزوجل وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلم الله به الرسل، ومنه ما قذفه في قلوبهم، ومنه رؤيا يراها الرسل، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ فهو كلام الله، فاكتف

(١) بحار الأنوار ج٢٦/ ١٩.
(٢) بصائر الدرجات/ ٢٣١.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٥١.

بما وصفت لك من كلام الله، فإن معنى كلام الله ليس بنحو واحد، فإن منه ما تبلغ به رسل السماء رسل الأرض[١].

هذه الرواية توضح بما لا يقبل الشك أن القذف في القلب هو واحد من معاني أو طرق الوحي، قال: (يقذف في قلبه قذفا فهذا وحي وهو كلام الله عزوجل).

ولعل خير ما نختم به هذا المطلب هذه الرواية:

عن الحارث بن المغيرة النضري قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما علم عالمكم، جملة يقذف في قلبه أو ينكت في أذنه، قال: فقال: وحي كوحي أم موسى[٢].

والمعنى أن الإمام عليه السلام أجمل للسائل في الجواب، فإن القذف والنقر، هما من جملة طرق كلام الله تبارك وتعالى مع البشر، وسماه الله وحياً في الآية التي ابتدأ بها الموضوع. والقذف في القلب هو الطريقة الأولى في الآية والنقر أو النكت في الأذن الذي هو كلام الملك، وهو آخر الطرق في الآية الشريفة.

---

(١) تفسير نور الثقلين ج٤، عَنْ عَلِيٍّ السَّائِيِّ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: قَالَ: مَبْلَغُ عِلْمِنَا عَلَى ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ مَاضٍ وَغَابِرٍ وَحَادِثٍ فَأَمَّا الْمَاضِي فَمُفَسَّرٌ وَأَمَّا الْغَابِرُ فَمَزْبُورٌ وَأَمَّا الْحَادِثُ فَقَذْفٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَهُوَ أَفْضَلُ عِلْمِنَا وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا. دروس في علم الإمام السيد كمال الحيدري/ ١٨٧.

(٢) بصائر الدرجات/ ٣١٧.

معنى الإلهام

الآن أصبح لزاماً علينا أن نبين ما معنى الإلهام؟ ولماذا جنح إليه العلماء الأجلاء في آرائهم وأبحاثهم عن مصادر علوم الأئمة عليهم السلام وحصروا ذلك به وابتعدوا عن لفظة الوحي القرآنية!! لعلنا نتذكر أن من معاني الوحي كما فسره ابن منظور هو (الإلهام)، وأرجعه الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل إلى أصله اللغوي فقال: «(ألهمها) من الإلهام، وهو في الأصل بمعنى البلع والشرب، ثمّ استعمل في إلقاء الشيء في روع الإنسان من قبل الله تعالى، وكأن الإنسان يبتلع ذلك الشيء ويتشرّبه بجميع وجوده»[١].

وروي عن محمد بن يوسف قال: أخبرني أبي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت: «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم» قال: «إلهام»[٢].

كما جاء أيضاً في تفسير قوله: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً»، قال: وحي مشافهة ووحي إلهام، وهو الذي يقع في القلب، أو من وراء حجاب، «كما كلم الله نبيه صلى الله عليه وآله، وكما كلم الله موسى من النار»[٣].

وأيضا أورد الفيض الكاشاني في تفسيره هذا المعنى:

«وأوحى ربك إلى النحل ألهمها وقذف في قلوبها، فإن صنعتها الأنيقة ولطفها في تدبير أمرها ودقيق نظرها شواهد بينة على أن الله سبحانه وتعالى أودعها علما بذلك. القمي قال: وحي إلهام. والعياشي عن الباقر عليه السلام مثله»[٤].

---

(١) الأمثل ج٢٠/ ٢٣٥.
(٢) تفسير العياشي ج٢/ ٥٠.
(٣) بحار الأنوار ج ١١/ ٢٧.
(٤) الصافي ج٣/ ١٤٤، تفسير القمي ج٢/ ٢٧٩.

النتيجة التي نخلص لها من خلال ما روى المفسرون الأجلاء وكذا المعنى اللغوي للإلهام، هي: أنه عبارة عن الوحي من دون واسطة، وهو النوع الأول من أنواع الوحي التي بينتها الآية المتقدمة، وهذا واضح من خلال تأكيدهم على أن الوحي للنحل هو الإلهام، فإذا ما أردنا إرجاع قولهم إلى القرآن الكريم فلابد لنا من القول بهذا المعنى، وإلاّ فإن كلامهم سيكون بمعزل عما يقوله القرآن، وبمعونة اللغة يكون الإلهام هو التلقي من دون واسطة، بالإضافة إلى استحواذ ذلك الإلقاء على كل قوى النفس وخلجاتها، بحيث تطمئن به واليه، وكأن كل خلية من خلايا ذلك الإنسان معنية به مشربة به.

وعليه فلا معنى لما قاله السيد حيدر الآملي من أن: «الوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء، وكما أن النفس دون العقل، والولي دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي فهو ضعيف بنسبة الوحي، قوي بنسبة الرؤيا»، لأنه كما تبين من أقوال العلماء والمفسرين لا سيما المعنى الذي أورده الشيخ مكارم الشيرازي (أعزه الله)، وكما هو واضح من خلال استخدام الأئمة عليهم السلام لكلمة الإلهام، أنه على درجة عالية من الوضوح بحيث يستولي على كل قوى النفس وتتشرب به كل جوانحه فضلاً عن جوارحه، فكيف يكون أضعف من الوحي؟! لا سيما إن كان المتلقي له أرفع درجة من الأنبياء كما هو مسلّم به للأئمة عليهم السلام عند شيعتهم ومواليهم ومن يعرف قدرهم في القرآن الكريم.

والنتيجة: إن إلهام الأئمة عليهم السلام إنما هو وحي من دون واسطة، وهو أعلى درجات التكليم كما قال السيد الطباطبائي في الميزان: «أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ»[1].

ونؤكد أنه ليس وحياً تشريعياً فإن الشريعة كاملة، إنما هو وحي إرشادي تسديدي كالوحي إلى أم موسى كما بين الإمام عليه السلام.

ولعلي أستطيع أن ألتمس لعلمائنا الأجلاء عذراً، يتمثل بالحرص على بعض

(١) الميزان ج١٦.

المسلمين من أنهم قد لا يفهمون ذلك، وبالتالي لا يستطيعون التفريق بين أنواع الوحي، لذا خففوا لهم المسألة بالجنوح نحو الإلهام للتفريق بينه وبين الوحي الذي حصروه بالتشريعي، وهو من مختصات الأنبياء كما نقر نحن بذلك أيضاً، وكذا لغلق الباب الذي قد يلج منه مدعو النبوة أو الإمامة الكذابون، وسد الطريق أمام قولهم بنزول الوحي عليهم، وأيضا لأن بعض الروايات استخدمت في تعبيراتها لفظة الإلهام بدلاً من الوحي.

وأقول: نحن نشكر لهم هذا الحرص على المسلمين إن كانت هذه نيتهم، إلاّ أننا نشكل عليهم بأنهم ليسوا أحرص عليهم من القرآن الذي أسس لهذه المضامين وأراد للناس أن يعوها وأن يسترشدوا بها.

والقول الثاني: يمكن أن يكون هذا مبلغ علمهم وما توصلوا إليه، ولم يفطنوا إلى ما هو واضح في القرآن الكريم والروايات الشريفة، على الرغم من أن كلامهم أنفسهم حول معنى الإلهام في تفاسيرهم ينسجم مع المعنى الروائي والقرآني، ومع ذلك لم يقولوا بالوحي واختاروا أن الإلهام غيره!.

وأخيرا نورد كلاماً للشيخ جوادي آملي (دامت بركاته) بشأن المسألة يقول فيه: «فمن قام واستقام لله تتنزل عليه الملائكة وتبشره بالولاية الطاردة للخوف والحزن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، فمن استمر على الاستقامة يمكن أن يشاهد المبشرات من الملائكة ويراهم، كما أنه يسمع كلامهم، إذ الذي يختص بالرسول هو ما يرجع إلى خصوص التشريع، وأما ما يرجع إلى التسديد ونحوه فلا»[2].

وهذه الخاتمة من هذا العالم والعارف الجليل تقطع دابر الشك الذي قد يحوم حول المسألة، لأن الشيخ يقر بهذا لمن هم دون أئمة أهل البيت عليهم السلام بدرجات ودرجات، على اعتبار أن الآية الكريمة مطلقة بمدلولها، مشترطةً الاستقامة على

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) أسرار الصلاة آية الله الشيخ جوادي آملي/ ٥٨ - ٥٩.

تحقق نزول الملائكة والبشارة، فكيف إن كان المقصود بهذه الآية هم الأئمة أولاً، باعتبارهم أشرف المصاديق وأرفعها شأناً.

روح القدس

عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمِ الْإِمَامِ بِمَا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ مُرْخًى عَلَيْهِ سِتْرُهُ فَقَالَ يَا مُفَضَّلُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ فِي النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ، رُوحَ الْحَيَاةِ فَبِهِ دَبَّ وَدَرَجَ، وَرُوحَ الْقُوَّةِ فَبِهِ نَهَضَ وَجَاهَدَ، وَرُوحَ الشَّهْوَةِ فَبِهِ أَكَلَ وَشَرِبَ وَأَتَى النِّسَاءَ مِنَ الْحَلَالِ، وَرُوحَ الْإِيمَانِ فَبِهِ آمَنَ وَعَدَلَ، وَرُوحَ الْقُدْسِ فَبِهِ حَمَلَ النُّبُوَّةَ، فَإِذَا قُبِضَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله انْتَقَلَ رُوحُ الْقُدْسِ فَصَارَ إِلَى الْإِمَامِ، وَرُوحُ الْقُدُسِ لَا يَنَامُ وَلَا يَغْفُلُ وَلَا يَلْهُو وَلَا يَزْهُو، وَالْأَرْبَعَةُ الْأَرْوَاحِ تَنَامُ وَتَغْفُلُ وَتَزْهُو وَتَلْهُو وَرُوحُ الْقُدُسِ كَانَ يَرَى بِهِ[١].

ويبين السيد الحيدري حقيقة هذه الروح بقوله: «هو قوة قدسية فيه، (أي النبي أو الإمام) كواحدة من قواه، تمنحه العلم والفهم، وتعصمه من الضلال في العلم والعمل والسلوك»[٢].

ويقول أيضاً في بيانه لحقيقة هذه الروح القدسية: «ورد التعبير في بعضها (أي الروايات) [وإنه لفينا]، أو [جُعل في الأنبياء خمسة أرواح]، وما إلى ذلك، فهي تشير إلى حقيقة روح القدس وأنه خلق من خلق الله تعالى كحقيقة العقل وحقيقة العلم ونحوهما، فهما مخلوقان مستقلان، وفي الوقت نفسه يمثلان قوة من قوى النفس[٣].

ومن كانت فيه هذه القوة النفسانية القدسية هل يحتاج إلى تجارب الآخرين للتعلم منها؟!

---

(١) الكافي ج١/ ٢٧٢، بصائر الدرجات/ ٤٤٧ و٤٥٤.
(٢) الراسخون في العلم/ ٢٤٩.
(٣) الراسخون في العلم/ ٢٤٩.

العلم اللدني

هو المصدر الثالث من مصادر علم الإمام كما قسمها السيد الحيدري (دام ظله) ويقول عنه «فالعلم اللدني هو العلم النازل من عنده تعالى، والذي ليس فيه صنع للأسباب العادية كالحس والفكر، حتى يحصل من طريق الاكتساب، وهو من أبرز مصاديق العلم الحضوري، وهو ناتج عن طرق متعددة أعلاها مرتبة الوصول لمرحلة الاطلاع على حقائق الأشياء دفعة واحدة، وأقلها القذف في القلب أو النكت في الأذن، وهذا العلم فيض رباني مختص بأولياء الله تعالى.

ويمكن تحصيل هذا النوع من العلوم اللدنية عن طريق الرياضات والمجاهدات الروحية المأمور بها شرعاً، وعلى لسان أئمة أهل البيت عليهم السلام حتى تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة، فإذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس الكلي الذي هو اللوح المحفوظ، فيظهر فيها أسرار المكنونات، وينتقش فيها معاني تلك المكونات، فيصير المتحلي بها حكيماً، والحكمة أثر من العلم اللدني، فما لم تبلغ النفس هذه المرتبة لا تكون حكيمة، لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

وأولو الألباب هم الواصلون إلى مرتبة العلم اللدني، المستغنون عن التحصيل وتعب التعليم، فيتعلمون قليلاً ويعلّمون كثيراً[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) الراسخون في العلم/ ٢٥٧.

التعليم والوراثة من النبي ﷺ

عن سليم بن قيس عن أمير المؤمنين عليه السلام قال كنت إذا سألت رسول الله ﷺ أجابني وإن فنيت مسائلي ابتدأني فما نزلت عليه آية في ليل ولا نهار ولا سماء ولا أرض لا دنيا ولا آخرة ولا جنة ولا نار ولا سهل ولا جبل ولا ضياء ولا ظلمة إلا أقرأنيها وأملاها علي وكتبتها بيدي وعلمني تأويلها وتفسيرها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها وكيف نزلت وأين نزلت وفيمن أنزلت إلى يوم القيامة دعا الله لي أن يعطيني فهماً وحفظاً فما نسيت آية من كتاب الله ولا على من أنزلت إلا أملاه علي[١].

وكل هذه العلوم وصلت لأئمة أهل البيت كما في هذه الرواية:

عن محمد بن علي الباقر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام اكتب ما أملي عليك. قال يا نبي الله أتخاف علي النسيان قال لست أخاف عليك النسيان، وقد دعوت الله لك يحفظك ولا ينسيك، ولكن اكتب لشركائك. قلت ومن شركائي يا نبي الله قال الأئمة من ولدك، بهم تسقى أمتي الغيث، وبهم يستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عنهم البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وأومأ إلى الحسن عليه السلام وقال هذا أولهم، وأومأ إلى الحسين عليه السلام وقال الأئمة من ولده[٢]. وفي رواية أن كل ما لرسول الله ﷺ فهو لهم إلا النبوة والأزواج.

الصحيفة

عن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: إن عندنا صحيفة من كتب علي طولها سبعون ذراعاً فنحن نتبع ما فيها لا نعدوها وسألته عن ميراث العلم ما بلغ

(١) الراسخون في العلم/ ٢٥٧.
(٢) م ن./ ٢٦٠.

أجوامع هو من العلم أم فيه تفسير كل شيّء من هذه الأمور التي تتكلم فيه الناس مثل الطلاق والفرائض فقال إن علياً كتب العلم كله، القضاء والفرائض، فلو ظهر أمرنا لم يكن شيّء إلا فيه نمضيها[١].

وفي رواية أخرى عَنْ بَكْرِ بْنِ كَرِبٍ الصَّيْرَفِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ إِنَّ عِنْدَنَا مَا لَا نَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى النَّاسِ وَإِنَّ النَّاسَ لَيَحْتَاجُونَ إِلَيْنَا وَإِنَّ عِنْدَنَا كِتَاباً إِمْلَاءُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَخَطُّ عَلِيٍّ عليه السلام صَحِيفَةً فِيهَا كُلُّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَّا بِالْأَمْرِ فَنَعْرِفُ إِذَا أَخَذْتُمْ بِهِ وَنَعْرِفُ إِذَا تَرَكْتُمُوه[٢].

الجامعة

عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام يا أبا محمد إن عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة قال قلت جعلت فداك وما الجامعة قال صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله إملاء من فلق فيه وخطه علي عليه السلام بيمينه فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخدش.

وينوه السيد الحيدري بهذا الموضوع بقوله، قد يتوهم البعض أن الصحيفة هي نفس الجامعة، ولكن الروايات ذكرت الصحيفة بلفظ مستقل عن الجامعة، وهذا

(١) الراسخون في العلم/ ٢٦٠.

(٢) الكافي ج١/ ٢٤٢. بصائر الدرجات/ ١٤٢وبحار الأنوار ج٨٩/ ٤١ المضمون نفسه والرواية التالية تعطي مزيد بيان عن المطلب... فقال له عليّ عليه السلام يا طلحة إنّ كلّ آية أنزلها الله جلّ وعلا على محمّد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ يدي، وتأويل كلّ آية أنزلها الله على محمّد صلى الله عليه وآله، وكلّ حلال وحرام أو حدّ أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمّة إلى يوم القيامة عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ يدي حتّى أرش الخدش. فقال طلحة كلّ شيء من صغير أو كبير أو خاصّ أو عام أو كان أو يكون إلى يوم القيامة فهو عندك مكتوب. قال نعم، وسوى ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ إليّ في مرضه مفتاح ألف باب من العلم يفتح كلّ باب ألف باب، ولو أنّ الأمّة منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله اتّبعوني وأطاعوني لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.. بحار الأنوار ج٣١/ ٤٢٥.

يعني أن الصحيفة غير الجامعة التي هي اسم للكتاب الذي أملى فيه رسول الله ﷺ الأحكام على الإمام علي عليه السلام [١].

الجفر

عن الإمام الصادق عليه السلام «. . . ثُمَّ قَالَ وَإِنَّ عِنْدَنَا الْجَفْرَ وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا الْجَفْرُ قَالَ قُلْتُ وَمَا الْجَفْرُ قَالَ وِعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ فِيهِ عِلْمُ النَّبِيِّينَ وَالْوَصِيِّينَ وَعِلْمُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. .»[٢].

وعن الصادق عليه السلام . . . وأما الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله ﷺ ولن يخرج حتى يقوم قائمنا أهل البيت وأما الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأولى[٣].

مصحف فاطمة عليها السلام

وهو ليس بقرآن آخر في مقابل كتاب الله العزيز، بل كما ذكرت الروايات ليس فيه قرآن. والظاهر أن فيه أخبار الحوادث والمستقبل.

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ له. . . إلى أن قال عليه السلام : وَإِنَّ عِنْدَنَا لَمُصْحَفَ فَاطِمَةَ عليها السلام وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ، قَالَ قُلْتُ وَمَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ قَالَ مُصْحَفٌ فِيهِ مِثْلُ قُرْآنِكُمْ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَاللَّهِ مَا فِيهِ

(١) الراسخون في العلم/ ٢٦٢.
(٢) الكافي ج١/ ٢٤٠. تأويل الآيات الظاهرة/ ١٠٩ وتفسير كنز الدقائق للميرزا محمد المشهدي ج١/ ٢١ ودراسات في الحديث والمحدثين هاشم معروف الحسني/ ٣٠١.
(٣) الإرشاد للمفيد ج٢/ ١٨٦، معجم أحاديث الإمام المهدي ج٣/ ٣٨٩ والخرائج والجرائح ج٢/ ٨٩٤ وروضة الواعظين ج١/ ٢١١ وكشف الغمة ج٢/ ١٧٠.

مِنْ قُرْآنِكُمْ حَرْفٌ وَاحِدٌ قَالَ قُلْتُ هٰذَا وَاللّٰهِ الْعِلْمُ قَالَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَمَا هُوَ بِذَاكَ[١].

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام «... وأما مصحف فاطمة عليها السلام ففيه ما يكون من حادث وأسماء من يملك إلى أن تقوم الساعة...»[٢].

وفي كيفية وجود هذا المصحف ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: إِنَّ فَاطِمَةَ عليها السلام مَكَثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللّٰهِ صلى الله عليه وآله خَمْسَةً وَسَبْعِينَ يَوْماً وَكَانَ دَخَلَهَا حُزْنٌ شَدِيدٌ عَلَى أَبِيهَا وَكَانَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام يَأْتِيهَا فَيُحْسِنُ عَزَاءَهَا عَلَى أَبِيهَا وَيُطَيِّبُ نَفْسَهَا وَيُخْبِرُهَا عَنْ أَبِيهَا وَمَكَانِهِ وَيُخْبِرُهَا بِمَا يَكُونُ بَعْدَهَا فِي ذُرِّيَّتِهَا وَكَانَ عَلِيٌّ عليه السلام يَكْتُبُ ذٰلِكَ فَهٰذَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ[٣].

وبهذا نكون قد انتهينا من بيان مصادر علم الإمام المعصوم عليه السلام.

وتبين أنه ومع هذا الكم الواسع من العلم، لا يحتاج إلى تجارب الآخرين، بل أنه لا يحتاج إلى أي أحد، وهذه من أبرز ميزات المعصوم أنه مستغن عن الكل بمقابل احتياج الكل إليه. فما بالك باحتياجه لتجارب العلم الدنيوي المشوب بالنقص والظنون.

الإمام خليفة الله في أرضه

جاء في زيارة آل يس ما نصه،: «السلام عليك يا خليفة الله وناصر حقه»، كما ورد في الدعاء المروي عن الرضا عليه السلام «اللهم ادفع عن وليك وخليفتك وحجتك على خلقك...»[٤].

(١) الكافي ج١/ ٢٣٩.
(٢) بحار الأنوار ج٢٦/ ١٨، الاحتجاج ج٢/ ٣٧٢، الإرشاد ج٢/ ١٨٦، إعلام الورى/ ٢٨٥، الخرائج والجرائح ج٢/ ٨٩٤، روضة الواعظين ج١/ ٢١١، كشف الغمة ج٢/ ١٧٠.
(٣) الراسخون في العلم/ ٢٦٣.
(٤) مفاتيح الجنان/ ٦٢٩.

ما معنى أن يكون الإنسان خليفة لله؟

لعل خير ما نختم به هذا الفصل هو الحديث عن المقام الذي ينبغي لكل موال لأئمة أهل البيت عليهم السلام معرفته والتصديق به.

ينقل السيد العلامة كمال الحيدري (أعزه الله) في كتابه التوحيد ج٢ عن هذا الموضوع ما نصه «الخلافة وهي قيام شيء مقام آخر لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤونه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف»، ويبين: ما يفيده النص أن هذا الموجود الذي عُهد إليه بالخلافة لا يصح أن يكون خليفة من الوجهتين العرفية والعقلائية إلاّ إذا حاكى المستخلف في شؤونه بالمقدار الممكن، وإلاّ لم يتحقق الغرض الذي من أجله وضع هذا خليفة لذاك.

فالغاية من الاستخلاف أن ينهض المستخلَف مقام المستخلف في الشؤون التي ينجزها المستخلف وشاء أن يعهد بها إلى خليفته، هذا هو معنى الخليفة، وبه يتضح مفهوم الخلافة[١]. ثم يقول: على ضوء اتضاح مفهوم الخلافة وعمن يؤدي الإنسان دوره في الخلافة على الأرض، تحتم أن يكون ثمّ ضرب من السنخية بين هذا الخليفة والمستخلف، بتعبير آخر: لمّا كان الله (جل جلاله) متوفراً على الأسماء الحسنى كلها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]، وله الصفات العليا بأجمعها، فلابد أن يكون الخليفة المرتقب حاكيا من استخلفه في صفاته وأعماله، وأن يكون متخلقاً بأخلاق الله، لا يريد إلاّ ما أراده ولا يفعل إلاّ ما ارتضاه، وحسب القرآن الكريم يلزم أن يكون مصداقاً لقوله: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٣][٤].

ويكتب السيد الحيدري في الهامش بياناً لما تقدم، «يمكن تقريب هذه الصفة

---

(١) التوحيد السيد كمال الحيدري ج٢/ ٣٩٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٤) التوحيد السيد كمال الحيدري ج٢/ ٤٠٠.

للخليفة من النص الرواني، فحيث حمل بعض مظهرية النبي وأهل البيت للاسم الأعظم على التفويض، جاءت النصوص الروائية تنفي هذا الأمر نفياً قاطعاً وتستنكره، وتؤكد أن المشيئة لله أولاً وآخراً. ففي نص عن الإمام (الحسن العسكري عليه السلام) قال: (كذبوا [يقصد المفوضة] بل قلوبنا أوعية لمشية الله فإذا شاء شئنا والله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ...﴾[1] وهذا تعبير عن ضروب المسانخة بين المستخلِف وخليفته بحيث يحاكي الثاني الأول، فالخليفة لا يريد إلا ما يريده الله ولا يفعل إلاّ ما ارتضاه.

انطلاقاً من هذه النقطة وتأسيساً عليها نطل على الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الفريقين التي تنص بأن الله (سبحانه) يرضى لرضا فاطمة (سلام الله عليها) ويغضب لغضبها، ذلك أن رضاها وغضبها هما رضا الله وغضبه، ورضا رسوله وغضبه، ففي الحديث النبوي الشريف أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد فاطمة وقال من جملة حديث: «من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله». وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله عز وجل ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها...» إلى أن يقول السيد الحيدري: يعزى هذا الترابط الوثيق بين رضا فاطمة وغضبها ورضا الله (جل جلاله) وغضبه، إلى أن الزهراء صارت لا تريد إلاّ ما يريده الله ولا تغضب إلا لما يغضب الله وهو ما يدل عن المسانخة والمحاكاة بين المستخلِف وخليفته[2].

وينقل السيد الحيدري عن العلامة الآلوسي في تجسيد معنى هذه الخلافة التي تسنّمها الموجود الأرضي ولم يقو الملائكة الكرام على النهوض بها، (ويفهم من كلام القوم قدس الله تعالى أسرارهم، أن المراد من الآية بيان الحكمة من الخلافة على أدق وجه وأكمله، فكأنه قال (جل شأنه): أريد الظهور بأسمائي وصفاتي، ولم يكمل ذلك بخلقكم [أي الملائكة] فإني أعلم ما لا تعلمونه لقصور استعدادكم ونقصان قابليتكم، فلا تصلحون لظهور جميع الصفات والأسماء فيكم، فلا تتم بكم معرفتي ولا يظهر عليكم كنزي، فلا بد من إظهار من تمّ استعداده، وكملت قابليته ليكون مجلىً لي ومرآة لأسمائي وصفاتي، ومظهراً للمتقابلات فيّ، ومظهراً لما خفي عندي، وبي يسمع وبي يبصر)[3].

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) التوحيد للحيدري ج٢/ ٤٠٠ - ٤٠١.

(٣) التوحيد للحيدري ج٢/ ٤٠٢.

ولهذا المعنى الإشارة في الزيارة الجامعة «من أراد الله بدأ بكم» أو كما في هذه الرواية حيث يقرن الإمام معرفة الله بمعرفتهم: «عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله أنا سيد من خلق الله عزوجل وأنا خير من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش وجميع ملائكة الله المقربين وأنبياء الله المرسلين وأنا صاحب الشفاعة والحوض الشريف وأنا وعلي أبوا هذه الأمة من عرفنا فقد عرف الله عزوجل ومن أنكرنا فقد أنكر الله عزوجل ومن علي سبطا أمتي وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين ومن ولد الحسين تسعة أئمة طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي تاسعهم قائمهم ومهديهم[١].

ثم يبين السيد الحيدري (دامت بركاته) أن هذه الخلافة هي خلافة أسمائية وتعني أن الأسماء الحسنى والصفات العليا لله تبارك وتعالى قد تحققت فيهم وظهرت بهم، فكانوا عليهم السلام مرآة تعكس هذه الأسماء، وله الإشارة بقولهم عليهم السلام نحن الأسماء الحسنى.

ومن ثم يتحدث السيد الحيدري عن سعة دائرة هذا الخليفة فيقول: «أما من حيث القرائن المضمونية فإن المشهد القرآني يفيد بأن هذا الخليفة تعلّم الأسماء كلها وليس تلك المختصة بالحياة الأرضية وحدها، فاستحق أن يكون مسجود الملائكة كلهم وليس بعضهم دون آخر، ومن ثم فهو يخلف رب العالمين في عالم الإمكان، ويكون واسطة بينه وبين جميع مخلوقاته ولا اختصاص له بالأرض وحدها، لكن غاية ما هناك أن لهذا الخليفة بُعداً أو حيثية أرضية، أو بُعداً بشرياً بحسب التعبير القرآني»[٢].

ولعل العبارة التي نقرأها في دعاء الندبة «أين السبب المتصل بين الأرض والسماء» تشير إلى هذا المعنى.

ومن ثم يعرج العلامة الحيدري على تبيان الواسطة التي يتلقى بها هذا الخليفة أوامره من الله تبارك وتعالى بل حتى علمه النازل إليه، فيقول: «إن موقع الخلافة... هو سنخ مقام لا تتخلله واسطة بين الله والخليفة، بخلاف النبوة والرسالة. ولما كان مقام الخلافة هنا يتساوق مع الإمامة بل يساويه، فقد جاء

(١) كمال الدين ج١/ ٢٦١.
(٢) توحيد الحيدري ج٢/ ٤١٦.

المضمون الروائي يؤكد حقيقة عدم وجود الواسطة بين الله والخليفة أو بين الله (جل جلاله) والإمام، فمن ذلك ما عن صالح بن سهل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: (كنت جالساً عنده فقال لي ابتداءً منه: يا صالح بن سهل إن الله جعل بينه وبين الرسول رسولاً ولم يجعل بينه وبين الإمام رسولاً، قال: قلت، وكيف ذاك؟ قال: جعل بينه وبين الإمام عموداً من نور ينظر الله به إلى الإمام وينظر الإمام به إليه، فإذا أراد علم شيء نظر في ذلك النور فعرفه[1].

تنويه

إن من غير الصحيح الظن أن السيد يقول بجواز رؤية الله تعالى رؤية بصرية، وإنما يمكن أن تكون هذه رؤية قلبية، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب السائل هل رأيت ربك؟ «فَقَالَ وَيْلَكَ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ قَالَ وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ قَالَ وَيْلَكَ لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ فِي مُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ[2].

أو لعله (العمود) سنخ مقام من المقامات النورانية التي لا يعرف حقيقتها إلاّ هم (سلام الله عليهم)، فلا يخفى عليك أن العمود هو ما يقام به الشيء، كما ورد في فضل الصلاة بأنها عمود الدين، أي أن هذا العمود هو المرتبة التي بها يتقوم وجود الإمام وقربه من الله تبارك وتعالى، وبعبارة أخرى انه مرتبة أو مقام ينظر الله تبارك وتعالى من خلاله إلى عبده (الإمام)، كما ينظر الإمام من خلاله أيضاً إلى ربه وبارئه، أي يتم التعامل ما بين الله تبارك وتعالى وبين الإمام من خلال (عمود النور) والذي قد يعني الدرجة التي وصل إليها عبده الذي نصبه إماماً للخلق، يعني أن الله ينظر إلى الإمام بعين الرحمة والرأفة واللطف التي يستحقها من وصل إلى ذلك المقام النوراني، ويمده بالعلم بمقدار معرفته بربه وطاعته له، أما من جهة الإمام فإنه ينظر إلى ربه من خلال تلك المعرفة النورانية (العمود) التي أحاطت بكل ما خلق الله، والمعرفة بالرب جل وعلا تتضمن في طياتها العلم والإحاطة بكل ما في العالم الإمكاني.

(١) توحيد الحيدري ج٢/ ٤٢٠.
(٢) الكافي ج١/ ٩٨.

أشارت هذه الرواية لما كنا قلناه في الصفحات السابقة بشأن الوحي للأئمة المعصومين عليهم السلام كما أثبتنا. فالإمام يقول هنا بانعدام الواسطة بين الإمام وبين الله تبارك وتعالى، وهذا هو الوحي الذي تكلمنا عنه وهو النوع الأول من أنواع تكلم الله تبارك وتعالى مع البشر، والمعبر عنه قرآنياً (إلاّ وحياً).

وتعد هذه نبذة مختصرة أردنا أن نوضح من خلالها أن الإمام (عج) وآباءه الكرام البررة عليهم السلام لا يقلون علماً عن الأنبياء عليهم السلام بل وكما قدمناه من روايات وكلام علماء الإسلام أنهم يفوقونهم علماً ودرجات، وبهذا نكون قد أوضحنا لمن قد تكون النظرية التي طرحها السيد محمد باقر الصدر (رض) ألبست عليه الأمور، ونقول: أن الإمام يوحى إليه (وحياً تسديدياً إرشادياً، كالوحي إلى أم موسى والحواريين ومريم عليهم السلام)، وأن مصادر علمه أوسع من مصادر علم الأنبياء عليهم السلام.

وعليه فلا مجال للتساؤل عن مدى جاهزية الإمام (روحي فداه) للنهوض بأعباء الثورة الكبرى وأنه يحتاج إلى زخم نفسي أو فكري أو خبرة ميدانية، تنزه عن ذلك، وأنه في حجاب عن تعليم السماء لأنه ليس نبياً، وبالتالي فهو يحتاج لخبرات أهل الأرض!!.

هكذا يجب أن نعرف الإمام عليه السلام

من البديهي أن المبعوث لهداية الناس يكون الباعث له هو الأشد معرفة به، لاسيما إذا كان الباعث هو الله تبارك وتعالى، ولهذا فإننا إذا أردنا أن نتوصل إلى معرفة الإمام معرفة تطمئن لها قلوبنا بعيداً عن الإفراط في مقاماتهم الشريفة أو التفريط بها، يجب أن نسلك المحجة الوسطى وأن نعرفهم بما عرّفهم الله به أولاً ورسوله ثانياً، وبما عرّفوا به أنفسهم ثالثاً.

الله يصف الإمام

وقال الشيخ في وصف زيارته عليه السلام كما ينقلها من الكتب المعتبرة، قف على

باب حرمه الشريف وقل: «السلام عليك يا خليفة الله وخليفة آبائه المهديين السلام عليك يا وصي الأوصياء الماضين السلام عليك يا حافظ أسرار رب العالمين السلام عليك يا بقية الله من الصفوة المنتجبين السلام عليك يا ابن الأنوار الزاهرة السلام عليك يا ابن الأعلام الباهرة السلام عليك يا ابن العترة الطاهرة السلام عليك يا معدن العلوم النبوية السلام عليك يا باب الله الذي لا يؤتى إلا منه السلام عليك يا سبيل الله الذي من سلك غيره هلك السلام عليك يا ناظر شجرة طوبى وسدرة المنتهى السلام عليك يا نور الله الذي لا يطفى السلام عليك يا حجة الله التي لا تخفى السلام عليك يا حجة الله على من في الأرض والسماء السلام عليك سلام من عرفك بما عرّفك به الله ونعتك ببعض نعوتك التي أنت أهلها وفوقها»[1].

هكذا وصف الله تبارك وتعالى وليه وحجته على خلقه، لأن أئمة أهل البيت عليهم السلام الواردة منهم هذه الزيارة، أحالوا الأوصاف والنعوت إلى الله تبارك وتعالى، بالقول: «السلام عليك سلام من عرفك بما عرّفك به الله ونعتك ببعض نعوتك التي أنت أهلها وفوقها»، ولعل النكتة اللطيفة هنا في القول أن هذه النعوت هي التي يمكن أن تقال وإلاّ فالمسكوت عنه أكثر بكثير، ولعله من نوع الأحاديث الصعبة المستصعبة. وسنأخذ كمثال فقط هذا الجزء الذي يصف الإمام بأنه باب الله. فما معنى: السلام عليك يا باب الله الذي لا يؤتى إلاّ منه؟.

الجواب: سنجيب جواباً علمياً كما هو دأب هذا الكتاب، بيد أني أطلب من القراء الكرام مسامحتي على محاولة تفسير هذه العبارة بكلمات بسيطة لا ترقى لما تحمله في طياتها من عمق.

الباب: هو المدخل[2].

وإليه الإشارة في الزيارة الجامعة «من أراد الله بدأ بكم»، على اعتبار أن لا أحد يستطيع الدخول إلى البيت إلاّ عن طريق الباب.

إذن هم المدخل إلى الله، والمعنى: أن ما من أحد يستطيع الدخول إلى حرم الله وساحته القدسية إلاّ من خلالهم وعبرهم، هذا أولاً، والأمر الآخر الذي نستفيده

(١) مفاتيح الجنان/ ٦١٤.

(٢) تفسير التبيان/ الطوسي ج٢.

من هذا المركب، هو أن ما من شيء يخرج من البيت إلاّ عن طريق الباب، وكذا في الساحة الربوبية فإن ما من شيء يخرج إلاّ من خلال الإمام، والذي يحاول أن يتجاوز الباب فهو إمّا سارق أو معتد.

ولهذا المعنى أشار القرآن الكريم والوارد من المعصومين عليهم السلام قال تعالى: ﴿... وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

نفى الله تبارك وتعالى أن يكون باراً من يأتي البيوت من ظهورها، وقرن التقوى بمن يأتي البيوت من أبوابها، وبالتالي الوصول إلى الفلاح المنشود.

علينا أن نفهم إذن أن باب الله هو المدخل إليه سبحانه، وهو محل نزول الفيوضات إلى الخلق، إذ ما من شيء يخرج من ساحته المقدسة إلا عن طريق بابه، وكذا لا شيء يصعد إليه إلاّ عبره أيضاً.

وبعبارة أخرى، إن هذا المعنى يفسر لنا الأحاديث الكثيرة التي وردت في كتب الفريقين وقيدت النجاة بالتمسك بحبلهم أو الركوب في سفينتهم، كما في الحديث المشهور في كتب المسانيد والصحاح: «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ[وآله] وَسَلَّمَ: إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي أَلَا وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[٢].

وعن حنش الكناني قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول: وهو آخذ بباب الكعبة من عرفني فأنا من عرفني، ومن أنكرني فأنا أبو ذر سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»[٣].

وورد أيضاً في دعاء الندبة: «أين السبب المتصل بين الأرض والسماء»، وكأن هناك وحدة معنى في الحبل الذي من خلاله يتم الصعود إلى الله تبارك وتعالى، وكذا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٢) مسند أحمد ج٢٣/ح١١١٣٥.
(٣) المستدرك على الصحيحين للنيسابوري ج١١/ح ٤٧٠٣.

فإنه طريق نزول الفيض منه عزّوجلّ، والسبب المتصل بين الأرض والسماء، فإنه يؤدي نفس الغرض، وكذلك باب الله الذي نحن بصدده الآن.

باب الله ونظرية الفيض

لمّا خلق الله الإنسان وأراد أن يوصله إلى سعادة الأبد (كما جاء عنهم عليهم السلام)، كان لابد من وسيلة اتصال ما بين الله وخلقه بغية إيصالهم للمطلوب، ولما لم تكن هناك قدرة لدى الإنسان العادي القابليات على استلام الفيض من الله تبارك وتعالى، لذا احتيج إلى من له تلك المقدرة على الاستقبال ومن ثم الإيصال إلى الناس وقيادتهم نحو الهدف الإلهي. ولا يخفى عليك أن الحمل ثقيل. ومما لا تتحمله الجبال الشامخات، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. وكذا قوله عزّوجلّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . .﴾[2].

ونجد هذا المعنى أيضاً في خطاب الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم محمد صلّى الله عليه وآله، فمع شدة العظمة التي يرفل بها الرسول الكريم. إلاّ أن الله يطلب منه العمل أكثر على تهيئة نفسه لاستلام المقبل من أوامر السماء وفيوضاتها. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[3].

وفي معرض شرحه لهذه النظرية، يقول السيد كمال الحيدري (دامت بركاته): «ملخص الجواب في هذه النظرية أنه لا يسع أي موجود في نطاق عالم الإمكان أن يأخذ الفيض من الله مباشرة، لقصور في قابلية القابل (الإنسان) وليس لعجز في فاعلية الفاعل (الله)، على هذا فإن الله (جلت قدرته) لا يعطي الملائكة الفيض

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٣) سورة المزمل، الآيات: ١ - ٥.

مباشرة وإنما يتم ذلك بتوسط آدم الذي تعلم الأسماء من الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾[١]، لأنه ليس بمقدور الملائكة أخذ الفيض مباشرة، يمكن تقريب الأطروحة بعملية تحويل الطاقة الكهربائية من طاقم التوليد الأصلي إلى الأطقمة الفرعية في البيوت، فإنتاج الطاقة يتم عبر مركز الإنتاج الأساسي، ثم تتحول إلى المدينة عبر محولة ضخمة هي التي تتسلم الطاقة، ثم يصار لدخولها إلى البيوت عبر محولات أصغر هي التي تتسلم الطاقة وتوزعها على كل بيتٍ بيت، البيت في هذا المثال لا يتسلم الطاقة الكهربائية مباشرة عن مركز التوليد أو من المحول الرئيسي، لافتقاده إلى مثل هذه القابلية، وإنما يتسلمها عبر محولات صغيرة، ومن الواضح أن العجز في المثال ليس في الطاقة ذاتها بل في الموقع الاستلامي الذي يمثله البيت.

ثم يقول: تبنى هذه الأطروحة في تفسير وجود الخليفة في نظام التكوين عدد من الفلاسفة والمفسرين، فممن فسر وجود الخلافة وديمومتها على أساس نظرية الفيض من المفسرين، السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت: ١٢٧٠هـ)، حين كتب يقول في تفسير آية الخلافة من سورة البقرة: «ومعنى كونه خليفة أنه خليفة الله تعالى في أرضه، وكذا كل نبي استخلفهم في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم لا لحاجة به تعالى، ولكن لقصور المستخلف عليه لما أنه في غاية الكدورة والظلمة الجسمانية، وذاته تعالى في غاية التقدس، والمناسبة شرط في قبول الفيض على ما جرت به العادة الإلهية، فلا بد من متوسط ذي جهتي تجرّد وتعلّق ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى».

وفي شرحه لما قاله الآلوسي، وهو مفسر من (مدرسة الصحابة) يقول السيد الحيدري: (المناسبة) في النص هي التي يعبر عنها الحكماء ب (السنخية) على حين يعبّر القرآن بـ (الشاكلة) كما في قوله (سبحانه): ﴿كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[٢]، كما أن فيه إشارة واضحة إلى أن الخليفة موجود ذو بعدين، بأحدهما «التجرد» يسانخ الله (جل جلاله) فيأخذ منه، وبالآخر «التعلق» يعطي للآخرين ويفيض عليهم، وبُعد التعلّق الذي يفيض من خلاله هو البعد البشري الذي دأبت الآيات على تأكيده في

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٤.

مثل قوله (سبحانه): ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[١]، وذلك في مقابل البُعد القدسي التجرّدي الذي بلغ به ما بلغ، كما في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[٢].

ثم يبين السيد الحيدري أن القول بهذه النظرية لا يقتصر على الأقدمين فقط وإنما كانت محل اعتقاد حتى المتأخرين ومنهم الشيخ مهدي الأشتياني الذي يستشهد السيد الحيدري بواحدة من إفاداته بخصوص هذا الموضوع، فيقول: (ممن أشار إلى هذه الحقيقة من الحكماء المعاصرين الشيخ مهدي مدرس الأشتياني (١٣٠٦-١٣٧٢هـ)، وهو يكتب: «لما ثبت في العلوم الحقيقية من لزوم المناسبة والسنخية بين الفاعل والقابل في الإفادة والاستفادة، وأخذ الفضائل والفواضل، وفي إفاضة الوجود وكمالاته الأولية الثانوية، وعدم تحقق المناسبة والسنخية بين المبدأ الأعلى الذي هو فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى في التقدس والتجرد والتنزه والمجد والبهاء، وبين المنغمرين في ظلمات الهوى والمنغمسين في غسق المادة ووسخ الهيولي، وأنه لا بد في الاستفادة منه تعالى من واسطة تكون برزخاً بين الحضرتين وفائزاً بالحسنتين، ومجلى المشرقين وبالغاً إلى كمال المجد والشرف والعُلى، حتى يستفيد من جهة جمعه وتجرده وأمريته من المبدأ الأعلى، ويفيض من جهة خلقه وفرقه على من هو دونه من موجودات النشأة السفلى».

ويعلق السيد الحيدري في ختام الكلام عن النظرية بقوله: «هكذا تنتهي أطروحة نظرية الفيض التي يتبناها الخط العرفاني وطائفة من الفلاسفة إلى أن موجودات عالم الإمكان بحاجة إلى وجود يكون واسطة بينها وبين المبدأ الأعلى، بينها وبين الله (سبحانه) في أخذ الفيض لعجزها عن أخذه مباشرة، بحكم عدم المسانخة في ما بينها وبين المبدأ الأعلى. والخليفة أو الإنسان الكامل هو الواسطة بين الله وخلقه من جهة أمريته وروحه وباطنه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[٣]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾[٤]، وهذا لا ينافي أن يأخذ الفيض من جهة بشريته ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣١.

قَلْبِكَ . . .﴾[١]، على هذا تتبيّن أن أرضية هذا الخليفة تعني أنه موجود أرضي له بُعد بشري يؤهله النهوض بدوره في العالم، لا أن دائرة خلافته مختصة بنطاق الأرض وحدها[٢].

لاحظ عزيزي القارئ ما يقوله هؤلاء العرفاء سنة وشيعة بحق خليفة الله في أرضه، وأنه نقطة الفيض الإلهي باتجاه الخلق، وأنهم يتوسعون بدائرة خلافته بسعة دائرة الأسماء الإلهية الحسنى، لأنه مرآة لها ومجلى لها، لاحظ إلى أين يرتفعون بخليفة الله، وإلى أين ننزل به نحن بنقاشنا هل أنه جاهز لحكم العالم أم لا؟!! هو قطب دائرة الإمكان وهو الإنسان الكامل الذي بهديه يتكامل الإنسان، ونحن نناقش هل أنه (حاشاه) مستعد نفسياً لمواجهة هذه الحضارة (الزائفة) الفاسدة؟!!.

ثم أعد قراءة ما قاله السيد الحيدري (أعلى الله مقامه) في السطرين الأخيرين: «على هذا تتبيّن أن أرضية هذا الخليفة تعني أنه موجود أرضي له بُعد بشري يؤهله النهوض بدوره في العالم»، يعني أن جهة البشرية تؤهله للنهوض بدوره الذي بعث من أجله في قيادة الخلق نحو الكمال، وبعبارة أخرى، أن له جهة ملكوتية تتعدى هذا الوجود وقانونه، فهو في احد جوانبه يسير وحده في ذلك العالم الذي لا يعلم كنهه إلاّ هو، وأن جهة بشريته هي التي يواجهنا ويعلمنا ويهدينا بإذن الله بها وإلاّ فإن كمالاته تدور خارج فلكنا وأفقنا، وحسبنا هذا الرواية لنعرف عن أي موجود نتحدث، عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: يا طارق الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله. . . مفزع العباد في الدواهي والحاكم والآمر والناهي مهيمن الله على الخلائق وأمينه على الحقائق حجة الله على عباده ومحجته في أرضه وبلاده مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب مطلع على الغيوب ظاهره أمر لا يملك وباطنه غيب لا يدرك»[٣]. فهل يكون مهيمن الله على الخلائق محتاجاً لها للتعلم منها؟ أو يكون أمين الله على الحقائق، وأية حقائق؟! الله وحده يعلم كنهها وعن أي شيء هي، هل يكون هذا الموجود بحاجة إلى زخم نفسي لمواجهة (حضارة موهومة زائفة) وصفها الله تبارك وتعالى بكتابه الكريم ببيت

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.
(٢) توحيد الحيدري ج٢/ ٤٢٩ - ٤٣٢.
(٣) بحار الأنوار ج٢٥/ ١٧١.

العنكبوت. وكيف يكون مبرأ من العيوب بنص أمير المؤمنين عليه السلام ونحن ننسب إليه النقص، وأنه بحاجة إلى زخم فكري ونفسي للمواجهة، أو لا يُعد هذا قدحاً وعيباً بالإمام (حاشاه)؟ حتى وإن كان المغزى إفهام البعض من الناس، فكان لا بد من إيصال الفكرة لهم بشكل لا يقدح بالإمام (أرواحنا وأرواح العالمين له الفداء).

ملاحظة أخيرة

الذي لاحظ قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ظاهره أمر لا يملك وباطنه غيب لا يدرك»، يدرك أن كل الكلام والبحث والجدال الذي يثار حولهم عليهم السلام لا يتعدى ظاهر أمرهم (وهو مما لم تتم الإحاطة به)، أما الباطن فلا مجال لإدراكه. هكذا يجب أن نعرف الإمام عليه السلام وإلا ما معنى قوله في الزيارة الآنفة: «السلام عليك سلام من عرفك بما عرّفك به الله ونعتك ببعض نعوتك التي أنت أهلها وفوقها»، وهذه العبارة تأتي بعد ذكر المقامات الرفيعة التي لا يدرك معناها وحقيقتها إلا ذو حظ عظيم، ومع ذلك فإن للإمام فوق هذه المعاني ولم يتم تبيانها وجرى السكوت عنها رفقا بالأمة من الفتنة والتحير. وسأنزل الرواية بتمامها تحت عنوان أمير المؤمنين عليه السلام يصف الإمام.

تنويه

لا يخفى على القارئ اللبيب أننا حينما نقول الإمام نعني به المقام لا الشخص، لذلك فإنهم كلهم عليهم السلام مشمولون بالوصف إلاّ ما خرج بخصوصية أحدهم وسننبه عليه أيضاً.

رسول الله ﷺ يصف الإمام

عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ ما خلق الله عزوجل خلقا أفضل مني ولا أكرم عليه مني قال علي عليه السلام فقلت يا رسول الله فأنت أفضل أو جبرئيل فقال ﷺ يا علي إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من بعدك وإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا يا علي ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾[1] بولايتنا يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسبيحه وتهليله وتقديسه لأن أول ما خلق الله عزوجل خلق أرواحنا فأنطقنا بتوحيده وتحميده ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نورا واحدا استعظموا أمرنا فسبحنا لتعلم الملائكة أنا خلق مخلوقون وأنه منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا فلما شاهدوا عظم شأننا هللنا لتعلم الملائكة أن لا إله إلا الله وأنا عبيد ولسنا بآلهة يجب أن نعبد معه أو دونه فقالوا لا إله إلا الله فلما شاهدوا كبر محلنا كبرنا لتعلم الملائكة أن الله أكبر من أن ينال عظم المحل إلا به فلما شاهدوا ما جعله لنا من العزة والقوة قلنا لا حول ولا قوة إلا بالله لتعلم الملائكة أن لا حول لنا ولا قوة إلا بالله فلما شاهدوا ما أنعم الله به علينا وأوجبه لنا من فرض الطاعة قلنا الحمد لله لتعلم الملائكة ما يحق لله تعالى ذكره علينا من الحمد على نعمته فقالت الملائكة الحمد لله فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده ثم إن الله تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لنا وإكراما وكان سجودهم لله عزوجل عبودية ولآدم إكراما وطاعة لكوننا في صلبه فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون وإنه لما عرج بي إلى السماء أذن جبرئيل مثنى مثنى وأقام مثنى

---

(١) سورة غافر، الآية: ٧.

مثنى ثم قال لي تقدم يا محمد فقلت له يا جبرئيل أتقدم عليك فقال نعم لأن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه على ملائكته أجمعين وفضلك خاصة فتقدمت فصليت بهم ولا فخر فلما انتهيت إلى حجب النور قال لي جبرئيل تقدم يا محمد وتخلف عني فقلت يا جبرئيل في مثل هذا الموضع تفارقني فقال يا محمد إن انتهاء حدي الذي وضعني الله عزوجل فيه إلى هذا المكان فإن تجاوزته احترقت أجنحتي بتعدي حدود ربي جل جلاله فزخ بي في النور زخة حتى انتهيت إلى حيث ما شاء الله من علو ملكه فنوديت يا محمد فقلت لبيك ربي وسعديك تباركت وتعاليت فنوديت يا محمد أنت عبدي وأنا ربك فإياي فاعبد وعلي فتوكل فإنك نوري في عبادي ورسولي إلى خلقي وحجتي على بريتي لك ولمن اتبعك خلقت جنتي ولمن خالفك خلقت ناري ولأوصيائك أوجبت كرامتي ولشيعتهم أوجبت ثوابي فقلت يا رب ومن أوصيائي فنوديت يا محمد أوصياؤك المكتوبون على ساق عرشي فنظرت وأنا بين يدي ربي جل جلاله إلى ساق العرش فرأيت اثني عشر نورا في كل نور سطر أخضر عليه اسم وصي من أوصيائي أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم مهدي أمتي فقلت يا رب هؤلاء أوصيائي من بعدي فنوديت يا محمد هؤلاء أوليائي وأوصيائي وأصفيائي وحججي بعدك على بريتي وهم أوصياؤك وخلفاؤك وخير خلقي بعدك وعزتي وجلالي لأظهرن بهم ديني ولأعلين بهم كلمتي ولأطهرن الأرض بآخرهم من أعدائي ولأمكنه مشارق الأرض ومغاربها ولأسخرن له الرياح ولأذللن له السحاب الصعاب ولأرقينه في الأسباب فلأنصرنه بجندي ولأمدنه بملائكتي حتى تعلو دعوتي وتجمع الخلق على توحيدي ثم لأديمن ملكه ولأداولن الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة[1].

لاحظ عزيزي القارئ كيف أن بأنوارهم ونور جدهم (عليه وعليهم صلوات الله وسلامه) اهتدى الملائكة إلى معرفة ربهم عزوجل، ولاحظ أيضاً الخصوصية التي يعطيها الله تبارك وتعالى للقائم منهم من خلال التمكين الذي سيهبه إياه.

(١) كمال الدين ج١/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

أمير المؤمنين عليه السلام يصف الإمام

عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: يا طارق الإمام كلمة الله وحجة الله ووجه الله ونور الله وحجاب الله وآية الله يختاره الله ويجعل فيه ما يشاء ويوجب له بذلك الطاعة والولاية على جميع خلقه فهو وليه في سماواته وأرضه أخذ له بذلك العهد على جميع عباده فمن تقدم عليه كفر بالله من فوق عرشه فهو يفعل ما يشاء وإذا شاء الله شاء ويكتب على عضده ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[1] فهو الصدق والعدل وينصب له عمود من نور من الأرض إلى السماء يرى فيه أعمال العباد ويلبس الهيبة وعلم الضمير ويطلع على الغيب ويرى ما بين المشرق والمغرب فلا يخفى عليه شيء من عالم الملك والملكوت ويعطى منطق الطير عند ولايته فهذا الذي يختاره الله لوحيه ويرتضيه لغيبه ويؤيده بكلمته ويلقنه حكمته ويجعل قلبه مكان مشيته وينادي له بالسلطنة ويذعن له بالإمرة ويحكم له بالطاعة وذلك لأن الإمامة ميراث الأنبياء ومنزلة الأصفياء وخلافة الله وخلافة رسل الله فهي عصمة وولاية وسلطنة وهداية وإنه نمام الدين ورجح الموازين الإمام دليل للقاصدين ومنار للمهتدين وسبيل السالكين وشمس مشرقة في قلوب العارفين ولايته سبب للنجاة وطاعته مفترضة في الحياة وعدة بعد الممات وعز المؤمنين وشفاعة المذنبين ونجاة المحبين وفوز التابعين لأنها رأس الإسلام وكمال الإيمان ومعرفة الحدود والأحكام وتبيين الحلال من الحرام فهي مرتبة لا ينالها إلا من اختاره الله وقدمه وولاه وحكمه فالولاية هي حفظ الثغور وتدبير الأمور وتعديد الأيام والشهور الإمام الماء العذب على الظمأ والدال على الهدى الإمام المطهر من الذنوب المطلع على الغيوب الإمام هو الشمس الطالعة على العباد بالأنوار فلا تناله الأيدي والأبصار... فالإمام هو السراج الوهاج والسبيل والمنهاج والماء الثجاج والبحر العجاج والبدر المشرق والغدير المغدق والمنهج الواضح المسالك والدليل إذا عمت المهالك والسحاب

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

الهاطل والغيث الهامل والبدر الكامل والدليل الفاضل والسماء الظليلة والنعمة الجليلة والبحر الذي لا ينزف والشرف الذي لا يوصف والعين الغزيرة والروضة المطيرة والزهر الأريج والبدر البهيج والنير اللائح والطيب الفائح والعمل الصالح والمتجر الرابح والمنهج الواضح والطيب الرفيق والأب الشفيق مفزع العباد في الدواهي والحاكم والآمر والناهي مهيمن الله على الخلائق وأمينه على الحقائق حجة الله على عباده ومحجته في أرضه وبلاده مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب مطلع على الغيوب ظاهره أمر لا يملك وباطنه غيب لا يدرك واحد دهره وخليفة الله في نهيه وأمره لا يوجد له مثيل ولا يقوم له بديل فمن ذا ينال معرفتنا أو يعرف درجتنا أو يشهد كرامتنا أو يدرك منزلتنا حارت الألباب والعقول وتاهت الأفهام في ما أقول تصاغرت العظماء وتقاصرت العلماء وكلت الشعراء وخرست البلغاء ولكنت الخطباء وعجزت الفصحاء وتواضعت الأرض والسماء عن وصف شأن الأولياء وهل يعرف أو يوصف أو يعلم أو يفهم أو يدرك أو يملك من هو شعاع جلال الكبرياء وشرف الأرض والسماء جل مقام آل محمد ﷺ عن وصف الواصفين ونعت الناعتين وأن يقاس بهم أحد من العالمين كيف وهم الكلمة العلياء والتسمية البيضاء والوحدانية الكبرى التي أعرض عنها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾[1] وحجاب الله الأعظم الأعلى فأين الاختيار من هذا وأين العقول من هذا ومن ذا عرف أو وصف من وصفت ظنوا أن ذلك في غير آل محمد كذبوا وزلت أقدامهم اتخذوا العجل ربا والشياطين حزبا كل ذلك بغضة لبيت الصفوة ودار العصمة وحسدا لمعدن الرسالة والحكمة ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[2] فتبا لهم وسحقا كيف اختاروا إماما جاهلا عابدا للأصنام جبانا يوم الزحام والإمام يجب أن يكون عالما لا يجهل وشجاعا لا ينكل لا يعلو عليه حسب ولا يدانيه نسب فهو في الذروة من قريش والشرف من هاشم والبقية من إبراهيم والنهج من النبع الكريم والنفس من الرسول والرضى من الله والقول عن الله فهو شرف الأشراف والفرع من عبد مناف عالم بالسياسة قائم بالرئاسة مفترض الطاعة إلى يوم الساعة أودع الله قلبه سره وأطلق به لسانه فهو معصوم موفق ليس بجبان ولا جاهل فتركوه يا طارق ﴿يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ

(١) سورة المعارج، الآية: ١٧.
(٢) سورة النمل، الآية: ٢٤.

هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[١] والإمام يا طارق بشر ملكي وجسد سماوي وأمر إلهي وروح قدسي ومقام علي ونور جلي وسر خفي فهو ملك الذات إلهي الصفات زائد الحسنات عالم بالمغيبات خصا من رب العالمين ونصا من الصادق الأمين وهذا كله لآل محمد لا يشاركهم فيه مشارك لأنهم معدن التنزيل ومعنى التأويل وخاصة الرب الجليل ومهبط الأمين جبرئيل صفوة الله وسره وكلمته شجرة النبوة ومعدن الصفوة عين المقالة ومنتهى الدلالة ومحكم الرسالة ونور الجلالة جنب الله ووديعته وموضع كلمة الله ومفتاح حكمته ومصابيح رحمة الله وينابيع نعمته السبيل إلى الله والسلسبيل والقسطاس المستقيم والمنهاج القويم والذكر الحكيم والوجه الكريم والنور القديم أهل التشريف والتقويم والتقديم والتعظيم والتفضيل خلفاء النبي الكريم وأبناء الرؤوف الرحيم وأمناء العلي العظيم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢] السنام الأعظم والطريق الأقوم من عرفهم وأخذ عنهم فهو منهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[٣] خلقهم الله من نور عظمته وولاهم أمر مملكته فهم سر الله المخزون وأولياؤه المقربون وأمره بين الكاف والنون إلى الله يدعون وعنه يقولون: ﴿بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٤] علم الأنبياء في علمهم وسر الأوصياء في سرهم وعز الأولياء في عزهم كالقطرة في البحر والذرة في القفر والسماوات والأرض عند الإمام كيده من راحته يعرف ظاهرها من باطنها ويعلم برها من فاجرها ورطبها ويابسها لأن الله علم نبيه علم ما كان وما يكون وورث ذلك السر المصون الأوصياء المنتجبون ومن أنكر ذلك فهو شقي ملعون يلعنه الله ويلعنه اللاعنون وكيف يفرض الله على عباده طاعة من يحجب عنه ملكوت السماوات والأرض وإن الكلمة من آل محمد تنصرف إلى سبعين وجها وكل ما في الذكر الحكيم والكتاب الكريم والكلام القديم من آية تذكر فيها العين والوجه واليد والجنب فالمراد منها الولي لأنه جنب الله ووجه الله يعني حق الله وعلم الله وعين الله ويد الله فهم الجنب العلي والوجه الرضي والمنهل الروي والصراط السوي والوسيلة إلى الله والوصلة إلى عفوه ورضاه سر الواحد والأحد فلا يقاس بهم من الخلق أحد فهم خاصة الله وخالصته وسر الديان وكلمته

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٤
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٧.

وباب الإيمان وكعبته وحجة الله ومحجته وأعلام الهدى ورايته وفضل الله ورحمته وعين اليقين وحقيقته وصراط الحق وعصمته ومبدأ الوجود وغايته وقدرة الرب ومشيته وأم الكتاب وخاتمته وفصل الخطاب ودلالته وخزنة الوحي وحفظته وآية الذكر وتراجمته ومعدن التنزيل ونهايته فهم الكواكب العلوية والأنوار العلوية المشرقة من شمس العصبة الناشئة في سماء العظمة المحمدية والأغصان النبوية النابتة في دوحة الأحمديه والأسرار الإلهية المودعة في الهياكل البشرية والذرية الزكية والعترة الهاشمية الهادية المهدية ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[1] فهم الأئمة الطاهرون والعترة المعصومون والذرية الأكرمون والخلفاء الراشدون والكبراء الصديقون والأوصياء المنتجبون والأسباط المرضيون والهداة المهديون والغر الميامين من آل طه وياسين وحجج الله على الأولين والآخرين اسمهم مكتوب على الأحجار وعلى أوراق الأشجار وعلى أجنحة الأطيار وعلى أبواب الجنة والنار وعلى العرش والأفلاك وعلى أجنحة الأملاك وعلى حجب الجلال وسرادقات العز والجمال وباسمهم تسبح الأطيار وتستغفر لشيعتهم الحيتان في لجج البحار وإن الله لم يخلق أحداً إلا وأخذ عليه الإقرار بالوحدانية والولاية للذرية الزكية والبراءة من أعدائهم وإن العرش لم يستقر حتى كتب عليه بالنور لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله»[2].

الإمام الحسين وولده زين العابدين عليهما السلام يصفان الإمام

ومما جاء عن الإمامين الحسين والسجاد عليهما السلام [كما في إقبال الأعمال والصحيفة السجادية، التي ورد فيها النص نفسه، ويروى عنهما جميعاً] في وصف الإمام والدعاء له، وطلب رضاه مما يحفز العقول ويثيرها للبحث في شخصية صاحب هذا المقام السامي، فمع أن سيد شباب أهل الجنة الذي يطمح الكل في أن يكونوا محل عنايته ودعائه، إلاّ أنا نراه يرغب في أن يدعو له الإمام وأن يكون متحننا رؤوفا به وأن يكون سامعاً مطيعاً له وكذا ولده زين العابدين! مع أن في هذه

(١) سورة البينة، الآية: ٧.

(٢) بحار الأنوار ج٢٥/ ١٧٠ - ١٧٤.

الفقرات معاني تربوية لكيفية التعامل مع الإمام المعصوم، إلاّ أني أقطع أن الإمام الحسين كان راغباً حقاً بدعاء الإمام له، وكان حقاً لا مجازاً في قوله: (وهب لنا رأفته ورحمته وتعطفه وتحننه واجعلنا له سامعين مطيعين وفي رضاه ساعين) وذلك ببساطة لكون الإمام عليه السلام يعلم أن رضاه رضا الله، ورأفته رأفة الله، وطاعته طاعة لله، لأن الإمام محل مشيئة الله ومرآة عن غضبه ورضاه، (إن الله ليرضى لرضا فاطمة وليغضب لغضبها) لأنها دليل إرادة الله، كما في زيارة آل يس «السلام عليك يا حجة الله ودليل إرادته».

يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة على نسخة الإقبال، والإمام السجاد عليه السلام في نسخة الصحيفة السجادية في عرفة أيضاً، ما نصه: «اللّهُمَّ إنَّكَ أيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أوَانٍ بِإمَامٍ أقَمْتَهُ عَلَماً لِعِبَادِكَ، وَمَنَاراً فِي بِلَادِكَ بَعْدَ أنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ إلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَذَّرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِامْتِثَالِ أوَامِرِهِ، وَالِانْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَأَلَّا يَتَقَدَّمَهُ مُتَقَدِّمٌ، وَلَا يَتَأَخَّرَ عَنْهُ مُتَأَخِّرٌ فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبَهَاءُ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ فَأَوْزِعْ لِوَلِيِّكَ شُكْرَ مَا أنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَوْزِعْنَا مِثْلَهُ فِيهِ، وَآتِهِ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً، وَافْتَحْ لَهُ فَتْحاً يَسِيراً، وَأَعِنْهُ بِرُكْنِكَ الْأَعَزِّ، وَاشْدُدْ أزْرَهُ، وَقَوِّ عَضُدَهُ، وَرَاعِهِ بِعَيْنِكَ، وَاحْمِهِ بِحِفْظِكَ وَانْصُرْهُ بِمَلَائِكَتِكَ، وَامْدُدْهُ بِجُنْدِكَ الْأَغْلَبِ. وَأَقِمْ بِهِ كِتَابَكَ وَحُدُودَكَ وَشَرَائِعَكَ وَسُنَنَ رَسُولِكَ، صَلَوَاتُكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأَحْيِ بِهِ مَا أمَاتَهُ الظَّالِمُونَ مِنْ مَعَالِمِ دِينِكَ، وَاجْلُ بِهِ صَدَاءَ الْجَوْرِ عَنْ طَرِيقَتِكَ، وَأَبِنْ بِهِ الضَّرَّاءَ مِنْ سَبِيلِكَ، وَأَزِلْ بِهِ النَّاكِبِينَ عَنْ صِرَاطِكَ، وَامْحَقْ بِهِ بُغَاةَ قَصْدِكَ عِوَجاً وَأَلِنْ جَانِبَهُ لِأَوْلِيَائِكَ، وَابْسُطْ يَدَهُ عَلَى أعْدَائِكَ، وَهَبْ لَنَا رَأْفَتَهُ، وَرَحْمَتَهُ وَتَعَطُّفَهُ وَتَحَنُّنَهُ، وَاجْعَلْنَا لَهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَفِي رِضَاهُ سَاعِينَ، وَإلَى نُصْرَتِهِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهُ مُكْنِفِينَ، وَإلَيْكَ وَإلَى رَسُولِكَ صَلَوَاتُكَ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ مُتَقَرِّبِينَ. اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى أوْلِيَائِهِمُ الْمُعْتَرِفِينَ بِمَقَامِهِمُ، الْمُتَّبِعِينَ مَنْهَجَهُمُ، الْمُقْتَفِينَ آثَارَهُمُ، الْمُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَتِهِمُ، الْمُتَمَسِّكِينَ بِوَلَايَتِهِمُ، الْمُؤْتَمِّينَ بِإمَامَتِهِمُ، الْمُسَلِّمِينَ لِأَمْرِهِمُ، الْمُجْتَهِدِينَ فِي طَاعَتِهِمُ، الْمُنْتَظِرِينَ أيَّامَهُمُ، الْمَادِّينَ إلَيْهِمْ أعْيُنَهُمُ، الصَّلَوَاتِ الْمُبَارَكَاتِ الزَّاكِيَاتِ النَّامِيَاتِ الْغَادِيَاتِ الرَّائِحَاتِ. وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أرْوَاحِهِمْ، وَاجْمَعْ عَلَى

التَّقْوَى أَمْرَهُمْ، وَأَصْلِحْ لَهُمْ شُئُونَهُمْ، وَتُبْ عَلَيْهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَخَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَاجْعَلْنَا مَعَهُمْ فِي دَارِ السَّلَامِ بِرَحْمَتِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[١].

لاحظ أخي العزيز كيف يدعو (سيد شباب أهل الجنة وزين السموات والأرض كما جاء عن جدهم ﷺ وكذا ولده السجاد عليه السلام للمؤمنين بهم وبمقاماتهم التي رتبهم الله فيها، والتابعين لهم، المنتظرين لأيامهم، ويرجوان من الله أن يجعلهما معهم، وذلك لبيان فضلهم وسمو منزلتهم، فطوبى لهم ثم طوبى لهم.

الإمام الباقر عليه السلام يتمنى نصرة الإمام (عجل الله فرجه)

عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه ثم يطلبونه فلا يعطونه فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا إلى صاحبكم قتلاهم شهداء أما إني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر[٢].

لاحظ عزيزي القارئ مع أن الإمام عليه السلام يصف قتلى أهل المشرق بالشهداء، والشهداء من أفضل سعداء أهل الجنة منزلاً، إلاّ أنه يختار معيته مع الإمام المنتظر ويفضل ذلك على الجنة، لعظيم معرفته به وشدة حبه له.

الإمام الصادق عليه السلام يتمنى خدمته (روحي فداه)

عن خلاد بن الصفار قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام هل ولد القائم عليه السلام فقال: لا ولو أدركته لخدمته أيام حياتي[٣].

---

(١) إقبال الأعمال/ ٣٥٣، الصحيفة السجادية/ دعاؤه في يوم عرفة.

(٢) الغيبة للنعماني/ ٢٧٣.

(٣) م ن/ ٢٤٥، وظيفة الأنام في زمن غيبة الإمام الميرزا محمد تقي الأصفهاني ج٢/ ٧.

وهذا الإمام الصادق عليه السلام الذي حير الأولين والآخرين بسعة علمه وعظيم حكمته، هذا الإمام الذي يصفه الله تبارك وتعالى لنبيه عليه السلام كما في هذه الرواية: عن الحسين بن علي عليه السلام قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن يقول.. فركب الله عز وجل في صلبه نطفة مباركة زكية وأخبرني عليه السلام أن الله تبارك وتعالى طيب هذه النطفة وسماها عنده جعفرا وجعله هادياً مهدياً وراضياً مرضياً يدعو ربه فيقول في دعائه يا دان غير متوان يا أرحم الراحمين اجعل لشيعتي من النار وقاء ولهم عندك رضا واغفر ذنوبهم ويسر أمورهم واقض ديونهم واستر عوراتهم وهب لهم الكبائر التي بينك وبينهم يا من لا يخاف الضيم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1] اجعل لي من كل غم فرجا، من دعا بهذا الدعاء حشره الله عز وجل أبيض الوجه مع جعفر بن محمد إلى الجنة[2].

هذا الإمام الذي هذه صفته يتمنى أن يكون خادماً للحجة ابن الحسن (أرواحنا فداه) أيام حياته!! فكيف لنا، نحن القاصرين، وبأي لسان نخاطبه عليه السلام؟ فإن كان الصادق عليه السلام يتمنى خدمته، فما الذي بقي لنا نحن المساكين؟!!.

الخلاصة

وخلاصة هذا الفصل أن الإمام (عجل الله فرجه الشريف) أعظم وأكمل من أن يكون هو سبب تأخر الفرج عن شيعته والبشرية جمعاء، وأن دائرته تامة بالكمالات التي تفيض بالخير على من طهر وعاؤه وهو السبب المتصل بين الأرض والسما وأنه أجل وأعظم من أن يحتاج إلى زخم نفسي أو استعداد فكري، كما ثبت وبحم الله أنه مسدد بالوحي الإلهي الإرشادي لا التشريعي.

إذن لا إشكال في جاهزيته لقيادة العالم نحو الكمال والسعادة التي أرادها الله تبارك وتعالى لعبده الإنسان بل لكل المخلوقات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) بحار الأنوار ج٣٥/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

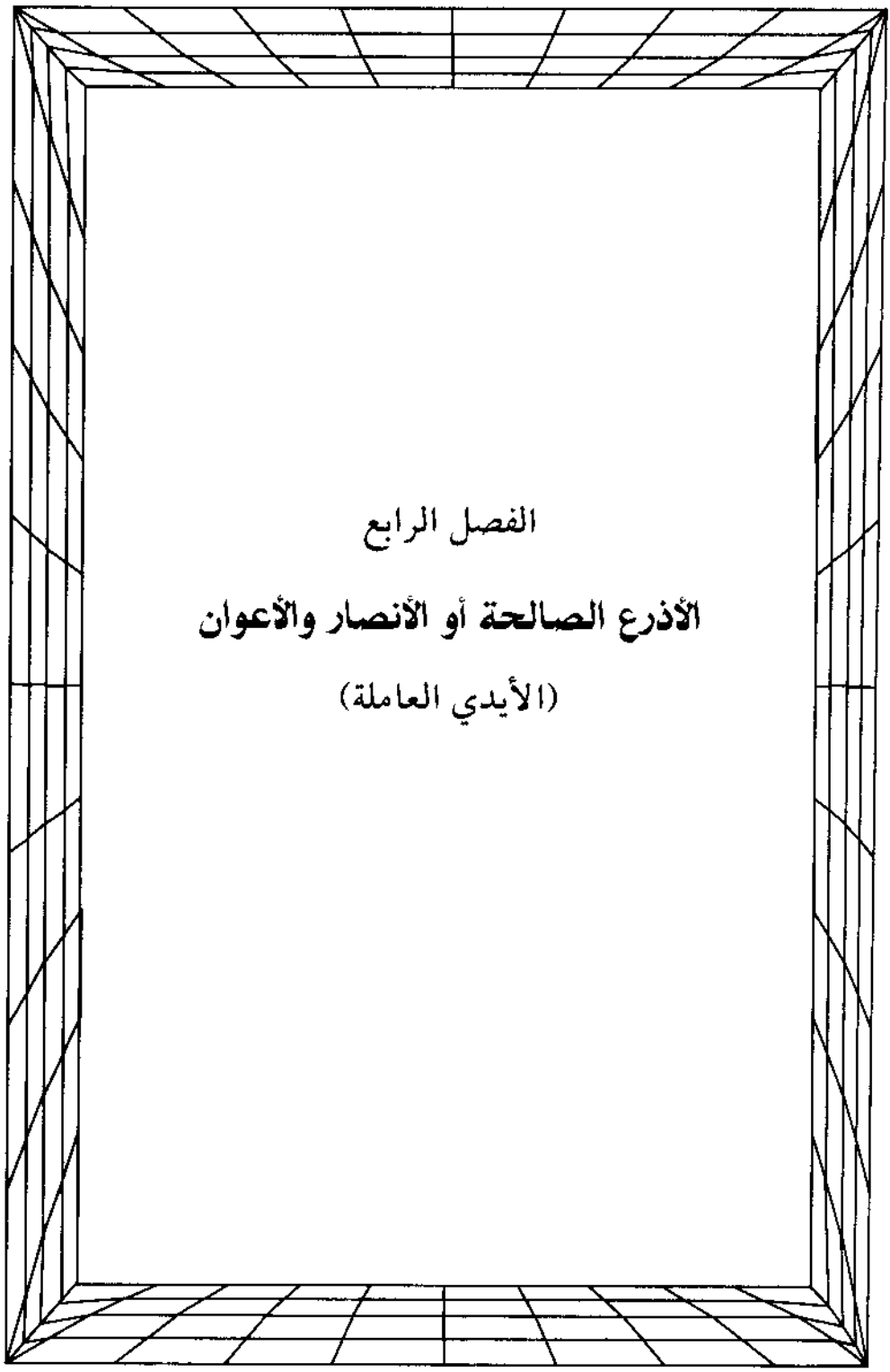

الفصل الرابع

الأذرع الصالحة أو الأنصار والأعوان

(الأيدي العاملة)

لقد خلصنا في الفصول السابقة إلى أن سبب الغيبة لا يتعلق بعدم صلاحية الفكرة (الإسلام) للتطبيق، ولا هو في عدم جاهزية الإمام المهدي عليه السلام لقيادة الثورة العالمية نحو خالق الخلق وبارئهم تبارك وتعالى، وبهذا نكون انتهينا إلى الدائرة الثالثة أو الركيزة الثالثة من ركائز الإصلاح، هي الأذرع الصالحة التي تساعد القائد المنفذ للمشروع الإلهي في نقل الخطة الإلهية في تأهيل الخلق وقيادتهم نحو العبودية لله والكمال بها من حيز التنظير إلى حيز التطبيق. اذ سنبحث في هذا الفصل هل لهم مدخلية (الأنصار) في غيبة الإمام أم لا وهل هم سبب تأخير الظهور الشريف أم لا؟.

ولكن قبل أن نُشرع في بحث الموضوع سنعود إلى مناقشة علل الغيبة الأخرى التي ذكرتها الروايات، وذلك كما وعدناكم في الفصل الأول بمناقشتها واحدةً واحدة كي نثبت أن جميع العلل المذكورة تعود في أصلها إلى علة واحدة، وبنفس الوقت نخلص لهذه العلة المقصودة التي هي عدم وجود أنصار حقيقيين للنهضة بالمشروع مع الإمام بقية الله في أرضه (روحي وأرواح العالمين فداه) وهي العلة الأصلية التي ترجع إليها جميع العلل كما نعتقد وسيثبت بالدليل إن شاء الله.

لقد سبق أن فندنا أن يكون السبب وراء الغيبة هو (سر) من أسرار الله تبارك وتعالى، بعد أن عرضنا الرواية على القرآن الكريم، وكذا ناقشنا ما معنى أن تكون الغيبة بسبب خوفه (ارواحنا فداه) من القتل وقلنا إن هذا الخوف على المشروع لا على نفسه.

وبقيت لدينا علل الغيبة الأخرى التي سنناقشها تباعا لأن لها علاقة وطيدة بموضوع هذا الفصل الذي يبحث توافر أصحاب الإمام من عدمه.

ج: معاقبة الناس بنزع الحجة من بين أظهرهم

عن مروان الأنباري قال: خرج من أبي عبد الله عليه السلام إن الله إذا كره لنا جوار

قوم نزعنا من بين أظهرهم[١] . . هذه الرواية مصداق لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]. وهذه العلة كما بيناها في مناقشة العلة الأولى في الفصل الأول (إنها سر من الله) حينما قلنا إن الإمام الحجة عليه السلام نعمة من الله كما قال سبحانه في كتابه: ﴿. . . وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٣]. النعمة الظاهرة الإمام الظاهر والنعمة الباطنة الإمام الغائب[٤]. إذ لو كان هناك مؤمنون مخلصون لما حجب الله تبارك وتعالى حجته ونوره عنهم، ولأنهم عصوا وخالفوا واستكبروا على حججه وسبل هدايته، نزع عنهم هذه السبل وحجب عنهم هذا النور ليتركهم في ظلماتهم يعمهون.

والمحصلة التي نخرج بها هي عدم وجود مؤمنين حقيقيين بدور الإمام في قيادة الأمة، وأنها غيرت فغير الله ونزع عنها نعمته الظاهرة وأبقى النعمة الباطنة، لأنها نعمة تكوينية يحتاج إليها الكون لدوام بقائه، وإلى هذا المعنى أشارت في الرواية الآتية:

عن الأعمش عن الصادق عليه السلام قال: «لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها ولولاه لم يعبد الله، قال سليمان فقلت للصادق عليه السلام فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور قال كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب»[٥]. إن الشمس تؤدي كل الدور المراد منها وإن غيبها السحاب وكذا الإمام (عج) يؤدي كل دوره التكويني وإن لم يباشره الناس بعيونهم.

د: حتى يصفو الكدر ويبقى الخلص من المؤمنين

عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية طويلة يحدث فيها سدير الصيرفي عن سبب امتحان الله لأصحاب نوح عليه السلام بطول المحنة حتى ارتد منهم قوم بعد قوم بعد أن

---

(١) علل الشرائع/ ٢٤٥، وبنفس المعنى في الكافي ج١/ ٤٣: (عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَرَجِ قَالَ كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام إِذَا غَضِبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ نَحَّانَا عَنْ جِوَارِهِمْ).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٤) تفسير الميزان ج١٦/ ١٢٦.

(٥) كمال الدين ج١/ ٢٠٧، الأمالي للصدوق/ ١٨٦ وروضة الواعظين ج١/ ١٩٩.

وعدهم بالفرج وعلامته زرع نوى التمر وإثماره مرة بعد مرة حتى جاء الفرج عند إثمار السابعة، وحينها لم يبق مع نوح إلاّ من محض الإيمان محضاً، يقول الصادق عليه السلام:

«... فما زالت تلك الطوائف من المؤمنين ترتد منه طائفة بعد طائفة إلى أن عاد إلى نيف وسبعين رجلاً فأوحى الله تبارك وتعالى عند ذلك إليه وقال: يا نوح الآن أسفر الصبح عن الليل لعينك حين صرح الحق عن محضه وصفا الأمر والإيمان من الكدر بارتداد كل من كانت طينته خبيثة فلو أني أهلكت الكفار وأبقيت من قد ارتد من الطوائف التي كانت آمنت بك لما كنت صدقت وعدي السابق للمؤمنين الذين أخلصوا التوحيد من قومك واعتصموا بحبل نبوتك بأن أستخلفهم في الأرض وأمكن لهم دينهم وأبدل خوفهم بالأمن لكي تخلص العبادة لي بذهاب الشك من قلوبهم وكيف يكون الاستخلاف والتمكين وبدل الخوف بالأمن مني لهم مع ما كنت أعلم من ضعف يقين الذين ارتدوا وخبث طينهم وسوء سرائرهم التي كانت نتائج النفاق وسنوح الضلالة فلو أنهم تسنموا مني الملك الذي أوتي المؤمنين وقت الاستخلاف إذا أهلكت أعداءهم لنشقوا روائح صفاته ولاستحكمت سرائر نفاقهم وتأبدت حبال ضلالة قلوبهم ولكاشفوا إخوانهم بالعداوة وحاربوهم على طلب الرئاسة والتفرد بالأمر والنهي وكيف يكون التمكين في الدين وانتشار الأمر في المؤمنين مع إثارة الفتن وإيقاع الحروب كلا... قال الصادق عليه السلام: وكذلك القائم فإنه تمتد أيام غيبته ليصرح الحق عن محضه ويصفو الإيمان من الكدر بارتداد كل من كانت طينته خبيثة من الشيعة الذين يخشى عليهم النفاق إذا أحسوا بالاستخلاف والتمكين والأمن المنتشر في عهد القائم (عج)»[1].

الرواية واضحة الدلالة على أن سبب الغيبة هو تمحيص الشيعة وغربلتهم كما نمت غربلة قوم نوح عليه السلام من أجل الحصول على الخلص من الأنصار من الذين ليس لهم هم في هذه الدنيا إلاّ طاعة الله وطاعة الرسول وأولي الأمر بغية تحقيق العدل الإلهي وحفظ كرامة الإنسان وتوفير الحياة الكريمة التي أراد الله له أن يحياها،

(١) كمال الدين ج٢/ ٣٥٦، الغيبة للطوسي/ ١٧٢ ومنتخب الأنوار المضيئة/ ١٨٥.

وحينما يخص الإمامُ عليه السلام الشيعة بهذا الحديث، ذلك لأنهم من سيتحمل مسؤولية النهضة مع الإمام في نشر القسط والعدل في أرجاء الكون، وإنما التأكيد على شيعة أهل البيت لأنهم الفرقة الناجية والثابتة على الحق فأما الآخرون من المخالفين فقد فرغ الشيطان منهم كما في الرواية التالية: عن زرارة قال: قلت له قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]، قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: يا زرارة إنما عمد لك ولأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم[2].

ولعل الرواية التالية تسلط الضوء أكثر على كيفية غربلة الشيعة لانتخاب الخلص منهم:

«فعن مالك بن ضمرة قال: قال: أمير المؤمنين عليه السلام لشيعته: كونوا في الناس كالنحل في الطير ليس شيء من الطير إلا وهو يستضعفها ولو يعلم ما في أجوافها لم يفعل بها كما يفعل خالطوا الناس بأبدانكم وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم فإن لكل امرئ ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحب أما إنكم لن تروا ما تحبون وما تأملون يا معشر الشيعة حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض وحتى يسمي بعضكم بعضا كذابين وحتى لا يبقى منكم على هذا الأمر إلا كالكحل في العين والملح في الطعام وهو آقل الزاد وسأضرب لكم في ذلك مثلا وهو كمثل رجل كان له طعام قد ذرأه وغربله ونقاه وجعله في بيت وأغلق عليه الباب ما شاء الله ثم فتح الباب عنه فإذا السوس قد وقع فيه ثم أخرجه ونقاه وذرأه ثم جعله في البيت وأغلق عليه الباب ما شاء الله ثم فتح الباب عنه فإذا السوس قد وقع فيه وأخرجه ونقاه وذرأه ثم جعله في البيت وأغلق عليه الباب ثم أخرجه بعد حين فوجده قد وقع فيه السوس ففعل به كما فعل مرارا حتى بقيت منه رزمة كرزمة الأندر الذي لا يضره السوس شيئاً وكذلك أنتم تمحصكم الفتن حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا تضرها الفتن شيئاً»[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) تفسير نور الثقلين ج٢/ ١٠، تفسير العياشي ج٢/ ٦ وتفسير الصافي للفيض الكاشاني ج٢/ ١٨٥.

(٣) الغيبة للنعماني ص/ ٢٦، موسوعة أحاديث أمير المؤمنين علي عليه السلام ج١/ ٢٨٩.

وكيف لا يكون الأمر هكذا مع خطورة الدور الذي سيؤديه المختار من هؤلاء الأنصار، فلا بد أن يكون محصناً من الفتن والشهوات والأهواء حتى لا يكون حجر عثرة في تحقيق المشروع الإلهي لا سيما أن الدنيا ستفتح أبوابها لهم على مصراعيها وستكون كل كنوز الدنيا بين أيديهم.

ولعل في التجربة العراقية خير دليل على ذلك، بل لعلّه من أوضح الدلائل على حكمة الغيبة، أنظر عزيزي القارئ لما آل إليه الوضع في العراق بعد أن استولى على الحكم مناضلو الأمس ولاحظ كيف استشرى الفساد في كل مفاصل الدولة، والسبب واضح وهو نفس السبب الكامن وراء الغيبة، فلك أن تتخيل عزيزي القارئ لو ظهر الإمام ولم يكن يملك قاعدة من المؤمنين الزاهدين في الدنيا وحطامها وكانت ثورة الشهوات والأهواء تعصف في دواخلهم وفجأة تأتيهم السلطة بكل عنفوانها! ترى ماذا سيكون الوضع حينها؟ والجواب واضح وقد بينه الله تبارك وتعالى لنبيه نوح عليه السلام في الرواية المتقدمة وكيف أن الذين يخشى عليهم النفاق سيقاتلون إخوانهم من أجل الرئاسة والزعامة، وهذا بالضبط ما نشكو منه اليوم في تجربتنا العراقية الجديدة بعد سقوط طاغية الطواغيت.

إذن لا بد من أن يصفو الكدر للحصول على الأنصار المخلصين من الذين لا هم لهم سوى إقامة أحكام الله في الأرض والارتقاء بالإنسانية نحو الكمال.

هـ: حتى لا تبقى فئة تقول لو حكمنا لعدلنا

عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنف من الناس إلا قد ولوا على الناس حتى لا يقول قائل إنا لو ولينا لعدلنا ثم يقوم القائم بالحق والعدل[1]. وهذه أيضاً ترتبط بعدم وجود أنصار له للقيام بثورته وإنقاذ الناس من الظالمين والطواغيت لاسيما إنه مأمور بالقاعدة القرآنية العامة بالدفاع عن المستضعفين في الأرض أين ما وجدوا إذا وجد سبيلاً ما

(١) الغيبة للنعماني/ ٢٧٤. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام ج٣/ ٤٢٧ والإمام المهدي المنتظر السيد عدنان البكاء/ ٤٧٦.

لإنقاذهم وهدايتهم، قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[1].

يقول السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان بخصوص الآية ما هذا نصه:

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ. . .﴾ الخ عطف على موضع لفظ الجلالة، والآية تشتمل على حث وتحريض آخر على القتال في لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال في سبيل الله سبحانه، وهو الذي لا بغية لكم في حياتكم السعيدة إلا رضوانه، ولا سعادة أسعد من قربه، وفي سبيل المستضعفين من رجالكم ونسائكم وولدانكم.

ففي الآية استنهاض وتهييج لكافة المؤمنين وإغراء لهم: أما المؤمنون خالصو الإيمان وطاهرو القلوب فيكفيهم ذكر الله جل ذكره في أن يقوموا على الحق ويلبوا نداء ربهم ويجيبوا داعيه، وأما من دونهم من المؤمنين فإن لم يكفهم ذلك فليكفهم أن قتالهم هذا على أنه قتال في سبيل الله قتال في سبيل من استضعفه الكفار من رجالهم ونسائهم وذراريهم فليغيروا لهم وليتعصبوا. . والإسلام وإن أبطل كل نسب وسبب دون الإيمان إلا أنه أمضى بعد التلبس بالإيمان الأنساب والأسباب القومية فعلى المسلم أن يفدي عن أخيه المسلم المتصل به بالسبب الذي هو الإيمان، وعن أقربائه من رجاله ونسائه وذراريه إذا كانوا على الإسلام فإن ذلك يعود بالآخرة إلى سبيل الله دون غيره. وهؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم وأفلاذهم مؤمنون بالله سبحانه بدليل قوله: الذين يقولون ربنا. . الخ»، وهم مع ذلك مذللون معذبون يستصرخون ويستغيثون بقولهم: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، وقد أطلق الظلم، ولم يقل: الظالم أهلها على أنفسهم، وفيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب والإيذاء وكذلك كان الأمر[2].

ويبين صاحب تفسير الأمثل هذا الأصل القرآني بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٢) تفسير الميزان ج٤/ ١٦٠.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وعلى هذا الأساس فالقرآن يطلب من المسلمين الجهاد في سبيل الله وكذلك في سبيل المستضعفين المظلومين، وأساساً إنّ هاتين الغايتين متحدّتان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار عدم وجود قيد أو شرط في الآية أعلاه نفهم من ذلك وجوب الدفاع عن جميع المظلومين والمستضعفين في كلّ نقطة من العالم القريبة منها أو البعيدة، وفي الداخل أو الخارج.

وبعبارة أخرى: أنّ حماية المظلومين في مقابل عدوان الظّالمين هو أصل في الإسلام يجب مراعاته، حتّى لو أدّى الأمر إلى الجهاد واستخدام القوّة، فالإسلام لا يرضى للمسلمين الوقوف متفرّجين على ما يرد على المظلومين في العالم، وهذا الأمر من الأوامر المهمّة في الشريعة الإسلاميّة المقدّسة الّتي تحكي عن حقانيّة هذا الدّين[1].

وعلى الرغم من اختلاف المفسرين الجليلين حول ما إذا كان القتال بخصوص المستضعفين من المسلمين فقط أو هي قاعدة عامة تشمل كل مستضعف كيف ما كان دينه ومعتقده، إلاّ أنهما اتفقا على وجوب القتال في سبيل نصرة واستنقاذ المؤمنين المستضعفين من براثن ظالميهم.

وعلى القاعدة هذه سيكون أول المكلفين بذلك من خلقه الله وبعثه رحمة للعالمين شبيه جده المصطفى ووارثه في كل شيء إلاّ الأزواج والنبوة كما ورد عنهم عليه السلام بقية الله وخليفته في أرضه وعلى عباده، الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف).

إذن لم يكن لهؤلاء (بمختلف أصنافهم) أن يحكموا لو وجد الإمام أنصاراً وأعواناً لاستنقاذ المستضعفين من شيعته بالإضافة إلى بقية المسلمين، وبالتالي فإن حكم هؤلاء نتيجة لعدم تمكين الناس الإمام من حكمهم فابتلاهم الله بالطواغيت ولأنهم غيروا فغير الله كما قلنا سابقاً.

---

(١) تفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي ج٢/ ٢٨.

والمحصلة أن حكم هؤلاء جاء نتيجة لخذلان الناس لإمامهم الحقيقي وإلجائه للغيبة، وإنما مكن الله تبارك وتعالى كل الأصناف من خوض تجربة الحكم كي لا يدعي أحدهم بعد أن يرى عدل قائم آل محمد ﷺ وسيرته العطرة بين الناس وملئه الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملؤوها من قبله ظلماً وجوراً، نعم كي لا يدعي أحد أو صنف من الناس القدرة على الإتيان بما جاء به قائم آل محمد ﷺ لسعادة البشرية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكي يصبح واضحاً لدى الناس أن لا منقذ لهم غير الحاكم بأمر الله وهديه وهو الإمام المعصوم المسدد من قبل الله الذي يعيش من أجل سعادتهم وتكاملهم فقط وهذا غاية ما يريد أن يوصلهم إليه من دون أن تكون لديه أية منافع شخصية، وسيعرف الناس هذا بعد أن يشاهدوا بأم أعينهم سقوط كل تجارب الحكم والتسلط التي حكمت بغير هدي الله وتسديده والذي لم ولن يجدوه إلاّ عند مهدي آل محمد ﷺ.

ولعل آخر هذه الأصناف هو الصنف الذي يحكم الآن في العراق من الشيعة، بعد أن حُرموا من الحكم طيلة الأربعة عشر قرنا المنصرمة.

و: حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً

عن سلمان المحمدي في رواية طويلة نأخذ محل الحاجة منها قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... ثمّ يكشف الله بنا أهل البيت جميع البلايا عن أهل دعوة الله بعد شدّة من البلاء العظيم حتى تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلما وجوراً...»[١].

وعَنْ أَبِي أَحْمَدَ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ الْأَزْدِيِّ عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام فِي حَدِيثٍ أَوْصَافِ الْإِمَامِ الثَّانِي عَشَرَ وَغَيْبَتِهِ قَالَ: «تَخْفَى عَلَى النَّاسِ وِلَادَتُهُ وَلَا تَحِلُّ لَهُمْ تَسْمِيَتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ فَيَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً»[٢].

الحقيقة أن من الشبهات التي انتشرت في الآونة الأخيرة وبالأخص في سنوات

(١) بحار الأنوار ج٣٠/ ٨٠.
(٢) وسائل الشيعة ج ١٦/ ٢٤٢.

التسعينيات إلى يومنا هذا شبهة أن الإمام لن يظهر حتى تمتلئ الدنيا ظلماً وجوراً!!.

وإن من المؤسف عدم التمييز بين العلامة أو الشرط وبين النتيجة، فإن العلامة هي إشارة لحدث سيقع بعدها، أما الشرط فهو توقف حدوث حدث ما على تحققه كما في الرواية التالية: عن تبيع قال: «إذا كانت هدة بالشام قبل البيداء، فلا بيداء ولا سفياني»[1].

والرواية هذه (بغض النظر عن صحتها أم لا) تتحدث عن تحقق شرط (وهذا واضح باستخدام إذا الشرطية) وهو الهدة التي في الشام لينتفي على أثرها خروج السفياني وطبعاً الخسف بالبيداء بجيشه لانتفاء الموضوع.

أما امتلاء الأرض ظلماً وجوراً، إنما هو نتيجة لفساد الناس وحكم الظالمين وعدم تمكين الإمام من الحكم وأخذ دوره الشرعي المنصوص عليه من قبل الله بهداية الناس وقيادتهم نحو الله تبارك وتعالى وليس هو علامة أو شرطاً للظهور المبارك.

ويرجع السبب في ذلك لنفس العلة التي أشرنا إليها وهي عدم وجود أعوان وأنصار لإحقاق الحق وإقامة العدل.

ز: انتظاره للعدة المعدودة من أصحابه

عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام «إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً فقال عليه السلام يا أبا القاسم ما منا إلا وهو قائم بأمر الله عز وجل وهاد إلى دين الله ولكن القائم الذي يطهر الله عز وجل به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملؤها عدلاً وقسطاً هو الذي تخفى على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيه وهو الذي تطوى له الأرض ويذل له كل صعب ويجتمع إليه من أصحابه عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك... العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج

(١) معجم أحاديث المهدي ج١/ ٤٤٨.

بإذن الله عزوجل »[١]. وعن أبي عبد الله بن بكير قال: «قال أبو الحسن عليه السلام: يا ابن بكير إني لأقول قولاً، قول الله عزوجل: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره، . . . قد كانت آبائي عليهم السلام تقوله: لو كان فيكم عدة أهل بدر لقام قائمنا . . .»[٣]. الروايتان توضحان بشكل لا لبس فيه أن العلة في عدم القيام هي عدم توفر العدة المطلوبة للتغيير، وبهذا يثبت أيضاً ما قلناه في البدء ورجع الأمر إلى العلة الأصلية التي هي عدم توفر الأذرع الصالحة للقيام بعملية التغيير.

ح: حتى لا تكون لأحد الطواغيت بيعة في عنقه.

إن من العلل التي كانت وراء الغيبة كما أوردتها الروايات، هي العمل على أن لا يكون لأحد الطواغيت بيعة في عنقه، والغيبة هي أفضل الحلول لذلك.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: للقائم منا غيبة أمدها طويل كأني بالشيعة يجولون جولان النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه ألا فمن ثبت منهم على دينه ولم يقس قلبه لطول أمد غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة ثم قال عليه السلام إن القائم منا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه[٤].

بما أن الإمام الحجة المهدي (عجل الله فرجه الشريف) هو الإمام الأخير في سلسلة الأوصياء والمقدر له أن يكون منقذ الناس والشريعة من الاندراس. لذا وجب عليه الحفاظ على حياته التي بها قوام الدنيا حسب قانون السببية التي شاء الله أن يدبر العالم من خلاله، فلا خيار أمامه إلاّ البيعة التي تتعارض مع مهمته بالقضاء على الظالمين أو المواجهة التي ستكون نهايتها القتل المحتم له بسبب قلة أنصاره وأعوانه أو الغيبة وهو المتعين.

---

(١) كمال الدين ج٢/ ٣٧٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٣) مشكاة الأنوار لعلي بن الحسن الطبرسي ج١/ ٤٧. الاحتجاج ج٢/ ٤٤٩ وإعلام الورى/ ٤٣٥ وكفاية الأثر/ ٢٨٢ ومنتخب الأنوار المضيئة/ ١٧٧.

(٤) كمال الدين ج١/ ٣٠٣، ميزان الحكمة ج١/ ٢٤٣.

إشكال محتمل: قد يقول قائل ولم الغيبة وتوجد التقية التي من خلالها يمكن أن يحفظ نفسه من القتل؟.

نقول: لا شك أن التقية واجب شرعي يجب الالتزام به عند الضرورة، ولكن إذا كان حتى هذا الحكم لا يجعله بمنأى عن القتل والملاحقة فيجب عليه أن يلجأ لحل آخر، هذا من جهة والجهة الأخرى انه وإن عمل بالتقية فلن يتناسوا أنه هو الإمام الثاني عشر المقدر له أن يكون سقوط عروش جميع الطواغيت على يديه، فلا مناص حينئذ من الغيبة لاسيما أن القاعدة التي يمكن أن يتكئ عليها الإمام لم توجد بعد (ونعني بها قاعدة الأنصار والأعوان).

إضافة إلى أن التقية التي انتهجها الأئمة عليهم السلام كانت فترة مرحلية لا تصلح لمهدي آل محمد فقد كان الأئمة عليهم السلام بحاجة إلى وقت ليرسخوا قيم الدين الحنيف التي شُن عليها حملة شعواء لتحريفها وتزييفها وبالتالي إضلال الناس بخلط الحق بالباطل.

والمتتبع لمجرى الأمور يلاحظ أن أعداء الدين من خلفاء الجور وحزب المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وتوثبوا على منبره وغصبوا الخلافة بعد استشهاده، لم يدخروا جهداً لهدم هذا الدين من الداخل وبكافة السبل المتاحة.

وواحدة من هذه السبل تتمثل في خنق صوت الحق والعلم الذي كان واضحاً أن أهل البيت عليهم السلام هم الصادحون به على طول الطريق، وبعبارة اخرى تغييب خط الإمامة وحجبه عن الناس.

لذا كان كل جهد الأئمة عليهم السلام ينصب بمحاولة تبيين أحكام الدين وأصوله [لا سيما أصل الإمامة] والدفاع عن الإسلام، ولأنهم كانوا يعلمون أن لا أحد غيرهم يضطلع أو يقدر على القيام بهذه المهمة لذا كان ديدنهم المحافظة على حياتهم لأطول مدة ممكنة وعيش سنوات إضافية لاستثمارها بالتصدي للبدع والتزييف وتحريف أحكام القرآن، ولولا ذلك لما كان يصلنا الحق الذي ننعم من خلاله بالهدى الذي نحن عليه اليوم.

أما القائم المهدي من آل محمد عجل الله فرجه فإن عمله يختلف عن عملهم وتكليفه ليس عين تكليفهم، إنما تكليفه يتلخص باجتثاث أصول الظلم والظالمين والقضاء

على أئمة الجور ونشر أحكام الإسلام كما نزلت، لا تلك التي يسمح بها (الظرف المعاش)، وتطهير الدنيا من الكفر والشرك والظلم والجور والإلحاد، وبكلمة واحدة، إن الإمام المهدي يمثل انقضاء المهلة الإلهية لكل المنحرفين بالرجوع إلى الله والحق والعدل، لأنه يمثل الرحمة للمؤمنين والنقمة والعذاب على الكافرين والظالمين، لذا صرحت الروايات أنه (عجل الله فرجه الشريف) يقوم بالسيف والعلم.

ط: لو تزيلوا لأنزلنا عليهم العذاب

عن إبراهيم الكرخي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أو قال له رجل: أصلحك الله ألم يكن علي عليه السلام قوياً في دين الله عزوجل؟ قال: بلى قال: فكيف ظهر عليه القوم وكيف لم يدفعهم وما يمنعه من ذلك؟ قال: اية في كتاب الله عزوجل منعته، قال: قلت: وأية اية هي؟ قال: قوله عزوجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]، إنه كان لله عزوجل ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتى يخرج الودائع فلما خرجت الودائع ظهر على من ظهر فقاتله وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبداً حتى تظهر ودائع الله عزوجل فإذا ظهرت، ظهر على من يظهر فقتله[2].

تشير هذه الروايات إلى علة من نوع آخر، وتحيل الغيبة إلى شأن غيبي لا يمت إلى الفعل البشري بصلة، يمثل في خروج ودائع الله من المؤمنين من أصلاب الكافرين، بيد أن هذا التفسير يواجه بعدة إشكالات:

الأول: أنه يعارض ظاهر الآية التي تتحدث عن مؤمني مكة وأنهم لو تزيلوا (أي تمايزوا أو انعزلوا) عن مشركي مكة لأمكن القضاء على المشركين من دون التسبب بقتل المؤمنين أو أذيتهم من قبل أخوتهم المسلمين.

يقول السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان عند التعرض لهذه الآية: ﴿هُمُ الَّذِينَ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٢) كمال الدين ج٢/ ٦٤٢، تفسير القمي ج٢/ ٣١٧ وعلل الشرائع ج١/ ١٤٧.

كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

الوطء، الدوس، والمعرة، المكروه... والمعنى: لولا أن تدوسوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وانتم جاهلون بهم فيصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم، وقوله تعالى: ليدخل في رحمته من يشاء، اللام متعلق بمحذوف والتقدير ولكن كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين سلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من إصابة المعرة. وقوله: لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً، «التزيل التفرق»، وضمير «تزيلوا» لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكة، أي لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابا أليما لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين[2].

ويقول صاحب تفسير الأمثل في تفسيره للآية: وهذه الآية تشير إلى طائفة من (الرجال والنساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في مكة ولم يهاجروا لأسباب خاصة، فلو قاتل المسلمون أهل مكة لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضعفين في خطر، ولامتدت ألسنة المشركين بالقول إن جنود الإسلام لم يرحموا لا أعداءهم ومخالفيهم ولا أتباعهم ومؤالفيهم وهذا عيب وعار كبير... إلى أن قال: وهذا لا يمنع أن تكون الآية مشيرة إلى المؤمنين المختلطين بالكفار في مكة وإلى المؤمنين الذين هم في أصلاب الكافرين وسيولدون في ما بعد[3].

الثاني: أنه يتعارض مع الكثير من الروايات الواردة بشأن ضرورة توفر العدة المعدودة وعدها شرطاً رئيساً في الظهور الشريف: مثل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقرّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.
(٢) الميزان للطباطبائي ج١٨/ ٣١٤.
(٣) تفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي ج١٦/ ٤٣٥.

أولها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أزهد من عفطة عنز»، أو قول الإمام الباقر عليه السلام: «إذا اجتمع للإمام عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر وجب عليه القيام والتغيير»، الروايتان واضحتان في دلالتهما على علة القيام، فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقر بأن الحجة تقوم على الإمام بوجود (أي توفر) الناصر، وأن لا حجة شرعية له في القعود مع توفر هذا الشرط، لاسيما مع قرينة وظيفة العالماء التي بينها الإمام (سلام الله عليه) وهو على رأسهم.

وأما قول الإمام الباقر عليه السلام فهو الآخر واضح في دلالته على وجوب القيام مع توفر العدة المعدودة، حيث افتتح حديثه بأداة الشرط إذا، والتي يتوقف عملها على وجود الشرط وهو توفر عدة كعدة أهل بدر، وهذا يؤكد عين المعنى في حديث أمير المؤمنين المتقدم بشأن قيام الحجة، حيث يقول الباقر عليه السلام: «وجب عليه القيام والتغيير» ومعنى الوجوب واضح لا يحتاج إلى شرح.

الأمر الآخر في حديث الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا اجتمع للإمام»، ولم يحدد أنه الثاني عشر بل يمكن أنه أراد أي واحد منهم عليهم السلام وبهذا فهو يشير إلى علة قعودهم كلهم عليهم السلام إذ لا علة خاصة بكل منهم، من هنا فإن هذا المعنى يتعارض مع التفسير المتقدم لآية المزايلة.

الثالث: لو فتحنا باب النقاش في المعنى الوارد في الروايات المفسرة لآية التزيل، لقلنا إن كان التزايل شرطاً في الظهور وهو يسري مع كل إمام وصولاً للحجة ابن الحسن (أرواحنا لتراب مقدمه فداء)، فلماذا إذن قاتل أمير المؤمنين عليه السلام؟.

التفسير يقول إنه عمل بالرواية، وكانت سبباً في قعوده منتظراً خروج الودائع من أصلاب آبائهم الكافرين.. فهل جاء تأويل هذه الآية في الفترة التي قاتل فيها أمير المؤمنين عليه السلام الناكثين والقاسطين والمارقين؟ فإن قيل إن الأمير كان لا يقتل من يعلم أن في صلبه مؤمنا، قلنا فمن أين لأصحابه هذا العلم حيث كانوا يقتلون من يواجههم في المعركة، وعندها يكون لا لزوم للآية أصلاً، لأننا إذا اعتبرنا أن الله أراد أن يعذبهم بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فإننا نكون بين أمرين لا ثالث لهما، الأول: أن يكون قتال أمير المؤمنين عليه السلام إعلاماً بأنه يعمل بتأويل هذه الآية، وأنها تحققت على أرض الواقع بحيث خلت أصلاب الكافرين من ودائع الله فيهم،

والثاني: أن نرد هذا التفسير ونكل علمه إليهم لأنه يخالف الواقع، لأننا إذا قبلنا أن أمير المؤمنين عليه السلام كان لا يقتل من في صلبه مؤمن، فماذا نقول عن أفراد جيشه الذين كانوا يقتلون كل من يواجههم في ساحة المعركة، وبهذا تكون المسألة عبثية، إذ من جهة يلتزم بها أمير المؤمنين عليه السلام وتكون هي العلة في قعوده، ومن جهة أخرى لا يلتزم بها جنده ويقتلون على الظاهر، وبالتالي ما هو مصير الودائع في أصلاب المقتولين على أيدي جيش الإمام؟ ألا يكونون قد عُدموا بعد هذه السنين الطوال من المحافظة عليهم، وبهذا تكون علة قعوده وكل صبره وتضحياته قد ذهبت أدراج الرياح وذهبت ودائع الله بقتل آبائهم!!.

والمحصلة: أننا إذا قبلنا هذه الروايات التي فسرت آية المزايلة بالمعنى الوارد، فلا مناص للخروج من الإشكال إلا إذا اعتمدنا الوجه الأول وهو أن قتال الإمام كان إعلاماً وإشعاراً لخلو الأصلاب من هذه الودائع.

من هنا تكون نفس علة قيام أمير المؤمنين عليه السلام هي علة قيام مهدي آل محمد (أرواحنا فداه) واكتمال العدة المعدودة وخروجه عليه السلام يكون أيضاً إشعاراً لتحقق تأويل هذه الآية في عصره أيضاً.

وبعد هذه الإيضاحات يتبين لنا بشكل جلي، أن كل هذه العلل المذكورة للغيبة، إنما هي علل فرعية لعلة أصلية، هي عدم وجود وتوفر القاعدة الصالحة المهيأة لحمل راية التغيير. ونكون قد عُدنا لما ذهبنا إليه من أن تكليفنا ينحصر في نفي علة القعود عن الساحة الإسلامية، ويتحقق هذا النفي بتهيئة أنفسنا، والعمل على أن نكون من هذه العدة المباركة، أو إرشاد من تتوفر به الملكات التي يستطيع من خلالها أن يدخل في دائرتهم ويخوض السباق المعنوي للصيرورة منهم، فإنه ليس كل من تحدث بهذا الموضوع يكون مؤهلا للكون منهم، وليس كل من توصل من خلال الدليل لهذه الحقيقة، يستطيع الفوز بالسباق العملي في ميدان الجهاد الأكبر، لأن الحديث عن هذا الموضوع شيء، والتخلق بالشروط شيء آخر، فأسأل الله العلي القدير الرؤوف الرحيم، أن يجعلنا منهم وأن يسدد خطانا ببركة صاحب العصر والزمان ويجعله هو المعلم والمرشد والهادي لنا في عصر الفتن هذا، ونتوسل به أن يُكمل عقولنا ويُزهدنا في الدنيا، لأنها رأس كل خطيئة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الغيبة والتجربة العراقية

لعل من أوضح الدلائل على حكمة الغيبة ما يجري اليوم على الساحة العراقية بعد سقوط صنم الكفر والنصب والعدوان. فالكل كان يحلم بسقوطه ولأجل ذلك استشهد مئات الآلاف من خيرة رجال العراق، بيد أن الخطأ الكبير الذي وقعت فيه كل الحركات والأحزاب من دون استثناء هو اليأس من إمكانية إسقاطه أو هكذا نقرأ نحن ذلك اليوم بعد أن عايشنا تجربتهم بالحكم على مدى تسع سنين، ولعل الفساد المستشري في جميع أجهزة الدولة التي تديرها مع الأسف الأحزاب الإسلامية، هو من أكبر المؤشرات على صحة ما نقول، فلو لم يكن ما ندعيه صحيحا لجهزت هذه الأحزاب أنفسها لهذا اليوم وقامت بتأهيل العناصر الكفوءة حسب النظرة الشرعية أي مع كونه ملماً باختصاصه الأكاديمي أو الحركي، لزم أن يكون تقياً ورعاً محباً للناس مخلصاً للشريعة.

إلاّ أن الواقع مع الأسف يحدثنا بنقيض ذلك، فجميع الوزارات المُدارة من قبل الأحزاب والتيارات الإسلامية يصول الفساد فيها ويجول، وهذا ينم [فضلاً عن الذي قلناه من أنهم كانوا يائسين من إمكانية التغيير]، عن عدم استيعابهم لفكرة الحكومة الإسلامية التي كانوا يدعون إليها ومن ثم تخلوا عنها بمجرد وصولهم لكراسي الحكم، فالحكومة الإسلامية تعتمد بالدرجة الأساس على إدارة الإمام المعصوم أو نائبه الخاص أو العام (ودستورها القرآن طبعاً)، وهؤلاء (الإمام ونائبه الخاص والعام) لن يقدموا على طرح هذه الفكرة من الأساس ما لم تكن أرضية التغيير متوفرة أصلاً، فعملهم بالدرجة الأولى سينصب على إمكانية تأهيل الناس لاستيعاب الفكرة وأن يكونوا على استعداد لحملها والموت لأجلها لأنها السبيل الوحيد لخلاصهم وخلاص البشرية جمعاء، والعمل كذلك بكل جدية على خلق جيل يعي هذه المسؤولية ولديه كل الاستعداد لحملها من دون أن يختلج في جوانحه أي طموح شخصي أو أهواء سلطوية.

وهنا يظهر المعدن الحقيقي لحامل راية التغيير فإذا لم يكن قادرا على تربية

وإعداد بضعة أشخاص ليكونوا أذرعته الحاملة للواء الإصلاح فكيف يستطيع أن يغير أو يصلح مجتمعا ذا ساحة عريضة كمجتمعنا مع كل ما تتصارع فيه من تيارات فكرية وأهواء نفسية وأمراض أخلاقية خلفتها تلك الحقبة السوداء.

وهذا الذي نعاني منه اليوم من هذه الأحزاب والتيارات التي تدعي حمل راية التغيير والإصلاح، فلاهي أصلحت نفسها وأصبحت على مستوى ما حملت على كاهلها من مسؤولية ولاهي تركت الناس لتقرير مصيرها، والحقيقة إني أعجب من كل هذا التاريخ والشخصيات الإسلامية الكبيرة التي كانت تشرف على قيادة كل هذه الأحزاب والتيارات، فمع كل ما يمتلكونه من علم وسعة على أصحابهم إلا أنهم لم يتمكنوا من تربية أناس صالحين يعدونهم لمسك زمام دفة التغيير، هل من المعقول أنهم لم يتمكنوا من تربية عدة أفراد صالحين، فلو أعدت كل حركة مجموعة من الأشخاص الملتزمين بدينهم وسمعة أنفسهم على الأقل ألم يقل الإمام عليه السلام كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا! وسلموهم مسؤولية إدارة الوزارات بما يرضي الله لكنا الآن بأحسن حال، ولحافظوا على مقدرات الناس واقوانهم، لكن مع الأسف لم يتمكن هؤلاء حتى من إعداد هذه النسبة القليلة من الأشخاص الورعين الملتزمين، وإلا لو لم يكن الأمر كذلك فمن الذي يسرق في هذه الوزارات؟ ومن هو المسؤول عن هذا الفساد المستشري في كل مفاصل الدولة؟.

الآن لو سأل سائل: ما هي علاقة ما قلته بغيبة الإمام عليه السلام؟.

نجيب: إن ما قلناه يدخل في صميم الإجابة عن علة الغيبة، تتذكرون أعزائي، الرواية التي نقلناها وتحدثت عن قوم نوح عليه السلام ورواية الإمام الصادق عليه السلام التي فصلت ما سيجري على الشيعة من تمحيص وغربلة، ما قلناه هو عين ما حذرت منه هذه الروايات، فلكم أن تتخيلوا لو خرج الإمام عليه السلام وكان مثل هؤلاء الناس أنصاره وحاملي رايته، تخيل عزيزي القارئ لو كان مثل هؤلاء الناس من مختلف التيارات الإسلامية خرجوا مع الإمام وسلطهم على مقدرات الناس، أكان يستطيع أن يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً؟ أنت أجبني؟ أكان يستطيع أن يملأ الدنيا رحمة ومحبة وتسامحاً؟ أجبني أنت أيضاً؟.

عرفت أن إجابتك كانت بالنفي لأنك تعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه، فكيف لمن

لا يرحم ابن جلدته رحمة الناس جميعاً؟ ومن أين لمن يكدس الأموال وجاره جائع أن يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

أرأيتم من يؤثر الناس على نفسه منهم، وهم يعيشون بقصور كقصور ألف ليلة وليلة والناس يعيشون ببيوت بنوها من صفيح الحصة التموينية.

ومع ذلك لا يزالون يرفعون شعار الإسلام وهذه أم المصائب فأين المسؤولون اليوم ومراجع الأمة من قول علي ابن أبي طالب (عليه آلاف التحية والسلام) لعثمان بن حنيف واليه على البصرة حينما وصله خبر تلبيته لوليمة دعاه إليها أحد وجهاء البصرة، وهي من روائع الآداب التي يرسخها أمير المؤمنين عليه السلام لعلاقة الوالي برعيته، فقد جاء في كتابه الى عثمان بن حنيف: «... وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مَصْفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ بِالْقُرْصِ وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ أَوْ أَنَا أَبِيتُ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ وَحَسْبُكَ ذَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ أَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ وَأَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام وَايْمُ اللَّهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وَتَشْبَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً»[2].

فالإمام الحجة عليه السلام يريد مثل سلمان وأبي ذر والمقداد أو على الأقل ممن توافرت فيهم الشروط التي بينها القرآن الكريم وأحاديثهم المباركة لدعاة التغيير

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) مستدرك الوسائل ج ١٦/ ١٦. شرح نهج البلاغة ج١٦/ ٢٩٤ ومجموعة ورام ج٢/ ٣٦.

والإصلاح حتى يتمكن من الارتقاء بالناس نحو الكمال الحقيقي ولكي يضمن أنه لن يظلم أحداً.

وسيأتيك في الفصل الخامس بيان الشروط التي اشترطها الله على الداعين إليه والمجاهدين في سبيله.

ولكي نعطي الموضوع حقه الذي يستحق، لابد أن نستعرض المراحل التي عاشها الأئمة عليهم السلام وكان من المفروض لهم أن يقوموا بالثورة ضد الطواغيت واجتثاث حزب الشيطان، بيد أنهم لم يفعلوا، فهل يا ترى للموضوع علاقة بعدم وجود الناصر، أم لا؟.

هذا ما سنتعرض له بالبحث والدراسة في الصفحات المقبلة. وسنبدأ بمناقشة الموضوع قرآنياً علنا نجد قانوناً عاماً يوضح عملية النهضة وشروطها.

ومن ثم سنبحث عن الأسباب التي أدت إلى أن يقوم الرسول صلى الله عليه وآله بوجه قريش بعد ثلاث عشرة سنة من القعود عنهم واختيار مبدأ اللا عنف في التعامل مع طغيانهم.

وكذا سيأتي الدور على الأئمة واحداً واحداً بدءاً بأمير المؤمنين عليه السلام الذي قعد لمدة خمس وعشرين سنة ليقوم ويقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بسنوات معدودة.

البحث القرآني

من المؤكد أن الأصل الأول الذي يجب الرجوع إليه في كل مسألة شرعية للبت فيها هو القرآن الكريم، فإن له الكلمة الفصل في كل القضايا التي تهم المسلمين، ومن ثم يأتي دور الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وعترته الهادية كمصدر ثان وكترجمان للقرآن الكريم.

وفي بحثنا عن القانون الذي وضعه الكتاب للتعامل مع هذه القضية والشروط التي اشترطها للقيام وجدنا عدة آيات تتحدث وتبين ذلك. وقد أعجبني الرد الذي قرأته على شبكة الانترنت في موقع السادة مركز الأبحاث العقائدية على ادعاء بعض

المخالفين بأحقية خلافة الأول والثاني لأن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقم بوجههما وقعد عن قتالهما، ويدّعون بأنه لو كان لديه حق لطالب به لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، (حاشا أمير المؤمنين من ذلك). ولأن الرد استدل بالقرآن الكريم ارتأيت آن استشهد به لذلك.

الرد

فقد يلبس الباطل لباس الحق للتمويه والتضليل وقد ينجح في أغلب الأحيان لبساطة عقول الناس أو لحسن ظنهم به وقد ينتصر الباطل أحيانا لوجود أنصار مؤيدين له، فما على الحق إلا الصبر وانتظار وعد الله بأن يزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. وأكبر مثل على ذلك ما حكاه القرآن الكريم في قصة يعقوب وأولاده، إذ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]. وكان من المفروض لو كانوا أهل الصدق أن يقولوا: وما أنت بمؤمن لنا لأنا كاذبون. فما كان من سيدنا يعقوب وهو نبي الله يوحى إليه، إلا أن استسلم إلى باطلهم واستعان بالله على الصبر الجميل رغم علمه بأنهم كاذبون، قال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[2]. وماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك، وهو يواجه أحد عشر رجلاً اتفقوا كلهم على كلمة واحدة ومثلوا مسرحية القميص والدم وكلهم يبكون على أخيهم المفقود.

فهل يكشف يعقوب كذبهم ويدحض باطلهم ويسارع إلى الجب ليخرج ابنه الصغير الحبيب لقلبه، ثم يعاقبهم على فعلتهم الشنيعة؟.

كلا، إن ذلك فعل الجاهلين الذين لا يهتدون بحكمة الله أما يعقوب فهو نبي يتصرف تصرف الحكماء العلماء وقد قال الله في شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ

(١) سورة يوسف، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]، فما كان من علمه وحكمته إلا أن تولى عنهم وقال: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٢]. ولو تصرف يعقوب مع أبنائه كما قدمنا بأن أخرج ابنه من الجب وعنفهم على كذبهم وعاقبهم على جريمتهم لاشتد بغضهم لأخيهم ولوصل بهم الأمر إلى اغتيال أبيهم وربما عبروا عن ذلك بقولهم لأبيهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[٣]. ومن كل هذا نستنتج بأن السكوت في بعض الأوقات مستحب إذا كان في معارضة الباطل مفسدة أو هلاك أو كان في السكوت عن الحق مصلحة عامة ولو آجلة. ولا بد أن يفهم من الحديث النبوي الشريف القائل: الساكت عن الحق شيطان أخرس هذا المدلول الذي يتـ ـ مع العقل ومع كتاب الله المجيد. ولو تتبعنا حياة الرسول ﷺ لوجدناه يسكت في كثير من الأوقات لمصلحة الإسلام والمسلمين حسبما يروى في الصحاح من السيرة النبوية كصلح الحديبية وغيره. ورحم الله أمير المؤمنين علياً عليه السلام الذي سكت بعد وفاة ابن عمه بأبي هو وأمي، وقال في ذلك قولته المشهورة: (وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا). ولو لم يسكت أبو الحسن عن حقه في الخلافة، وقدم في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين، لما كان للإسلام بعد محمد ﷺ أن يعيش أبداً على ما رسمه الله ورسوله.

وهذه هي الحقيقة التي يجهلها أكثر الناس الذين يحتجون علينا دائماً بصحة خلافة أبي بكر وعمر لأن علياً سكت عنهما، ويضيفون كما يحلو لهم: لو كان الرسول ﷺ عين علياً للخلافة بعده لما جاز له أن يسكت عنها، لأنها من حقه والساكت عن الحق شيطان أخرس. هذا ما يقولونه ويرددونه. وهذا لعمري هو الفهم الخاطئ الذي لا يعرف من الحق إلا الذي يتماشى مع ميوله وهواه، ولا يدرك

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

الحكمة التي تتمخض عن ذلك السكوت والمصالح الآجلة التي لا تقدر بقيمة إذا ما قيست بالمصلحة العاجلة نتيجة الثورة على الباطل الذي له أنصار ومؤيدون كثيرون. وإذا كان سكوت رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الحق وقبوله بشروط قريش وباطل المشركين، حتى ثارت ثورة عمر بن الخطاب فقال للرسول: أولست نبي الله حقا؟! أولسنا على الحق وهم على الباطل؟ فلماذا نعطي الدنية في ديننا؟ أقول: إذا كان سكوته ﷺ سلبياً بنظر عمر بن الخطاب وأغلب الصحابة الذين حضروه، فإن الواقع يثبت بلا شك أنه إيجابي لمصلحة الإسلام والمسلمين وإن لم تكن تلك المصلحة عاجلة فقد ظهرت نتائجه الإيجابية بعد عام واحد عندما فتح رسول الله ﷺ مكة المكرمة بدون حرب ولا مقاومة ودخل الناس في دين الله أفواجا عند ذلك استدعى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وأطلعه على نتائج سكوته على الحق والحكمة من وراء ذلك. ولما وجد علي الأنصار لقتال الباطل لم يتوان عن قتال عائشة وجيشها ولم يسكت عند ذلك عن باطلها فماذا تريد أكثر من القتال لدحض باطل عائشة.

لوط عليه السلام يفلسف قعوده عن قتال قومه ومنع إفسادهم

يذكر القرآن الكريم أن لوطاً عليه السلام قعد عن قتال قومه لعلة ذكرتها الآية الآتية، وهي عدم وجود الأنصار والأعوان على منع قومه من الإفساد وعمل المنكر، لذا اتجه بالتعامل معهم إلى مبدأ اللين والنصيحة إلاّ أنهم لما تجاوزوا مرحلة النصح إلى مرحلة اللا عودة ومطالبتهم إياه بتسليم ضيفيه وهو لا يعلم أنهما ملكان مرسلان من قبل الله لإهلاك قومه، نراه يتحسر بشدة متمنياً أن تكون لديه قوة ومنعة لقتال قومه ومعاقبتهم على فسادهم وإفسادهم بأشد العقوبات، لذا قال القرآن على لسانه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1].

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

يقول الشيخ الطوسي في تفسيره لهذه الآية:

ومعناه إني لو قدرت على دفعكم وقويت على منعكم من اضيافي لحلت بينكم وبين ما جئتم له من الفساد. وقوله: «أو آوي إلى ركن شديد»: معناه لو كان لي من استعين به في دفاعكم. وقيل معناه لو كان لي عشيرة. قال الراجز:

يأوي إلى ركن من الأركان، والركن معتمد البناء بعد الأساس، وركنا الجبل جانباه.

وإنما قال هذا القول مع انه كان يأوي إلى الله تعالى، لأنه إنما أراد العدة من الرجال، وإلا، فله ركن وثيق من معونة الله ونصره، إلا انه لا يصح التكليف إلا مع التمكين[١].

أما الشيخ الطبرسي في تفسيره فقال عن الآية: «قال لو أن لي بكم قوة» أي منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن اضيافي «أو آوي إلى ركن شديد» أو أنضم إلى عشيرة منيعة تنصرني وشيعة تمنعني لدفعتكم ولكن لا يمكنني أن أفعل ذلك[٢].

أما السيد الطباطبائي فقال في الميزان ما يلي:

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، يقال: أوى إلى كذا يأوي أويا ومأوى أي انضم إليه، وآواه إليه يؤويه إيواء أي ضمه إليه، والركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر أنه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله وتهييج فتوتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمته في عدم التعرض لضيفه بما يجلب إليه العار والخزي، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد في ما سأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أيأسوه بقولهم: «لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد» لم يبق له إلا أن يظهر ما به من البث والحزن

(١) تفسير التبيان/ج٦.
(٢) تفسير مجمع البيان/ج٥.

في صورة التمني فتمنى أن يكون له منهم قوة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته أو يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم إليهم فيدفعهم بهم.

فقوله: «لو أن لي بكم قوة» أي ليت لي قدرة بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إلي يقوم بنصرتي فأدفعكم به، وقوله: «أو آوي إلى ركن شديد» أي أو كنت أنضم إلى ركن شديد أي عشيرة منيعة يمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

وقيل: إن معنى قوله: «لو أن لي بكم قوة» أتمنى أن يكون لي منعة وقدرة وجماعة أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن اضيافي[١].

والقرآن الكريم يشير إلى أن لوط عليه السلام كان وحيداً في قومه ولم يكن له أعوان، بل لم يكن فيهم مؤمن في كل المدن الأربع حسب الروايات، والأنكى من ذلك أنه حتى أهل بيته لم يكونوا كلهم أعواناً ومؤمنين به، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٣].

احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام بالقرآن

وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بالقرآن حينما سأله البعض عن علة قعوده عن الثلاثة وقيامه على طلحة والزبير وعائشة ومعاوية (عليهم اللعنة)، ونرى أن من المناسب لو اهتدينا بهذا الاحتجاج في هذا الموضع

فعن ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية؟ فبلغ ذلك علياً عليه السلام فأمر أن ينادى الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله وأثنى

(١) الميزان/ج ١٠.
(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٣.

عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم.. كذا وكذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين عليه السلام قد قلنا ذلك. قال: فإن لي بستة من الأنبياء أسوة في ما فعلت. قال الله عزوجل في محكم كتابه: [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة]. قالوا: ومن هم يا أمير المؤمنين؟. قال: أولهم إبراهيم عليه السلام إذ قال لقومه: [وأعتزلكم وما تدعون من دون الله]، فإن قلتم إن إبراهيم عليه السلام اعتزل قومه لغير مكروه أصابه منهم فقد كفرتم، وإن قلتم اعتزلهم لمكروه منهم فالوصي أعذر. ولي بابن خالته لوط أسوة إذ قال لقومه: [لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد] فإن قلتم إن لوطا كانت له بهم قوة فقد كفرتم، وإن قلتم لم يكن له بهم قوة فالوصي أعذر. ولي بيوسف عليه السلام أسوة، إذ قال: [رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه] فإن قلتم إن يوسف دعا ربه وسأله السجن بسخط ربه فقد كفرتم، وإن قلتم إنه أراد بذلك لئلا يسخط ربه عليه فاختار السجن، فالوصي أعذر. ولي بموسى عليه السلام أسوة إذ قال: [ففررت منكم لما خفتكم] فإن قلتم إن موسى عليه السلام فر من قومه بلا خوف كان له منهم فقد كفرتم، وإن قلتم إن موسى عليه السلام خاف منهم فالوصي أعذر. ولي بأخي هارون عليه السلام أسوة، إذ قال لأخيه يا: [ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني] فإن قلتم لم يستضعفوه ولم يشرفوا على قتله فقد كفرتم، وإن قلتم استضعفوه وأشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي أعذر. ولي بمحمد صلى الله عليه وآله أسوة حين فر من قومه ولحق بالغار من خوفهم وأنامني على فراشه، فإن قلتم فر من قومه لغير خوف منهم فقد كفرتم، وإن قلتم خافهم وأنامني على فراشه ولحق هو بالغار من خوفهم فالوصي أعذر[1].

بيان

يشير عليه السلام في قوله عن عزلة إبراهيم عليه السلام والمكروه الذي أصابه من قومه إلى عدم وجود الأنصار المدافعين عنه وعن الحق الذي يمثله، ولو كانوا لما اضطر إلى الاعتزال وعدم مقاتلة المشركين وتغيير منكرهم بيده.

وكذا في الإشارة إلى لوط عليه السلام كما بينا سابقاً. ونفس الأمر عن يوسف عليه السلام

(١) علل الشرائع ج١/ ١٤٩.

فإنه لم يكن ليختار السجن لو كانت هناك منعة يمتنع بسببها عن ظلم نساء مصر وعزيزها، ويبين (سلام الله عليه) أنه من غير المقبول أن يكون سجن يوسف لسخط من الله عليه حاشاه، بل أن السجن كان أمراً اضطر إليه يوسف للهروب من ملاحاة امرأة العزيز ونساء مصر الجامحات

والأمر كذلك في فرار موسى عليه السلام لأنه لو كان يجد في بني إسرائيل من يعينه على المواجهة لفعل ولما ضن بنفسه عن القتل.

أما المسألة في هارون فهي واضحة جدا من خلال الآيات ومن خلال قوله لأخيه وهو ما استشهد به علي عليه السلام في المقام، ي (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)، فالإمام يستشهد بمواقف الأنبياء إلى أن يصل به الدور إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي اضطر إلى أن يلجأ إلى الغار خوفاً من ملاحقة المشركين له وهم يحاولون الضغر به وقتله، ولذلك أنام في فراشه أول فدائي في الإسلام الإمام الهمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبهذا يتم احتجاج أمير المؤمنين (سلام الله عليه) في مسألة قعوده وقيامه.

تنويه

حينما يثبّت الإمام (سلام الله عليه) خوف الأنبياء عليهم السلام ومنهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فيجب أن لا تذهب بنا المذاهب في أن المقصود خوفهم على أنفسهم حباً للحياة، حاشا للرسول والوصي والأنبياء من ذلك، بل أن الخوف متعلقه الحرص على الشريعة والتبليغ للناس وهدايتهم إلى طريق الحق وعتقهم من النار، وذلك لأن الهدى منوط بهم ولا سبيل للناس لمعرفة الطريق لولاهم.

وقد جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار هذا المعنى أي تجسيد، فبالرغم من كثرة إيذاء قريش له إلاّ إنا لم نسمع بأنه دعا عليهم بسوء أبداً، بل إن الأمر على العكس من ذلك، فكلما يزداد أذاهم له يزداد بهم رحمة وحرصاً على هداهم، حتى أن القرآن أنّبه على ذلك إشفاقاً عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

وجاء في مجمع البحرين في مادة بخع ما يلي: بخع، قوله تعالى: لعلك باخع نفسك على آثارهم، أي قاتل نفسك بالغم والوجد عليهم، هو من قولهم بخع نفسه بخعا: أي قتلها غماً ووجداً[١].

وكذا في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٢].

يقول الشيخ الطبرسي في تفسيره: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»، أي لا تهلك نفسك يا محمد عليهم حسرة ولا يغمك حالهم إذ كفروا واستحقوا العقاب وهو مثل قوله «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين» والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر[٣].

وجاء في تفسير الأمثل بيان رائع لهذه الآية المباركة التي تصف حالة رسول الله ﷺ وشدة حرصه وتألمه لضلالة قومه. يقول الشيخ مكارم الشيرازي (دام ظله الوارف): «(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وهذا التعبير يشابه ما ورد في الآية (٣) من سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾».

التعبير بـ «حسرات» الذي هو «مفعول لأجله» لما قبله في الجملة، إشارة إلى أنّه ليس عندك عليهم حسرة واحدة، بل حسرات:

«حسرة» على تضييع نعمة الهداية، «حسرة» على تضييع جوهر الإنسانية، «حسرة» على تضييع حاسّة التشخيص إلى حدّ رؤية القبيح جميلاً، وأخيراً «حسرة» على الوقوع في نار الغضب والقهر الإلهي.

ولكن لماذا لا ينبغي أن تتحسّر عليهم؟! ذلك لأجل (إنّ الله عليم بما يصنعون).

واضح من نبرة الآية شدّة تحرّق الرّسول ﷺ على الضالّين والمنحرفين، وكذلك هي حال القائد الإلهي المخلص يتألّم لعدم تقبّل الناس الحقّ وتسليمهم

(١) مجمع البحرين ج٤/ ٢٩٧.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٣) مجمع البيان/ ج٨.

للباطل، وضربهم بكلّ أسباب السعادة عرض الجدار، إلى حدّ كأنّ روحه تريد أن تفارق بدنه[١].

بعد هذا نعرف أن الرسول ﷺ ليس ضنيناً بنفسه من أجل هداية الناس وإرشادهم لما فيه صلاحهم ونجاتهم من النار، وكذا الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

القرآن وأنصار القائم عليه السلام

عن عبد الأعلى الحلبي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: أصحاب القائم عليه السلام الثلاثمائة والبضعة عشر رجلاً، هم والله الأمة المعدودة التي قال الله في كتابه: «ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة»، قال: يجتمعون له في ساعة واحدة قزعاً كقزع الخريف[٢].

وعنه عليه السلام: ... أصحاب القائم الثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، قال: هم والله الأمة المعدودة التي قال الله في كتابه: (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) قال: يجمعون في ساعة واحدة قزعاً كقزع الخريف[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ قال: «العذاب هو القائم عليه السلام وهو عذاب على أعدائه، والأمة المعدودة هم الذين يقومون معه بعدد أهل بدر»[٤].

إذن بعد هذا كله يتبين أن العلة التي كانت وراء قعود الأنبياء والأوصياء عن مجاهدة أعدائهم وتغيير المنكر بأيديهم كما بينها القرآن الكريم، هي قلة الناصر وعدم التمكين.

وبعبارة أخرى: إن الله تبارك وتعالى كان قد وضع شرطاً للإصلاح هو مشاركة

(١) الأمثل ج١٤/ ٢٩ - ٣٠.
(٢) تفسير نور الثقلين ج٢/ ٣٤٢.
(٣) تفسير العياشي ج٢/ ٥٨.
(٤) معجم أحاديث المهدي ج٥/ ١٦٩.

الناس أنفسهم فيه وعلى الأقل نخبتهم، ولذلك بما أن الغاية هي إقامة الدولة التي تدار بالحكم الإلهي ولا مجال فيها للمنافقين والمنحرفين، والذين هم حتماً سيكونون حجر عثرة في سبيل إعلاء هذا الحق، لذلك لا سبيل سوى إنزال العذاب عليهم ومحقهم وتخليص الناس من شرهم ولأن المشروع متوقف على توفر هذه العدة المعدودة في كل عصر (حسب قانون الأسباب الذي يدير دائرتي التكوين والتشريع)، ولأن الزمان لم يجد بهم في عصر الأئمة عليهم السلام لذا تم تأجيل يوم الفتح يوم خلاص المؤمنين وبالطبع هلاك وعذاب الكافرين إلى يومنا هذا، وكانوا (العدة المعدودة) هم العلة وراء عدم ظهور الإمام (وحسب ما أتتك وما سيأتيك من الأدلة تباعاً)، وبالتالي أصبحوا علة عرضية لعدم إنزال العذاب على الكافرين.

البحث الروائي

في بيان العلة التي كانت وراء قعود أمير المؤمنين عليه السلام عن القيام بحقه وإقامة دولة العدل الإلهي:

لقد كان من المقرر أن يحمل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الراية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأن يقود الناس نحو الهدى والرشاد كما أمر بذلك البارئ عزوجل، وهو أمر معروف. إلاّ أن الأمة غدرت به، وبالحقيقة هم اغتالوا أنفسهم إذ امتنعوا عن الهدى، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يغير الحال إلاّ أن القوم تظاهروا عليه واستضعفوه، والرواية التالية توضح المعنى المقصود: عمرو بن سعد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال يوماً لحذيفة بن اليمان... يا ابن اليمان إن النبي صلى الله عليه وآله تفل في فمي وأمر يده على صدري وقال اللهم أعط خليفتي ووصيي وقاضي ديني ومنجز وعدي وأمانتي ووليي وناصري على عدوك وعدوي ومفرج الكرب عن وجهي ما أعطيت آدم من العلم وما أعطيت نوحا من الحلم وإبراهيم من العترة الطيبة والسماحة وما أعطيت أيوب من الصبر عند البلاء وما أعطيت داود من الشدة عند منازلة الأقران وما أعطيت سليمان من الفهم اللهم لا تخف عن علي شيئا من الدنيا حتى تجعلها كلها بين عينيه مثل المائدة الصغيرة بين يديه اللهم أعطه

جلادة موسى واجعل في نسله شبيه عيسى عليه السلام ، اللهم إنك خليفتي عليه وعلى عترته وذريته الطيبة المطهرة التي أذهبت عنها الرجس والنجس وصرفت عنها ملامسة الشياطين، اللهم إن بغت قريش عليه وقدمت غيره عليه فاجعله بمنزلة هارون من موسى إذ غاب عنه موسى[١].

وسبق أن بينا أن هارون عليه السلام قال: «ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني»، كل ذلك لأنه لم يكن له أنصار يعينونه على القيام.

وفي الرواية نكتة مهمة جداً، هي أن الإمام (سلام الله عليه) أراد أن يبين للمسلمين من خلالها أنه الوريث الشرعي لخط النبوة من آدم وحتى رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه الهيكل الجامع لكل فضائلهم وهديهم.

وصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله للأمير عليه السلام
بضرورة أن يكون معه أعوان، وإلاّ فالقعود أولى

عن سليم بن قيس الهلالي قال سمعت سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: كنت جالسا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضته التي قبض فيها فدخلت فاطمة عليها السلام فلما رأت ما بأبيها صلوات الله عليه وآله من الضعف بكت حتى جرت دموعها على خديها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله ما يبكيك يا فاطمة قالت يا رسول الله أخشى الضيعة على نفسي وولدي بعدك فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله بالبكاء ثم قال يا فاطمة أما علمت أنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وأنه حتم الفناء على جميع خلقه وأن الله تبارك وتعالى اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختارني منهم وجعلني نبياً واطلع إلى الأرض اطلاعة ثانية فاختار منها زوجك فأوحى الله إلي أن أزوجك إياه وأن أتخذه ولياً ووزيراً وأن أجعله خليفتي في أمتي فأبوك خير أنبياء الله

(١) الغيبة للنعماني/ ١٤٣. موسوعة أحاديث أمير المؤمنين علي عليه السلام / اللجنة العليا للتحقيق في مؤسسة نهج البلاغة/ ٢٤٤.

ورسله وبعلك خير الأوصياء... ثم أقبل على علي عليه السلام فقال يا أخي إنك ستبقى بعدي وستلقى من قريش شدة من تظاهرهم عليك وظلمهم لك فإن وجدت عليهم أعواناً فقاتل من خالفك بمن وافقك، وإن لم تجد أعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة فإنك مني بمنزلة هارون من موسى ولك بهارون أسوة حسنة إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش، إياك وتظاهرهم عليك فإنك مني بمنزلة هارون من موسى ومن اتبعه، وهم بمنزلة العجل ومن اتّبعه[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله... قال: يا علي ما أنت صانع لو قد تأمر القوم عليك بعدي، وتقدموا عليك، وبعث إليك طاغيتهم يدعوك إلى البيعة ثم لببت بثوبك تقاد كما يقاد الشارد من الإبل مذموماً مخذولاً محزوناً مهموماً وبعد ذلك ينزل بهذه الذل؟ قال: فلما سمعت فاطمة ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله صرخت وبكت، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله لبكائها، وقال: يا بنية لا تبكين ولا تؤذين جلساءك من الملائكة، هذا جبرئيل بكى لبكائك، وميكائيل وصاحب سر الله إسرافيل، يا بنية لا تبكين فقد بكت السماوات والأرض لبكائك، فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أنقاد للقوم، وأصبر على ما أصابني من غير بيعة لهم، ما لم اصب أعواناً لم أناجز القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم اشهد[٢].

هاتان الروايتان واضحتا الدلالة على أن أمير المؤمنين عليه السلام كان مكلفاً تكليفاً تشريعياً لازماً له من حيث العمل، وهو ضرورة أن يكون له أعوان يقومون بالدفاع عن أهم مكتسبات الأمة وحقها في أن يقودها الولي والخليفة الشرعي المنصوص عليه من قبل السماء، لأن الإمام إمام ويمارس دوره التشريعي والتكويني حسب قانون الأسباب العام الذي جعله الله برنامجاً يدبر به العالم، والإمام يمثل القطب بالنسبة لعمل هذا القانون، شاء الناس ذلك أم أبوا، فكان لزاماً على الأمة أن تكون هي المعنية بالدفاع عن حقها المغتصب قبل أن يكون هذا الحق للإمام عليه السلام.

بمعنى آخر أن المنصب السياسي والخلافة الظاهرية لاتهم الإمام لنفسه أو لنفسها، بل الأهمية وكل الأهمية تكمن في أن هذه الخلافة هي حق الناس في أن

---

(١) كمال الدين ج١/ ٢٦٣. حياة أمير المؤمنين عليه السلام عن لسانه محمد محمديان ج١/ ٢٤١.
(٢) بحار الأنوار ج٢٢/ ٤٩٣.

يقودهم علي وأن يكون مؤدبهم علي وأن يكون دليلهم علي (صلوات الله وسلامه عليك يا علي) لذا كان لا بد ودفاعاً عن هذا الحق أن يقوم الناس أنفسهم للمطالبة به والدفاع عنه، حتى وإن كان أضعف الإيمان أن تقوم القلة القليلة التي تفي بالغرض وتستطيع أن تكون عاملا مؤثرا في تغيير اتجاه المعادلة نحو صاحب الحق الشرعي في أن يكون الهادي للناس لا سيما أنه لا هادي سواه كما اقتضت ذلك الحكمة الإلهية.

ولعل الرواية التالية توضح هذا المطلب:

«قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا فَقَالَ: وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»[1].

نفهم من الإمام عليه السلام أن الخلافة لا تمثل له أي هم شخصي وإنما هي وسيلة يصل من خلالها إلى تحقيق العدالة الاجتماعية وقناة يوصل لهم عبرها كل ما يحتاجون إليه في هجرتهم الدنيوية نحو الآخرة ولقاء الله تعالى.

أمير المؤمنين عليه السلام يبين علة قعوده

سبق أن قدمنا الرواية التي احتج بها الأمير عليه السلام في السابق من الصفحات، تلك التي ساق فيها استدلاله القرآني بمواقف الأنبياء عليهم السلام نقدم الآن إضافة لما سبق، وهو بعض ما ورد عنه في تعليل قعوده عن مجاهدة خلفاء الجور.

عن سليم بن قيس قَالَ: . . . فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوِ اسْتَنْفَرْتَ النَّاسَ فَقَامَ وَخَطَبَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ قَيْسٍ وَغَضِبَ مِنْ قَوْلِهِ: فَمَا مَنَعَكَ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ أَخُو تَيْمٍ وَأَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ وَأَخُو بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَهُمْ أَنْ تُقَاتِلَ وَتَضْرِبَ بِسَيْفِكَ إِلَى، أَنْ قَالَ فَقَالَ عليه السلام: يَا ابْنَ قَيْسٍ اسْمَعِ الْجَوَابَ: لَمْ

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج٢/ ١٨٥.

يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ الْجُبْنُ وَلَا كَرَاهَةٌ لِلِقاءِ رَبِّي وَأَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِي مِنَ الدُّنْيَا وَالْبَقَاءِ فِيهَا وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَهْدُهُ إِلَيَّ أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا الْأُمَّةُ صَانِعَةٌ بَعْدَهُ. . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَعْهَدُ إِلَيَّ إِذَا كَانَ ذَلِكَ قَالَ إِنْ وَجَدْتَ أَعْوَاناً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ وَجَاهِدْهُمْ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَعْوَاناً فَكُفَّ يَدَكَ وَاحْقِنْ دَمَكَ حَتَّى تَجِدَ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ وَكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّتِي أَعْوَاناً وَأَخْبَرَنِي أَنَّ الْأُمَّةَ سَتَخْذُلُنِي وَتُبَايِعُ غَيْرِي وَأَخْبَرَنِي أَنِّي مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى وَأَنَّ الْأُمَّةَ سَيَصِيرُونَ بَعْدَهُ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ وَمَنْ تَبِعَهُ وَالْعِجْلِ وَمَنْ تَبِعَهُ. . وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ أَخِي رَسُولُ اللَّهِ ص لِمَ فَرَّقْتَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي وَقَدْ عَهِدْتَ إِلَيْكَ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَجِدْ أَعْوَاناً أَنْ تَكُفَّ يَدَكَ وَتَحْقِنَ دَمَكَ وَدَمَ أَهْلِكَ وَشِيعَتِكَ[1].

وعن الصادق عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: . . . وان رقبوا الأمر إلى أبي بكر وجاءوا يدعوني إلى بيعته فامتنعت إذ لا ناصر لي وقد علم الله ورسوله أن لو نصرني سبعة من سائر المسلمين لما وسعني القعود[2].

وفي رواية طويلة. . . فأقبل العباس وأخذ بيد علي عليه السلام فمسحها على يد أبي بكر ثم خلوه مغضبا فسمعته يقول ورفع رأسه إلى السماء اللهم إنك تعلم أن النبي ﷺ قد قال لي إن تموا عشرين فجاهدهم وهو قولك في كتابك: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[3] قال وسمعته يقول اللهم وإنهم لم يتموا عشرين حتى قالها ثلاثاً ثم انصرف[4]. وهذه أيضا ترجع العلة إلى عدم وجود الناصر.

وفي رواية توضح محاورة جرت بين أمير المؤمنين عليه السلام وبين الأول بمحضر من بعض المسلمين وفيهم الشيعة الأوائل، جاء فيها: فقال علي عليه السلام: يا زبير ويا سلمان وأنت يا مقداد أذكركم الله وبالإسلام أسمعتم رسول الله يقول ذلك لي إن فلاناً وفلاناً حتى عد هؤلاء الخمس قد كتبوا بينهم كتاباً وتعاهدوا وتعاقدوا على ما

---

(١) مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج١١/ ٧٥. كتاب سليم بن قيس/ ٦٦٤ و٩١٩ وإرشاد القلوب ج٢/ ٣٩٥.

(٢) الهداية الكبرى/ ٤٠٨.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٤) الاختصاص للشيخ المفيد/ ١٨٧.

صنعوا؟ قالوا: اللهم نعم قد سمعنا، يقول ذلك لك، فقلت بأبي أنت يا رسول الله فما تأمرني أفعل إذا كان ذلك فقال لك إن وجدت عليهم أعواناً فجاهدهم، ونابذهم، وإن لم تجد أعواناً فبايعهم واحقن دمك. فقال علي عليه السلام: أما والله لو أن أولئك الأربعين رجلاً الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتك والله[1]. ونفس الرواية المتقدمة ولكن في تفصيل أكثر: عن إسحاق بن موسى، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام قال: خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه خطبة بالكوفة... فقلت: يا رسول الله فما تعهد إلي إذا كان كذلك؟ فقال: إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم، وإن لم تجد أعواناً فكف يدك واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً. فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله اشتغلت بدفنه والفراغ من شأنه، ثم آليت يميناً أني لا أرتدي إلا للصلاة حتى أجمع القرآن، ففعلت، ثم أخذت بيد فاطمة وابني الحسن والحسين ثم درت على أهل بدر وأهل السابقة فناشدتهم حقي ودعوتهم إلى نصري، فما أجابني منهم إلا أربعة رهط: سلمان وعمار والمقداد وأبو ذر، وذهب من كنت أعتضد بهم على دين الله من أهل بيتي، .. والذي بعث محمداً بالحق لو وجدت يوم بويع أخو تيم أربعين رهطاً لجاهدتهم في الله إلى أن أبلي عذري[2].

إيضاحات في نهج البلاغة

ومن خطبة له وهي المعروفة بالشقشقية يقول عليه السلام: «أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج ٢٦/ ١٨٨.

(٢) الاحتجاج ج١/ ١٩١. ومستدرك الوسائل ج١١/ ٧٤ وكتاب سليم بن قيس/ ٦٦٧ وبحار الأنوار ج٢٩/ ٤٢٠.

الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً . .» واليد الجذاء . . بمعنى المقطوعة والطخية قطعة من الغيم والسحاب وقوله عمياء تأكيد لظلام الحال واسودادها يقولون مفازة عمياء أي يعمى فيها الدليل[1].

يبين الإمام عليه السلام هذه المسألة المأساة بأوضح عبارة، فيقول: أنا بين خيارين لا ثالث لهما، فأما أن أقاتل بيد مقطوعة (جذاء) والنتيجة معروفة هي القتل، لا لعلي بن أبي طالب عليه السلام شخصاً وإنما لشريعة محمد صلى الله عليه وآله ولكل قيم السماء، أو أصبر على ما سألاقيه من ظلم وجور سيقع علي، وفترة سوداء مظلمة من الفتن والجهل والتخاذل بالنسبة لأكثر الناس، كما صبر دليلي ومرشدي محمد صلى الله عليه وآله والأنبياء من أولي العزم قبله.

واليد الجذاء (المقطوعة) كناية عن عدم وجود الناصر فكأنه يقول، أصبحت كالذي يريد أن يقاتل بيد مقطوعة لا طاقة لها على حمل السيف، وهي بطبيعة الحال يد خاسرة للمعركة فعندها يكون الصبر أولى ولاسيما أن الحاجة لوجوده عليه السلام ما زالت حاجة ماسّة لمراقبة الإسلام الفتي والمسلمين الذين ترنحوا من أول ضربة تلقوها من عصبة الفتن والنفاق المتحدة، ولعل الوضع سيحتاج إلى تضحية بالنفس وعندها سيكون علي جاهزا للفداء كما فعل ولده سيد الشهداء حينما وجد أن إيقاظ الأمة من غفلتها يتطلب أن يسفك دمه الطاهر فقدمه من دون تردد ولا وجل.

وهنا يطرح السؤال الآتي:

ما الذي تغير في زمن خلافته الظاهرية عليه السلام حتى قام، ورأى أن القعود بعدُ لا يجوز، فقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟.

الجواب

لقد ورد الجواب عن هذا السؤال في رواية إسحاق بن موسى المتقدمة، والتي فيها يبين الإمام عليه السلام للأشعث بن قيس المنافق علة قعوده عن المطالبة بحقه، ولأجل الفائدة نأتي بها مرة أخرى.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١/ ١٥١.

عن إسحاق بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: خطب أمير المؤمنين خطبته بالكوفة فلمّا كان في آخر كلامه قال: إنّي لأولى الناس بالناس، وما زلت مظلوماً منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، فقام الأشعث بن قيس، فقال: يا أمير المؤمنين لم تخطبنا خطبة منذ قدمت العراق إلاّ وقلت: والله إنّي لأولى الناس بالناس، وما زلت مظلوماً منذ قبض رسول الله، ولمّا ولّى تيم وعديّ ألا ضربت بسيفك دون ظلامتك؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: يا بن الخمّارة، قد قلت قولاً فاستمع، والله ما منعني الجبن ولا كراهيّة الموت، ولا منعني ذلك إلاّ عهد أخي رسول الله، خبّرني وقال: يا أبا الحسن إنّ الأُمّة ستغدر بك وتنقض عهدي، وأنّك منّي بمنزلة هارون من موسى، فقلت: يا رسول الله فما تعهد إليّ إذا كان كذلك؟ فقال: إن وجدت أعواناً، فبادر إليهم وجاهدهم؛ وإن لم تجد أعواناً، فكفّ يدك واحقن دمك حتّى تلحق بي مظلوماً.

فهذه علة القعود، أما سبب انتفائها وقيامه لمجاهدة الناكثين والفئات التي تلي، هو ما يوضحه عليه السلام في هذه الرواية:

وهي كتاب بعثه الأمير عليه السلام لواليه على البصرة... «وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالصنو من الصنو والذراع من العضد والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها...»[1].

يتضح من هذه الرواية أن الإمام عليه السلام ينتظر الفرصة التي تمكنه من رقاب المنافقين المغتصبين، فعلى ماذا تعتمد هذه الفرصة؟ وما الذي ينتظره عليه السلام للقيام؟.

يأتينا الجواب من خلال قوله الآتي عليه السلام:

أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الناصر ولزوم الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على أولياء الأمر ألا يقروا على كظة ظالم أو سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفوا دنياهم أزهد عندي من عفطة عنز[2].

---

(١) السياسة من واقع الإسلام السيد صادق الشيرازي/ ٣٦١.

(٢) الإرشاد للمفيد ج١/ ٢٨٩. علل الشرائع ج١/ ١٥١، الاحتجاج ج١/ ١٩٤، الأمالي للطوسي/ ٣٧٤.

يؤكد أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) ما نريد إثباته ونقول به، وهو توقف القيام على وجود الناصر، وهذه الحجة أسسها القرآن الكريم كما بيّنا، وأستدل بها أمير المؤمنين عليه السلام على حركته من حيث القعود والقيام فكان أحد مصاديقها الواضحة، ويجري هذا القانون أو السنة كما سيصفها الإمام الحسن عليه السلام كما سيأتيك، على حركة جميع الأئمة عليهم السلام من دون استثناء وصولاً إلى حركة إمام زماننا الحجة بن الحسن (أرواحنا وأرواح العالمين له الفداء).

إن أمير المؤمنين عليه السلام يقر هنا أن الحجة ألزمته عند توفر الناصر له، على مجاهدة المبطلين، فلم يبق أمامه عليه السلام إلاّ القيام وإبلاء العذر أمام الله تبارك وتعالى في المحاولة لتغيير المنكر باليد بعد توفر شرطه، وهو اليد المبسوطة.

بعد أن ظهر أن من الأركان الأساسية للقيام بوجه الطغاة وإعلان الثورة على الفساد، هو الحاجة إلى أعوان وأنصار مخلصين قادرين على التغيير، وتبيّن مقدار أهمية وجودهم في التأثير على حركتي أمير المؤمنين عليه السلام في قعوده وقيامه سلباً وإيجاباً، لذا سنسير مع هذه القاعدة لنرى مدى تأثيرها في حركات الأئمة عليهم السلام وهم المعنيون بالقيام وقيادة الأمة نحو هديها وصلاحها والقضاء على الفساد بجميع صوره.

حركة الإمام الحسن عليه السلام

إن من المعروف تاريخيا حتى وإن حاول البعض أن يطمس ذلك أن الإمام الحسن عليه السلام قد قاد الأمة بعد أبيه لمدة ستة أشهر تقريباً بعد أن بايعه المسلمون، بيد أن الأمور ما لبثت أن خرجت من يده بعد انفراط عقد الذين بايعوه طمعاً بدنيا معاوية وكراهية الموت.

أما ما السبب الذي دعا الإمام إلى تخليه عن الخلافة لصالح معاوية، هذا ما توضحه الرواية التالية: عن الحارث الهمداني قال: لما مات علي عليه السلام جاء الناس إلى الحسن بن علي عليهما السلام فقالوا له: أنت خليفة أبيك ووصيه ونحن السامعون المطيعون لك فمرنا بأمرك قال عليه السلام: كذبتم والله ما وفيتم لمن كان خيرا مني

فكيف تفون لي أو كيف أطمئن إليكم ولا أثق بكم إن كنتم صادقين فموعد ما بيني وبينكم معسكر المدائن فوافوني هنالك. فركب وركب معه من أراد الخروج وتخلف عنه خلق كثير لم يفوا بما قالوه وبما وعدوه وغروه كما غروا أمير المؤمنين عليه السلام من قبله. فقام خطيباً وقال: قد غررتموني كما غررتم من كان قبلي، مع أي إمام تقاتلون بعدي، مع الكافر الظالم الذي لم يؤمن بالله ولا برسوله قط ولا أظهر الإسلام هو ولا بنو أمية إلا فرقاً من السيف ولو لم يبق لبني أمية إلا عجوز درداء لبغت دين الله عوجاً وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم وجه إليه قائداً في أربعة آلاف وكان من كندة وأمره أن يعسكر بالأنبار ولا يحدث شيئاً حتى يأتيه أمره فلما توجه إلى الأنبار ونزل بها وعلم معاوية بذلك بعث إليه رسلاً وكتب إليه معهم أنك إن أقبلت إلي وليتك بعض كور الشام أو الجزيرة غير منفس عليك.

وأرسل إليه بخمسمائة ألف درهم فقبض الكندي عدو الله المال وقلب على الحسن عليه السلام وصار إلى معاوية في مائتي رجل من خاصته وأهل بيته. وبلغ الحسن عليه السلام ذلك فقام خطيباً وقال: هذا الكندي توجه إلى معاوية وغدر بي وبكم وقد أخبرتكم مرة بعد أخرى أنه لا وفاء لكم أنتم عبيد الدنيا وأنا موجه رجلاً آخر مكانه وأنا أعلم أنه سيفعل بي وبكم ما فعل صاحبه لا يراقب الله فيّ ولا فيكم. فبعث إليه رجلاً من مراد في أربعة آلاف وتقدم إليه بمشهد من الناس وتؤكد عليه وأخبره أنه سيغدر كما غدر الكندي فحلف له بالأيمان التي لا تقوم لها الجبال أنه لا يفعل فقال: الحسن عليه السلام إنه سيغدر. فلما توجه إلى الأنبار أرسل معاوية إليه رسلاً وكتب إليه بمثل ما كتب إلى صاحبه وبعث إليه بخمسمائة ألف درهم ومنّاه أي ولاية أحب من كور الشام أو الجزيرة فقلب على الحسن عليه السلام وأخذ طريقه إلى معاوية ولم يحفظ ما أخذ عليه من العهود وبلغ الحسن عليه السلام ما فعل المرادي. فقام خطيبا وقال: قد أخبرتكم مرة بعد مرة أنكم لا تفون لله بعهود وهذا صاحبكم المرادي غدر بي وبكم وصار إلى معاوية. . . فقالوا إن خانك الرجلان وغدرا فإنا مناصحون لك. فقال لهم الحسن عليه السلام لأعودن هذه المرة فيما بيني وبينكم وإني لأعلم أنكم غادرون والموعد ما بيني وبينكم أن معسكري بالنخيلة فوافوني هناك والله لا تفون لي بعهد ولتنقضن الميثاق بيني وبينكم، ثم إن الحسن عليه السلام أخذ طريق النخيلة فعسكر عشرة أيام فلم يحضره إلا أربعة آلاف فانصرف إلى الكوفة فصعد المنبر

وقال: يا عجباً من قوم لا حياء لهم ولا دين مرة بعد مرة ولو سلمت إلى معاوية الأمر فأيم الله لا ترون فرجاً أبداً مع بني أمية والله ليسومنكم سوء العذاب حتى تتمنوا أن يلي عليكم حبشي، ولو وجدت أعواناً ما سلمت له الأمر لأنه محرم على بني أمية فأف وترحا يا عبيد الدنيا، وكتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية بأنا معك وإن شئت أخذنا الحسن وبعثناه إليك ثم أغاروا على فسطاطه وضربوه بحربة فأخذ مجروحاً. ثم كتب جواباً لمعاوية إن هذا الأمر لي والخلافة لي ولأهل بيتي وإنها لمحرمة عليك وعلى أهل بيتك سمعته من رسول الله ﷺ، لو وجدت صابرين عارفين بحقي غير منكرين، ما سلمت لك ولا أعطيتك ما تريد وانصرف إلى الكوفة[1].

الرواية تكشف عن مدى الألم الذي قاساه الإمام الحسن عليه السلام بسبب ابتلائه بأناس لا يعرفون معنى الوفاء بعد أن أخذهم الوهن وتشرب في نفوسهم وعقائدهم وأخلاقهم، كما أنه يؤكد (سلام الله عليه) بأنه لو كان له أنصار صابرون عارفون بحقه المنصوص عليه من قبل السماء، لما سلم الأمر إلى معاوية. وفي رواية طويلة أخذنا منها موضع الحاجة، وهي عبارة عن حوار جرى بين الإمام الحسن عليه السلام وبين حجر بن عدي، لما قال له في الأولى السلام عليك يا أمير المؤمنين، وعاتبه الحسن عليه السلام على ذلك، وفي الثانية سلم بالصيغة التي ستأتي في بداية الرواية:

... فقال له السلام عليك يا مذل المؤمنين فضحك في وجهه وقال والله يا حجر هذه الكلمة لأسهل علي واسر إلى قلبي من كلمتك الأولى فما شأنك؟ أتريد أن تقول إن خيل معاوية قد أشرفت على الأنبار وسوادها وأتى في مائة ألف رجل في هذين المصرين يريد البصرة والكوفة، فقال حجر يا مولاي ما أردت أن أقول إلاّ ما ذكرته، فقال: والله يا حجر لو أني في ألف رجل لا والله إلا مائتي رجل لا والله إلا في سبع نفر لما وسعني تركه، ولقد علمتم أن أمير المؤمنين دخل عليه ثقاته حين بايع أبا بكر فقالوا له مثلما قلتم لي فقال لهم مثلما قلت لكم فقام سلمان والمقداد وأبو ذر وعمار وحذيفة بن اليمان وخزيمة بن ثابت وأبو الهيثم مالك بن التيهان

(١) الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي ج٢/ ٥٧٤ ٥٧٦.

فقالوا: نحن لك شيعة ومن قال بنا شيعة لك مصدقون الله في طاعتك فقال لهم حسبي بكم قالوا وما تأمرنا قال إذا كان غدا فاحلقوا رؤوسكم وأشهروا سيوفكم وضعوها على عواتقكم وبكروا إلي فإني أقوم بأمر الله ولا يسعني القعود عنه فلما كان من الغد بكر إليه سلمان والمقداد وأبو ذر وقد حلقوا رؤوسهم وأشهروا سيوفهم وجعلوها على عواتقهم ومعهم عمار بن ياسر وقد حلق نصف رأسه وشهر نصف سيفه، فلما قعدوا بين يديه عليه السلام نظر إليهم، وقال لعمار يا أبا اليقظان من يشتري نفسه على نصر دينه يبقى ولا يخاف، قال: يا أمير المؤمنين خشيت وثوبهم علي وسفك دمي، فقال: اغمدوا سيوفكم فوالله لو تم عددكم سبعة رجال لما وسعني القعود عنكم وتالله يا حجر إني لعلى ما كان عليه أبي أمير المؤمنين لو أطعتموني، فخرج حجر واجتمع إليه وجوه قبائل الكوفة فقالوا إنا قد امتحنا أهل مصرنا فوجدناهم سامعين مطيعين وهم زهاء ثلاثين ألف رجل فقم بنا إلى سيدنا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نبايعه بيعة مجددة ونخرج بين يديه ولا ندع ابن هند يعبر علينا وقوائم سيوفنا في أيدينا فجاؤوا إلى الحسن عليه السلام فخاطبوه بما يطول شرحه فقال لهم والله ما تريدون إلا انقطاع الجبل بي حتى تريحوا معاوية مني ولئن خرجت معكم بالله حتى أبرز عن هذا المصر ليرغبنكم معاوية وليدبر على رجل منكم يرغبه في قتلي بالمال الكثير ويسأله اغتيالي بطعنة أو ضربة فيضربني ضربة يجرحني بها ولا يصل إلي قالوا بأجمعهم تالله يا ابن رسول الله لا تقل هذا فنقتل أنفسنا وقد قلدناك دمنا فقال أبرزوا إلى المدائن حتى تنظروا فبرزوا وساروا حتى وردوا المدائن فعسكر بها في ليلة مقمرة وقد كان معاوية كاتب يزيد بن سنان البجلي ابن أخي جرير بن عبد الله البجلي وبذل له مالاً على اغتيال الحسن وقتله فأخذ له سيفاً وأحتمل تحت أثوابه وتوجه نحو الحسن عليه السلام فخاف على نفسه فرجع فرمى السيف وأخذ الرمح معه فضاق به صدره فرده خوفاً وأخذ حربة مرهفة وأقبل يتوكأ عليها حتى انتهى إلى الفسطاط المضروب للحسن بن علي عليه السلام فوقف غير بعيد ونظر إليه ساجداً وراكعاً والناس نيام فرمى بالحربة فأثبتها فيه وولى هاربا فتمم صلاته والحربة تهتز في بدنه ثم انتقل من صلاته ونبّه من حوله وصاحوا الناس فجاؤوا حتى نظروا إلى الحربة

تهتز في بدنه فقال لهم ها أنا يا أهل الكوفة أخبرتكم ما تفعلونه وكذبتموني وأخذ الحربة وصاح بالرحيل وانكفأ من المدائن جريحاً[١].

لا أوضح من هذه الرواية شاهداً على تخاذل أصحابه وعدم رغبتهم بالقتال، بل أنه عليه السلام قد كشف لهم أن التخاذل والخيانة وصل بهم إلى حد أن في نيتهم تسليمه لمعاوية إن هو أصر على القتال.

وللمزيد من الإيضاح نورد الرواية الآتية التي تسلط الضوء على الظرف المحزن الذي كان يمر به الإمام الحسن عليه السلام وكذا يشير إلى ما قلنا أنه سيأتيك لاحقاً، في ضرورة وجود الأنصار المخلصين لنجاح المشروع الإلهي، وأنها سنة عامة تتكرر في كل زمان ومكان كما يقرر ذلك القرآن الكريم في قضية هارون عليه السلام مع بني إسرائيل، والتي يستشهد بها الأئمة كثيراً لأهميتها: يقول الإمام الحسن عليه السلام في كلمة يوجهها لمعاوية... وإذا ما طمعت يا معاوية فيها ولكنها لما أخرجت سالفاً من معدنها وزحزحت عن قواعدها تنازعتها قريش بينها وترامتها كترامي الكرة حتى طمعت فيها أنت يا معاوية وأصحابك من بعدك وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما ولت أمة أمرها رجلاً قط وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا وقد تركت بنو إسرائيل وكانوا أصحاب موسى عليه السلام هارون أخاه وخليفته ووزيره وعكفوا على العجل وأطاعوا فيه سامريهم وهم يعلمون أنه

---

(١) الهداية الكبرى للحسن بن حمدان الخصيبي/ ١٩٣ - ١٩٤. وجاء في تحف العقول في نفس المضمون: وصيته عليه السلام لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول: قال أبو جعفر قال لي الصادق ع إن الله جل وعز عير أقواما في القرآن بالإذاعة فقلت له جعلت فداك أين قال: قال قوله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣] ثم قال المذيع علينا سرنا كالشاهر بسيفه علينا رحم الله عبدا سمع بمكنون علمنا فدفنه تحت قدميه والله إني لأعلم بشراركم من البيطار بالدواب، شراركم الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دبرا ولا يحفظون ألسنتهم اعلم أن الحسن بن علي عليه السلام لما طعن واختلف الناس عليه السلام الأمر لمعاوية فسلمت عليه الشيعة عليك السلام يا مذل المؤمنين فقال ع ما أنا بمذل المؤمنين ولكني معز المؤمنين إني لما رأيتكم ليس بكم عليهم قوة سلمت الأمر لأبقى أنا وأنتم بين أظهرهم كما عاب العالم السفينة لتبقى لأصحابها وكذلك نفسي وأنتم لنبقى بينهم. تحف العقول/ ٣٠٨.

خليفة موسى عليه السلام وقد سمعت هذه الأمة رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك لأبي إنه مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي وقد رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله حين نصبه لهم بغدير خم وسمعوه ونادى له بالولاية ثم أمرهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وآله حذراً من قومه إلى الغار لما أجمعوا على أن يمكروا به وهو يدعوهم لما لم يجد عليهم أعواناً ولو وجد عليهم أعواناً لجاهدهم وقد كف أبي يده وناشدهم واستغاث أصحابه فلم يغث ولم ينصر ولو وجد عليهم أعواناً ما أجابهم وقد جعل في سعة كما جعل النبي صلى الله عليه وآله في سعة وقد خذلتني الأمة وبايعتك يا ابن حرب ولو وجدت عليك أعواناً يخلصون ما بايعتك وقد جعل الله عزوجل هارون في سعة حين استضعفه قومه وعادوه كذلك أنا وأبي في سعة من الله حين تركتنا الأمة وبايعت غيرنا ولم نجد عليه أعواناً وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً[1].

(١) الأمالي للطوسي/ ٥٦٦. نقلاً عن كتاب البرهان، بحار الأنوار ج٦٩/ ١٥٢ و١٥٧

حركة الإمام الحسين عليه السلام

كان من المقدر أن يكون الإمام الحسين عليه السلام أول المعيدين للحق المسلوب إلى أصحابه الشرعيين، بيد أن خذلان الناس منعه من الوصول إلى ذلك. هذا ما تدل عليه الآثار الواردة عنهم عليهم السلام ولكي نفهم ذلك بشكل جيد، نسأل هل أن الإمام الحسين ولد ليقود الناس ويهديهم ويؤمهم إلى الله، أم ولد ليقتل ويسيل دمه دفاعاً عن الشريعة؟ ومن خلال الإجابة عن هذا السؤال سوف نسلط الضوء على الجديد الذي سنستفيده من الروايتين أدناه وله علاقة بالبداء.

فعن أبي حمزة الثمالي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام إن علياً عليه السلام كان يقول إلى السبعين بلاء وكان يقول بعد البلاء رخاء وقد مضت السبعون ولم نر رخاء فقال أبو جعفر عليه السلام يا ثابت إن الله تعالى كان وقت هذا الأمر في السبعين فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على أهل الأرض فأخره إلى أربعين ومائة سنة فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السر فأخره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتا عندنا ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1] قال أبو حمزة وقلت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال قد كان ذلك[2].

وعن عثمان النواء قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان هذا الأمر فيّ فأخره الله ويفعل بعد في ذريتي ما يشاء»[3].

إن هاتين الروايتين تحتويان في ما تحتويانه على موضوع هو من أعقد المواضيع التي اشتملت عليها الشريعة المقدسة، وهو موضوع البداء، بيد أننا لسنا في صدد

(١) سورة الرعد: الآية: ٣٩.
(٢) مستدرك الوسائل ج١٢/ ٣٠١. تفسير العياشي ج٢/ ٢١٨، الخرائج والجرائح ج١/ ١٧٩.
(٣) الغيبة للطوسي/ ٤٢٩.

مناقشة هذا الموضوع في هذا البحث المختصر، لذا سنستدل به (أي البداء) فقط للتأشير على العلة في حدوثه.

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لا بد لنا أن نوضح مسألة تتعلق بملابسات واقعة الطف، تلك الواقعة التي ما زلنا نعيش تداعياتها حتى هذه اللحظة بكل أبعادها.

الحقيقة أننا ومن خلال تعايشنا مع الناس لاحظنا أن هناك فهما خاطئاً لدى العموم منهم يتعلق بقيام الإمام الحسين عليه السلام وإعلانه الثورة، فإن المتصور لديهم أن الله خلق الحسين عليه السلام للشهادة فقط، وأنه (روحي فداه) لم يخطط للنصر على أعدائه وإنما كان يخطط للشهادة فقط، والغريب أنهم لم يحاولوا أن يفهموا لماذا! ولم يتدبروا السبب الذي دعاه لذلك، ومن جهتهم لم يؤد خطباء المنبر الحسيني دورهم الأهم وهو تعريف الأمة بحقيقة ثورة الإمام الحسين عليه السلام وإفهامهم ملابساتها، والكثير من القضايا التي بقيت من دون بحث، ومثال على ذلك قوله عليه السلام: «شاء الله أن يراني قتيلاً... وشاء أن يراهن سبايا، فما معنى هذه المشيئة؟ وهل لهذه العبارة علاقة بموضوعة الجبر؟.

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء محمد بن الحنفية إلى الحسين عليه السلام في الليلة التي أراد الحسين الخروج في صبيحتها عن مكة فقال له: يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى فإن رأيت أن تقيم فإنك أعز من بالحرم وأمنعه فقال: يا أخي قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية بالحرم فأكون الذي يستباح به حرمة هذا البيت فقال له ابن الحنفية: فإن خفت ذلك فصر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به ولا يقدر عليك أحد فقال: أنظر في ما قلت فلما كان السحر ارتحل الحسين عليه السلام فبلغ ذلك ابن الحنفية فأتاه فأخذ بزمام ناقته وقد ركبها فقال يا أخي: ألم تعدني النظر في ما سألتك قال: بلى قال: فما حداك على الخروج عاجلاً، قال: أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما فارقتك فقال: يا حسين اخرج فإن الله قد شاء أن يراك قتيلا فقال محمد بن الحنفية ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

على مثل هذا الحال قال: فقال لي صلوات الله عليه إن الله قد شاء أن يراهن سبايا فسلم عليه ومضى[١].

وللإجابة عن السؤال الذي طرحناه في بداية الموضوع، نقول: إن الأئمة عليهم السلام خلقهم الله تبارك وتعالى ليقودوا الخلق نحو كمالهم وسعادتهم التي جعلها الله في عبادته، فالوظيفة الأصلية هي هداية الخلق نحو خالقهم والسير بهم إلى الصراط المستقيم، لذا فإن وظيفة الإمام تقتضي الحياة لا الموت، نعم قد يشكل علينا البعض بقولهم إن الحسين عليه السلام باستشهاده قد وهب الحياة للكثير من المؤمنين لا بل لجميع الأحرار في العالم.

ونقول: نعم نحن لا ننكر ذلك، بيد أن المشروع أكبر من أن يكون الإمام الحسين عليه السلام سبباً لهداية الآلاف والملايين، لأن الذي نعتقده أن الإمام العلة في هداية كل شيء، لأنه قانون الهداية الذي تجلى بالهيكل العلوي والهيكل الحسني والحسيني... إلى آخر الأئمة المعصومين عليهم السلام لذا لا نستغرب من الحديث الوارد عن الرسول الأكرم بأن أمير المؤمنين بُعث مع كل نبي سراً، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: يا علي! إن الله تعالى قال لي: يا محمد بعثت عليا مع الأنبياء باطنا ومعك ظاهراً[٢]. وقال أيضاً: ما من نبي إلا وبعث معه علي باطناً ومعي ظاهراً[٣]. وقال صلى الله عليه وآله: بعث علي مع كل نبي سرا ومعي جهراً[٤]. وعلى هذا فإننا نعتقد أن الإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام ما هو إلاّ تجلّ وظهور لهذا القانون بهذا الهيكل البشري، لذا نحن نشكل على من يقول إن دولة الإمام المهدي عليه السلام دولة عالمية، ونقول بل إنها دولة كونية ستعم الكون بأسره.

وتأسيساً على هذا نقول: إن المقدر للإمام الحسين عليه السلام كان الحياة، كما أن الأصل في مسألة إمامته هو القيام بواجبه في تعليم الناس وتأديبهم وتربيتهم وفق

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس/ ٦٤.

(٢) الإمام علي/ أحمد الرحماني الهمداني/ ٨٧ نقلاً عن الأنوار النعمانية للجزائري ج١/ ٣٣٠. قصص الأنبياء للجزائري/ ٩١.

(٣) الإمام علي/ أحمد الرحماني الهمداني/ ٨٧ نقلاً عن المجلي لابن أبي جمهور/ ٣٦٨.

(٤) الإمام علي/ أحمد الرحماني الهمداني/ ٨٧ نقلاً عن المجلي لأبن أبي جمهور/ ٣٠٩.

الطريقة الإسلامية التي تضمن إيصالهم إلى مراد الله من الخلق، وهو أن يعرفوه، فإن عرفوه عبدوه، وإن عبدوه أوصلهم إلى سعادة الأبد، كما ورد عنهم عليهم السلام.

ثورة الإمام الحسين عليه السلام من المشيئة إلى القضاء

إن المتتبع لمجمل أحاديث الإمام الحسين عليه السلام في المدة التي امتدت من لحظة خروجه إلى آخر لحظات حياته الشريفة (روحي فداه)، يلاحظ أن كل هذه المدة أو هذه الحركة الثورية انطوت تحت دائرتين، هما دائرتا المشيئة والقضاء، فحركته عليه السلام ابتدأت بقوله «شاء الله أن يراني قتيلاً.. وأن يراهن سبايا»، وانتهت بقوله (سلام الله عليه) (رضا بقضائك وتسليما لأمرك)[1]، أي أن حركته امتدت لما بين المشيئة والقضاء، والسؤال المهم هو، لماذا غير الإمام الحسين عليه السلام صيغة الكلام من المشيئة في أول الأمر، إلى القضاء عند النهاية والاستعداد للرحيل من هذا العالم؟.

وللإجابة عن هذا السؤال، يجب علينا أولاً أن نحاول أن نفهم معنى المشيئة والمائز بينها وبين القضاء، ومن ثم علاقتها بحركة الإمام الحسين عليه السلام.

وعند الرجوع للروايات الشريفة التي تتحدث عن موضوع المشيئة نراها تحدد بداية الفعل بها، وأنها الركن الأصلي في بداية أي فعل، أما القضاء فهو وصوله إلى درجة الحتم والإبرام، كما في الرواية التي وردت عن عالم أهل البيت عليهم السلام:

عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْهَاشِمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَأَرَادَ وَقَدَّرَ وَقَضَى قُلْتُ مَا مَعْنَى شَاءَ قَالَ ابْتِدَاءُ الْفِعْلِ قُلْتُ مَا مَعْنَى قَدَّرَ قَالَ تَقْدِيرُ الشَّيْءِ مِنْ طُولِهِ وَعَرْضِهِ، قُلْتُ مَا مَعْنَى قَضَى، قَالَ إِذَا قَضَى أَمْضَاهُ فَذَلِكَ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ[2].

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ للريشهري/ ٢٤٨.
(٢) الكافي ج١/ ١٥٠.

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال ليونس مولى علي بن يقطين «يا يونس لا تتكلم بالقدر، قال: إني لا أتكلم بالقدر ولكن أقول: لا يكون إلا ما أراد الله وشاء وقضى وقدر فقال ليس هكذا أقول، ولكن أقول: لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى ثم قال: أتدري ما المشية، فقال: لا، فقال: همّه بالشيء أو تدري ما أراد، قال: لا، قال: إتمامه على المشية فقال: أو تدري ما قدّر قال: لا قال: هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء ثم قال: إن الله إذا شاء شيئا أراده وإذا أراده قدّره وإذا قدّره قضاه وإذا قضاه أمضاه»[1].

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدّر وقضى قال: قلت: فما معنى شاء قال ابتداء الفعل قلت فما معنى أراد قال الثبوت عليه قلت فما معنى قدر قال تقدير الشيء من طوله وعرضه قلت: فما معنى قضى قال: إذا قضاه أمضاه فذلك الذي لا مرد له[2].

وعن يونس أيضاً قال: قال الرضا عليه السلام . . . أتدري ما المشية يا يونس قلت لا قال هو الذكر الأول أتدري ما الإرادة قلت لا قال العزيمة على ما شاء الله وتدري ما التقدير قلت لا قال هو وضع الحدود من الآجال والأرزاق والبقاء والفناء وتدري ما القضاء قلت لا قال هو إقامة العين ولا يكون إلا ما شاء الله في الذكر الأول[3].

معنى المشيئة

ومن أجل أن نفهم المطلب بشكل جيد لابد لنا أن نبين ونوضح معنى المشيئة المشار إليها في الروايات الشريفة.

كما قرأنا في الروايات المتقدمة، فإن ما من شيء يكون إلاّ من خلال المرور بهذه الأطوار التي جاءت في كلامهم عليهم السلام وهي المشيئة والإرادة والقدر ومن ثم

(١) التوحيد/ السيد كمال الحيدري ج٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) التوحيد/ السيد كمال الحيدري ج٢/ ١٦٤.
(٣) تفسير القمي ج١/ ٢٤.

القضاء، فمرة تم الإشارة من خلالها إلى ابتداء الفعل، وثانية الهم بالشيء وأخرى بالذكر الأول، فهل لهذه الأوصاف الثلاثة معنى جامع؟.

نقول: لا خلاف أو تناقض بين هذه الأوصاف، بل إنها كلها تدل على المعنى ذاته ولكن بلحاظ معين، فالأول كان يشير والله العالم وكما يشير الشيخ المجلسي إلى أول الكتابة في اللوح المحفوظ، حيث قال (رض): «ابتداء الفعل أي أول الكتابة في اللوح أو أول ما يحصل من جانب الفاعل ويصدر عنه مما يؤدي إلى وجود المعلول»[١].

يعني أن الأمر انتقل من العلم الإلهي بالشيء إلى أول مراحل خلقه وهو ذكره في اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما خلق الله وبرأ. أي إخراجه من العلمية إلى الفعلية، أو إبداع العلل التي سيوجد بسببها المعلولات.

أما الوصف الثاني وهو الهم بالشيء، نقول إنه (أي الهمّ) في الإنسان تلك القوة أو العزيمة الباطنية على إحداث فعل ما، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[٢].

فإن يوسف عليه السلام لولا برهان ربه الذي كان متحققاً عنده لتفجرت لديه تلك القوة الباطنية التي تدفعه باتجاه الفعل مثل ما حدث للمرأة التي راودته عن نفسه (وهمت به)، فيكون الهمّ هو القوة الدافعة باتجاه تحقيق الفعل في الخارج، هذا بالنسبة إلى الإنسان، أما معنى الهمّ بالنسبة للخالق جل وعلا فبما يتناسب مع ساحة قدسه تبارك وتعالى.

وبعبارة أخرى، فإن المشيئة تُعد أول تحقق وظهور للشيء من علمه الذاتي تبارك وتعالى إلى علمه الفعلي، وكما في الرواية التالية:

عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المشية محدثة[٣]. وعَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: «سُئِلَ الْعَالِمُ عليه السلام كَيْفَ عِلْمُ اللَّهِ قَالَ: عَلِمَ وَشَاءَ وَأَرَادَ وَقَدَّرَ

(١) بحار الأنوار ج٥/ ١٢٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) المحاسن للبرقي ج١/ ٢٤٥.

وَقَضَى وَأَمْضَى فَأَمْضَى مَا قَضَى وَقَضَى مَا قَدَّرَ وَقَدَّرَ مَا أَرَادَ فَبِعِلْمِهِ كَانَتِ الْمَشِيئَةُ وَبِمَشِيئَتِهِ كَانَتِ الْإِرَادَةُ وَبِإِرَادَتِهِ كَانَ التَّقْدِيرُ وَبِتَقْدِيرِهِ كَانَ الْقَضَاءُ وَبِقَضَائِهِ كَانَ الْإِمْضَاءُ وَالْعِلْمُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْمَشِيئَةِ وَالْمَشِيئَةُ ثَانِيَةٌ وَالْإِرَادَةُ ثَالِثَةٌ وَالتَّقْدِيرُ وَاقِعٌ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْإِمْضَاءِ فَلِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْبَدَاءُ فِيمَا عَلِمَ مَتَى شَاءَ وَفِيمَا أَرَادَ لِتَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ فَإِذَا وَقَعَ الْقَضَاءُ بِالْإِمْضَاءِ فَلَا بَدَاءَ فَالْعِلْمُ فِي الْمَعْلُومِ قَبْلَ كَوْنِهِ وَالْمَشِيئَةُ فِي الْمُنْشَأِ قَبْلَ عَيْنِهِ. . .»[1].

(١) الكافي ج١/ ١٤٩.

مقاربة عرفية

ولعلنا نقرب الأمر بمثال من الواقع وهو قياس مع الفارق طبعاً، أي أننا سنأتي بمثال عرفي لتقريب المسألة، أما ما يختص بالخالق من هذه المسألة فهو بما يليق بساحة قدسه تبارك وتعالى.

المثال

تصور أنك عطشان، فما هي الخطوات التي ستمر بها حتى تروي عطشك وتلبي هذه الحاجة أو تحقق الإرواء لنفسك؟.

إن علمك بأنك عطشان هو علمٌ حضوريٌ، ثم ظهر هذا العلم على شكل مشيئة لشرب الماء أي (رغبة) وهو أول ابتداء الفعل وهو الهم بالشيء أي هو (رغبة وقوة باطنية تدفعك لإرواء عطشك)، فإذا ثبتت هذه المشيئة تحولت إلى إرادة، وهي المعبر عنها بالثبوت على الفعل، وفي هذه الأثناء سرت باتجاه الماء لكنك لم تشرب بعد، حتى إذا أمسكت بالقدح (وهي الإرادة) أي ثبّتّ مشيئة الشرب لديك، تحولت إلى القدَر، وهو التخطيط لكم تشرب؟ وكيف تشرب؟ هل بجرعة واحدة؟ أم ستشرب جرعات؟ وهل ستتنفس داخل الإناء؟ وهكذا... كل هذا ينتمي لدائرة القدَر، فإذا فرغت من هذه الهندسة، كان القضاء، فإذا شربت وقع الإمضاء على القضاء.

أما الذكر الأول فهو الاسم أو الوصف الابتدائي الذي هو أول تعبير عن الشيء بعد ظهوره في الفعلية، أو هو الاسم الآخر للّوح المحفوظ على اعتبار أنه نُقش فيه كل ذكر العالم، فيصح أن يسمى الذكر الأول، وذلك أن لا ذكر قبله، وعليه فلا

منافاة بين الأوصاف الأربعة التي وصفت بها المشيئة. إذن المشيئة تعني ابتداء الفعل الذي لم يصل بعد إلى طور الثبوت.

جيد، والآن بعد أن علمنا هذا، يأتي السؤال: هل للمشيئة علاقة بالجبر؟ أو هل أراد الإمام الحسين عليه السلام حينما أحال الأمر إلى المشيئة معنى الجبر؟.

أقول: إن روايات أهل بيت العصمة والطهارة قد أجابت عن هذا السؤال وإليك:

الإجابة

«عن الفتح بن يزيد الجرجاني (في رواية طويلة أخذنا منها مقدار حاجتنا) قال: لقيته (يعني الإمام موسى بن جعفر عليه السلام) على الطريق عند منصرفي من مكة إلى خراسان وهو سائر إلى العراق، إلى أن يقول... فقال ويحك يا فتح إن لله إرادتين ومشيتين إرادة حتم وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو شاء ذلك ولو لم يشأ لم يأكلا ولو أكلا لغلبت مشيتهما مشية الله وأمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشية إبراهيم مشية الله عزوجل...»[1].

المعنى: أن لله إرادتين ومشيتين، إحداهما لا مجال للإنسان أن يختار فيها، لأنها مجبولة فيه بمشية الله وإرادته اللازمة المحتومة، والأخرى تكون ما بين الله وبين خلقه، فيكون للإنسان القدرة على اختيار أي الفعلين شاء، ويكون لله تبارك وتعالى الإمضاء أو الحيلولة عنه.

والمثال في الرواية يعطي تصورين للأمر، الأول، هو المعبر عنه بالمثال الأول في الرواية الشريفة «ينهى وهو يشاء... أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو شاء ذلك ولو لم يشأ لم يأكلا ولو أكلا لغلبت مشيتهما مشية الله»، يعني أن الله تبارك وتعالى نهى آدم عليه السلام أن يأكل، بيد أنه أمر غير لازم تكوينيا أي هو لزوم تشريعي (بمعنى أن الله تبارك وتعالى لا يجبره على الطاعة)،

(١) التوحيد للصدوق/ ٦١ - ٦٦.

لأنه قبل أن ينهى آدم شاء وأراد بالمشيئة والإرادة اللازمة المحتومة أن يكون آدم مختاراً بين أن يلتزم بهذا النهي أو لا، لأن الله تعالى أعطاه القدرة على الاختيار بأن جعله مريداً شائياً لنفسه، ولكن هذه المشيئة قائمة وجارية بمشيئة الله. فنهى آدم عن الأكل وشاء آن يأكل لأنه سبق بمشيته تعالى أن جعل آدم مختاراً فكان آدم شائياً لأن الله جعله كذلك، أي آن مشيئة آدم لم تكن بمعزل عن مشيئة الله لأنه هو الذي جعله مشيئاً ولم يسلبه القدرة على الاختيار، فتكون هذه مشيئة عزم، أي أن لآدم مدخلية في تحقيقها من عدمه.

أما الثاني، هو الذي ورد بالشكل التالي: «وأمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشية إبراهيم مشية الله عزوجل» فهو مشيئة وإرادة حتم، فإن الله شاء وأراد بمشيته وإرادته المحتومة أن لا يُذبح إسماعيل عليه السلام مع أنه أمر إبراهيم بذلك، فكان هذا اختبار لطاعة إبراهيم عليه السلام مع أن الأمر مفروغ منه بعدم ذبح إسماعيل. فلو كان إبراهيم أصر على ذبحه لولده لكانت مشيئته غلبت مشيئة الله (حاشا لله) وهذا لا يكون، وبعبارة أخرى أن الله كلف إبراهيم بأمر وجعله مختاراً فيه (وهذه عزم) بين الرضوخ وعدمه أما في ما يخص عدم تعرض إسماعيل للذبح، فإنه من (الحتم) الذي ليس لإبراهيم القدرة بالتدخل فيه حتى وإن أراد خلافه.

«وقال مصنف هذا الكتاب رضي الله عنه إن الله تبارك وتعالى نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وقد علم أنهما يأكلان منها لكنه عزوجل شاء أن لا يحول بينهما وبين الأكل منها بالجبر والقدرة كما منعهما من الأكل منها بالنهي والزجر فهذا معنى مشيته فيهما ولو شاء عزوجل منعهما من الأكل بالجبر ثم أكلا منها لكانت مشيتهما قد غلبت مشيته كما قال العالم عليه السلام، تعالى الله عن العجز علواً كبيراً[1].

إذن وعلى وفق هذه القاعدة التي يؤسسها الإمام (صلوات الله عليه) استنباطاً من القرآن الكريم، يكون قول الإمام الحسين عليه السلام «شاء الله أن يراني قتيلاً...» واضحاً لا إشكال فيه ولا لبس، ولا يمت إلى الجبر بصلة.

(١) التوحيد للصدوق/ ٦٦.

كيف؟

لو طبقنا هذه القاعدة بأن لله إرادتين ومشيتين.. لاتضح الأمر ورفع الإشكال كما قلنا، فإنه ينهى وهو يشاء.. ويأمر وهو لا يشاء.

فتكون المسألة: إن الله تبارك وتعالى قد نهى الأمة نهياً زجرياً (عزمياً، بمعنى أنه لم يجبرهم عليه) عن التخلف عن الحسين عليه السلام وعدم نصرته وخذلانه، والأئمة يشتركون مع الحسين في هذا، حسب التأسيس الذي خطه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الغدير بقوله... اللهم أنصر من نصره وأخذل من خذله.

على هذا يكون الله تبارك وتعالى قد نهى الأمة عن التورط في خذلان الحسين عليه السلام وأمرهم بوجوب نصرته، بيد أنه نهي تشريعي يخضع للمشيئة التي ثبّتها بإرادته حينما جعل الإنسان مختاراً لأفعاله غير مجبور عليها، يعني أنه لم يكرههم ويجبرهم على ذلك.

ولهذا فإنه نهى الأمة عن خذلان الحسين عليه السلام وعدم نصرته، بيد أنه عزوجل شاء أن يُقتل (سلام الله عليه) إذا اختارت الأمة طريق خذلانه لتتم الحجة عليهم وتكون الجريمة في أعناقهم إلى يوم القيامة.

وبهذا يكونون قد قتلوا الحسين عليه السلام بمشيئتهم التي سمح الله بها بأن جعلهم أصحاب مشيئة وقرار، وعليه فلم تغلب مشيئتهم مشيئة الله، لأن الله تبارك وتعالى هو الذي قدّرهم عليها ولو شاء لسلبها منهم.

ويعلق صاحب الفصول المهمة على هذه الرواية بقوله: أقول: لا يخفى أن مشية المعصية بمعنى خلق الأسباب والتخلية وعدم المنع، وكذا مشية عدم الطاعة، فالمقصود من الحديث وأمثاله بطلان التفويض لا ثبوت الجبر[1].

ومعنى خلق الأسباب، أنه عزوجل قضى على نفسه بأن يجعل الناس ذوي إرادة واختيار، ولا يجبرهم على شيء من أوامره ونواهيه، نعم إن شاء أن يحول بين العبد

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة الحر العاملي ج١/ ٢١٠.

وبين المعصية له ذلك لتلطفه على عبده ورأفة به من العذاب، وكذا إن شاء أن يتدخل لينقذ أنبياءه وأولياءه كما فعل مع إبراهيم عليه السلام يوم إنقاذه من النار لحكمة اقتضاها.

ولكي يتضح الأمر أكثر نورد الرواية التالية:

قال أبو الحسن عليه السلام ليونس مولى علي بن يقطين يا يونس.. .ثم قال: قال الله يا ابن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء وبقوتي أديت إليّ فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي وجعلتك سميعا بصيرا قويا فما أصابك من حسنة فمني وما أصابك من سيئة فمن نفسك وذلك أني لا أسأل عما أفعل ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[1] ثم قال: قد نظمت لك كل شيء تريده[2].

وعن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: . . . قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إن الله يقول يا ابن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي وبقوتي وعصمتي وعافيتي أديت إلي فرائضي وأنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بذنبك مني الخير مني إليك بما أوليتك به والشر مني إليك بما جنيت جزاء وبكثير من تسلطي لك انطويت عن طاعتي وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي فلي الحمد والحجة عليك بالبيان ولي السبيل عليك بالعصيان ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان لم أدع تحذيرك بي ولم آخذك عند عزتك وهو قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[3] لم أكلفك فوق طاقتك ولم أحمّلك من الأمانة إلا ما أقررت بها على نفسك ورضيت لنفسي منك ما رضيت به لنفسك مني.

بيان قوله صلى الله عليه وآله . . . قوله تعالى بمشيتي كنت أنت الذي تشاء أي شئت أن أجعلك شائياً مختاراً وأردت أن أجعلك مريداً فجعلتك كذلك. . . قوله تعالى وبكثير من تسلطي لك أي من التسلط الذي جعلت لك على الخلق وعلى الأمور وانطوى عن الشيء أي هاجره وجانبه وفي التوحيد مكان تلك الفقرة وبإحساني إليك

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٢) المحاسن ج١/ ٢٤٤.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

قويت على طاعتي: قوله تعالى ولم آخذك عند عزتك أي لم أعذبك عند غفلتك بل وعظتك ونبهتك وحذرتك[١].

إذن إن قتل الإمام الحسين عليه السلام كان نتاج اختيار قاتليه وليس جبراً من قبل الله سبحانه، بل أن غاية الأمر أن جعلهم ذوي مشيئة واختيار وأقدرهم على تنفيذ اختياراتهم، فإن كانت حسنة فهو الذي أقدرهم عليها وله الفضل في ذلك لأنه من أعطاهم القدرة على الفعل، وإن كانت سيئة فهي خيارهم ومشيئتهم لأنهم من استعمل نفس هذه القدرة في أعمال الشر.

وفي رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام . . . كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما يسأله عن القدر وكتب إليه فاتبع ما شرحت لك في القدر مما أفضي إلينا أهل البيت فإنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ومن حمل المعاصي على الله عزوجل فقد افترى على الله افتراءً عظيماً إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة ولا يهمل العباد في الهلكة لكنه المالك لما ملكهم والقادر لما عليه أقدرهم فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله صاداً عنها مبطئاً وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل وإن لم يفعل فليس هو حملهم عليها قسراً ولا كلفهم جبرا بل بتمكينه إياهم بعد إعذاره وإنذاره لهم واحتجاجه عليهم طوقهم ومكنهم وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما إليه دعاهم وترك ما عنه نهاهم، جعلهم مستطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آخذيه، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركيه، والحمد لله الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به ينالون بتلك القوة وما نهاهم عنه وجعل العذر لمن يجعل له السبيل حمداً متقبلاً فأنا على ذلك أذهب وبه أقول والله وأنا وأصحابي أيضاً عليه وله الحمد[٢].

أعتقد أن الرواية واضحة جداً في رسم الصورة الحقيقية لمعنى المشيئة من الله ومن العبد، فمن جهة الله عزوجل، هو الذي جعل الإنسان صاحب مشيئة ليتحمل

(١) بحار الأنوار ج٥/ ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) بحار الأنوار ج٥/ ١٢٤.

مسؤولية خياراته، وله ﷻ أن يحول بينه وبين خياراته السيئة، منّاً منه ورحمة، وهذا بعد أن رسم طريقي الهدى والضلال بمشيئته وخيّر العبد بينهما، أما من جهة العبد فإن الله تبارك وتعالى قد أتحفه وحباه بنعمة الاختيار بين أفعاله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)، فإن اختار العبد أن يفعل الحسنة فهذا بفضل الله الذي جعله ذا قدرة مشيئاً مريداً، وإن ارتكب السيئة فهي من نفسه التي سولت له استعمال نعمة الله التي حباه بها وهي المشيئة والاستطاعة في فعل الشر الذي نهاه الله عنه بلطفه.

وفي كلمة أخيرة نقول: إن من غير الممكن أن تكون هذه العبارة تشير إلى الجبر، وذلك لعدة أسباب، منها أن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم رواد حقيقة الأمر بين الأمرين، حيث لا جبر ولا تفويض، وهذه من القواعد الكلامية التي تميزوا بها عن بقية فرق المسلمين، هذا أولاً، أما ثانياً: فلو كان الأمر كذلك لبطل الثواب والعقاب، ولكان لا يحق لنا لوم قتلة الحسين عليه السلام أو مدح أنصاره، لأنهم ليسوا إلاّ بيادق تم تحريكهم من دون إرادة منهم، ولأصبحت كل مناشدات الإمام الحسين لطلب النصرة، مناشدات عبثية، وحاشا أن يكون في النظام الذي خلقه الله الحكيم مثل هذا التصور الأحمق.

وبهذا يتضح معنى قول الإمام الحسين عليه السلام «شاء الله أن يراني قتيلاً... وأن يراهن سبايا» بالنسبة إلى الفعل المنسوب إلى الله تبارك وتعالى ونعني به مشيته في قتله عليه السلام. ولكن السؤال المهم هو: ما علاقتنا نحن بهذه المشيئة؟ وما علاقتها بموضوع الفصل؟.

نقول: لمّا ثبت أن كل فعل أو شيء من الأشياء كيف ما كان مادياً أم معنوياً، لابد أن يمر بأطوار متعددة لكي يصل إلى مرحلة الإمضاء والتحقق في الخارج، وهذه الأطوار هي المشيئة والإرادة والقدر والقضاء، ولمّا قلنا أيضاً إن معنى المشيئة هي ابتداء الفعل كما اتضح من خلال الروايات الشريفة، لذا فإنه (الفعل) إذا كان في طور المشيئة، كما قال الإمام عليه السلام فهو لم يُثبّت بعدُ بالإرادة (كما فسرتها الروايات بأنها الثبوت على الفعل)، ولم يصل بعدُ أيضاً إلى طور التقدير ومن ثم القضاء. فيكون قابلاً لورود البداء عليه لأنه لا يزال خاضعاً لمشيئة الناس التي

جعلها الله لهم والتي لها المدخلية في تحققه، فحينما قال الحسين عليه السلام قولته المشهورة هذه فلأنه يعلم أن الأمر لم يحسم بعد، وستأتيك الأدلة على ذلك.

منها: أن المشيئة التي تتعلق بالإمام الحسين عليه السلام لا تعني الجبر.

وثانياً: كل الروايات التي تحدثت عن المشيئة كما أوردنا ذلك في ما تقدم.

وثالثاً: تبدل صيغة كلام الإمام الحسين عليه السلام من المشيئة في بداية إعلان الثورة إلى القضاء في آخر لحظات حياته التي انتهت باستشهاده عليه السلام فإنه يدل على أن الأمر في بداية الحركة لم يكن وصل إلى درجة الحتم بعد.

رابعاً: الدعوة التي وجهها الإمام الحسين عليه السلام إلى عموم الناس يطاليهم فيها بالنصرة.

خامساً: نزول أفواج الملائكة على الإمام الحسين عليه السلام حتى رفرف النصر فوق رأسه وتخييره بين نصرته والانتصار في المعركة أو الشهادة فاختار الشهادة. «فنزلت الملائكة من السماء لنصرته فلم يأذن لهم بشيء»[1].

والآن لنحاول ترتيب الأجوبة لهذه النقاط التي ذكرناها لتكتمل الصورة، لمّا ثبت أن المشيئة لا تعني الجبر، يكون المعنى أن للإنسان القدرة على توجيه هذه المشيئة بالاتجاه الذي ينحاه فعله، فلو نصر الناس الإمام الحسين أكان استشهد يوم الطف؟ قطعاً لا، فهذه أول النتائج التي تتعلق ببحثنا في هذا الفصل فلو وجد العدد الكافي من الأنصار المخلصين لانتصر الحسين على أعدائه ولما قاسى ما قاساه هو وأهل بيته الكرام من صنوف العذاب والترويع.

ولو كان الأمر غير ما ذهبنا إليه فما معنى دعوة الإمام للناس لنصرته، فإن كان مكتوباً عليه أن يقتل حتى وإن وجد النصرة على عدوه، تكون دعوته للناس عبثية لا طائل منها، ولكان قتلته في حل من دمه لأن الله هو الذي أكرههم على قتله، وبهذا دخل الأمر في العبث والظلم الذي يتنزه الله عنه سبحانه.

وكيف يُنزل الله تبارك وتعالى ملائكته على الحسين عليه السلام لنصرته وجعل أمرهم

---

(١) فاجعة الطف محمد كاظم القزويني/ ٢٩.

بيده عليه السلام لو كان قضى مسبقاً وبمعزل عن اختيار الناس أن الحسين يجب أن يقتل، لو صح هذا لكان أمراً عبثياً والله منزه عن العبث.

والأمر الآخر لو كانت مسألة قتله مفروغاً منها في قضاء الله سبحانه، فلماذا أحال الإمام الشهيد عليه السلام مسألة قتله إلى المشيئة؟ وهي كما اتضح في الروايات (مشيئة عزم لا حتم) يعني أن الإنسان مخير فيها، كالنهي الذي جرى في قضية أكل آدم عليه السلام. فإن كان ثمة سائل يسأل: ما هو الدليل على أن المشيئة تخضع للبداء؟.

نقول: في رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام يقول: «... والقضاء هو الإبرام وإقامة العين...»[1]. يعني أن الإبرام وهو حصول الفعل على درجة الحتم والقطع لم يكن إلاّ بعد أن وصل الأمر إلى طور القضاء متخطياً المشيئة والإرادة والقدر التي يجوز فيها البداء كما تقول الرواية التي تصدى لشرحها المولى محمد صالح المازندراني في كتابه شرح أصول الكافي:

عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إن الدعاء يرد ما قد قدر وما لم يقدر، قلت: وما قد قدر عرفته فما لم يقدر؟ قال: حتى لا يكون.

● **الشرح**: قوله: (إن الدعاء يرد ما قد قدر وما لم يُقدر) إشارة إلى أن الدعاء يرد البلاء الذي قدر وقوعه والذي لم يُقدّر بعد، فإن تقدير وقوعه في الاستقبال يمكن أن يدفع بالدعاء، فقوله عليه السلام: «حتى لا يكون» معناه: يرد الدعاء ما لم يُقدّر حتى لا يكون التقدير أو غير المُقدّر، وإن شئت زيادة توضيح فنقول: إيجاده تعالى للشيء موقوف على علمه بذلك الشيء ومشيئته وإرادته وهي العزيمة على ما شاء وتقديره وقضائه وإمضائه وفي مرتبة المشيئة إلى الإمضاء تجري البداء[2].

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْهَاشِمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وأَرَادَ وَقَدَّرَ وَقَضَى قُلْتُ: مَا مَعْنَى شَاءَ قَالَ: ابْتِدَاءُ الْفِعْلِ قُلْتُ: مَا مَعْنَى قَدَّرَ قَالَ: تَقْدِيرُ الشَيءِ مِنْ طُولِهِ وَعَرْضِهِ قُلْتُ: ما مَعْنَى

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة ج١/ ٢٣٢.
(٢) شرح أصول الكافي المولى صالح محمد المازندراني/ ٢٣٧.

قَضَى قَالَ: إِذَا قَضَى أَمْضَاهُ فَذَلِكَ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ[١]. وهذه الرواية أيضاً تبين أن الأطوار الأولى هي التي يمكن فيها البداء، وذلك قبل وصول الفعل إلى درجة القضاء والإمضاء.

فيكون معنى قول الإمام الحسين عليه السلام عند انطلاقة حركته الشريفة إن الأمر ما يزال لم يُبت فيه بعد، انتظاراً لموقف الناس من هذه الحركة سلباً وإيجابا، وهذا الانتظار في العلم الفعلي لا الذاتي فإن المواقف في الأخير منكشفة لله تبارك وتعالى، وذلك كقوله سبحانه: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

فإن الله يعلم من سينقلب على عقبيه في علمه الأزلي، بيد أنه عنى هنا بالعلم، الانكشاف الفعلي للمواقف على الصعيد الخارجي العيني بالنسبة لنا لا له سبحانه.

ولعل الرواية التي سنوردها سترفع كل إشكال وشبهة عن كل ما له علاقة بموضوع المشيئة، فعن عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمَا رَفَعُوهُ قَالَ: كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام جَالِساً بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صِفِّينَ إِذْ أَقْبَلَ شَيْخٌ فَجَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنَا عَنْ مَسِيرِنَا إِلَى أَهْلِ الشَّامِ أَبِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرٍ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَجَلْ يَا شَيْخُ مَا عَلَوْتُمْ تَلْعَةً وَلَا هَبَطْتُمْ بَطْنَ وَادٍ إِلَّا بِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرٍ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: عِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُ عَنَائِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ لَهُ: مَهْ يَا شَيْخُ فو الله لَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ الْأَجْرَ فِي مَسِيرِكُمْ وَأَنْتُمْ سَائِرُونَ وَفِي مَقَامِكُمْ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ وَفِي مُنْصَرِفِكُمْ وَأَنْتُمْ مُنْصَرِفُونَ وَلَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ مُكْرَهِينَ وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَكَيْفَ لَمْ نَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِنَا مُكْرَهِينَ وَلَا إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ وَكَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مَسِيرُنَا وَمُنْقَلَبُنَا وَمُنْصَرَفُنَا فَقَالَ لَهُ: وَتَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ قَضَاءً حَتْماً وَقَدَراً لَازِماً إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالزَّجْرُ مِنَ اللَّهِ وَسَقَطَ مَعْنَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَلَمْ تَكُنْ

(١) الكافي ج١/ ١٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

لَائِمَةٌ لِلْمُذْنِبِ وَلَا مَحْمَدَةٌ لِلْمُحْسِنِ وَلَكَانَ الْمُذْنِبُ أَوْلَى بِالْإِحْسَانِ مِنَ الْمُحْسِنِ وَلَكَانَ الْمُحْسِنُ أَوْلَى بِالْعُقُوبَةِ مِنَ الْمُذْنِبِ تِلْكَ مَقَالَةُ إِخْوَانِ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَخُصَمَاءِ الرَّحْمَنِ وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ وَقَدَرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَجُوسِهَا إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَلَّفَ تَخْيِيراً وَنَهَى تَحْذِيراً وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً وَلَمْ يُمَلِّكْ مُفَوِّضاً وَلَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا وَلَمْ يَبْعَثِ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ عَبَثاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ فَأَنْشَأَ الشَّيْخُ يَقُولُ:

أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي نَرْجُو بِطَاعَتِهِ ... يَوْمَ النَّجَاةِ مِنَ الرَّحْمَنِ غُفْرَاناً
أَوْضَحْتَ مِنْ أَمْرِنَا مَا كَانَ مُلْتَبِساً ... جَزَاكَ رَبُّكَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً[1]

وعلى هذا فلا جبر في المسألة، كما ثبت أيضاً إمكانية جريان البداء ما دام الفعل لم يصل إلى طور الإمضاء الذي يلي القضاء فإنه الذي لا مرد له.

وخير ما نختم به هذا الفصل الرواية التي ابتدأناه بها، وهي:

عن أبي حمزة الثمالي قال قلت لأبي جعفر عليه السلام إن علياً عليه السلام كان يقول إلى السبعين بلاء وكان يقول بعد البلاء رخاء وقد مضت السبعون ولم نر رخاء فقال أبو جعفر عليه السلام يا ثابت إن الله تعالى كان وقت هذا الأمر في السبعين فلما قتل الحسين اشتد غضب الله على أهل الأرض فأخره إلى أربعين ومائة سنة فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السر فأخره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتا عندنا وَيَمْحُو اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ قال أبو حمزة وقلت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال قد كان ذلك.

الحقيقة أن الرواية مهمة جداً ولا أعلم لم لم يتم التركيز عليها من قبل، فإنها تتحدث عن موضوع غاية في الأهمية من حيث العلة التي كانت وراء تأخر الفرج عن شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله.

إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يبشر الناس أن يستعدوا للرخاء في العام

(١) الكافي ج١/ ١٥٥ - ١٥٦.

السبعين من الهجرة المباركة ونهاية البلاء عندئذ، فلم لم يأت الفرج كما يسأل السائل؟.

فيجيب باقر علوم الأولين والآخرين عليه السلام بأن السبب وراء ذلك هو قتل الحسين عليه السلام مما أدى إلى غضب الله تعالى وتأخير الأمر إلى مائة وأربعين.

المناقشة

لقد وعد الله الأمة بأنه سينهي فترة البلاء ويبدأ عصر الرخاء في سنة سبعين، ولكن هل أن الوعد الإلهي كما فهمنا من القرآن الكريم يأتي جزافاً من دون مقدمات؟ أم أن التغيير يحتاج إلى مقدمات ضرورية لا يتم الأمر من دونها؟. إن المتيقن وكما تشير الرواية الشريفة أن لقتل الحسين عليه السلام مدخلية واضحة جداً في تحقق ذلك من عدمه.

كيف؟

الظاهر من خلال السياق العام لهذه الرواية المباركة أن التقدير كان يقوم على اضطلاع الإمام الحسين عليه السلام بمهمة النهوض والتغيير ولكن بمعونة الأمة، إذ لا يصح أبداً كما قرر القرآن الكريم أن يتم التغيير من دون أن تتغير الأمة نفسها بأن تعلن ذلك صراحة وتعمل من أجله، قال تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1].

إذن التغيير بيد الأمة وهي الوحيدة القادرة بمعية الإمام المعصوم الجاهز للقيادة على تغيير حالة البعد عن الله والرضا بحكم الظالمين وخونة العقيدة والإنسانية، لذا كان التقدير الإلهي واختيار الوقت المناسب للنهوض بيد حجة الله في أرضه الحسين بن علي عليه السلام إن رضيت الأمة أن تسلمه قياد نفسها، فإنه سيقودها نحو الكرامة والحرية ومرضاة الله تعالى وتحقيق العدل الاجتماعي.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

وفي اختيار السبعين نكتة واضحة لمن يتأمل فيها، فقد هلك الملعون معاوية في سنة ستين للهجرة بعد أن انكشف للأمة التي كانت مخدوعة مغرورة فيه نفاقه ومروقه من الدين، وبدأت الأصوات تتصاعد من هنا وهناك بضرورة القيام ضد حكم بني أمية لا سيما من أولائك الذين كانت قلوبهم تميل لأهل البيت عليهم السلام بل من عموم المسلمين، بعد أن رأوا بأم أعينهم مخالفات معاوية الصريحة للإسلام ونبيه، وكانت الحركة التي كشفت اللثام عن معاوية بشكل كبير وعرّته أمام جموع المسلمين هي أخذه البيعة لابنه يزيد (لعنهما الله) الذي كان معروفاً بتهتكه وعربدته وإعلانه للفسق والفجور.

فكان الوضع من الخارج أي (من حيث الزمان والمكان) ملائماً للقيام، ولكن بشرط، وهو أن تختار الأمة الحسين بن علي عليه السلام إماماً وقائداً لها وتقوم معه وتبايعه على ذلك، وعندها لخطط لهم ودلهم على السبيل الذي من شأنه أن يسقط دولة بني أمية بشكل نهائي، وتكون المدة من هلاك معاوية إلى سنة السبعين هي المدة الكافية لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ولعادت الأمة إلى نهج رسول الله وأمير المؤمنين عليه السلام وكان من المحتم لو تسلم الحسين القيادة ووجد أنصاراً على ذلك لغلب بقيادته الحكيمة ذلك القائد الأهوج المغرور المسمى يزيد. إذن ما الذي جرى وكيف آل الأمر إلى ما آل إليه؟.

نقول: الذي جرى أن حركة الزمن كانت مواتية للتغيير ولكن الزمن برجاله، فإذا ما وجد الحق أنصاراً فإنه سينتصر لا محالة، لاسيما لو كان القائد مثل أبي عبد الله الحسين عليه السلام وإن لم يجد فسيكون غريباً وحيداً مخذولاً كما حدث للإمام الشهيد (روحي فداه).

كانت الأمة الإسلامية وللأسف مصابة بداء عضال وكان نتيجة حتمية لاختياراتهم الباطلة طيلة عقود من الزمن (هو الشلل النفسي)، فإن الفترة التي قضوها تحت حكم معاوية والأساليب التي كان يتبعها تجاه المسلمين بشكل عام من الترهيب والترغيب وشراء الضمائر قد أصابت الأمة بالوهن الشديد، أما شيعة علي فقد لاقت فترة من أشد الفترات قسوة وجوراً في تاريخ الإسلام.

بالمقابل فإن حكم بني أمية كان يمر بفترة حرجة وانعطافة خطيرة، مرحلة تعد

من أوهن المراحل في سنوات حكمة الغاشمة، بعد أن تربع على عرشه رجل لا يعرف من شؤون السياسة شيئاً، فقد كان الوقت ملائماً جداً للملمة شمل الأمة وإسقاط الحكم الأموي المنافق الكافر إن اختارت الأمة ذلك ونفضت عن نفسها رداء الكسل والخوف وحب الحياة.

ولمّا لم تختر ذلك فإن الحسين (بأبي وأمي) أصبح وحيداً بين ذئاب بني أمية التي تراه ناقوس الخطر الوحيد الذي يدق لإيقاظ الأمة من سباتها وشفائها من شللها وغفلتها. فكان ما كان وجرى البداء بسبب ذلك، والذي يؤكد هذا المعنى أن الرواية تقول: إن غضب الله اشتد على أهل الأرض لا على بني أمية خاصة، لأنهم السبب في قتله لا بل إنهم مشتركون بدمه والجور عليه بسبب عدم نصرته والذود عنه وهو الثائر من أجل تحريرهم والدفاع عن حقهم بالعيش في حرية وكرامة وسلام.

والنكتة الأخرى التي تشير لها الرواية من حيثية التوقيت، هو الدقة في اختيار الفترة الزمنية المناسبة للقيام إن توفرت النصرة والمعونة على ذلك.

فبعدما حددت السبعين التي كانت مُقدّرة لانتصار الإمام الحسين عليه السلام انتقلت لمفصل زمني غاية في الوضوح والأهمية، ألا هي الفترة التي انهارت فيها دولة النفاق الأموي وقيام دولة الجور العباسي، إذ تقول الرواية: «فأخره إلى أربعين ومائة سنة فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السر فأخره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتا عندنا ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]».

الذي يتأمل في الفترة الزمنية التي حددتها الرواية يرى بوضوح أنها كانت تشير إلى مدة إمامة الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام وبتعبير أدق هي أواخر إمامة الصادق وبداية إمامة الكاظم عليهما السلام لأن من المعروف أن الإمام الصادق عليه السلام استشهد سنة ١٤٨ من الهجرة، وتعد هذه الفترة الزمنية من الأوقات المؤهلة لأن يحدث عندها التغيير لو التزمت الأمة بالوصايا والتوجيهات الصادرة من الإمامين عليهما السلام.

وللتأكيد على هذا المعنى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام هذه الرواية: عن عثمان النواء قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان هذا الأمر في فأخره الله

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

ويفعل بعد في ذريتي ما يشاء»[١]. ومعنى الأمر هو النهوض والقيام، وسيأتيك بيان الإمام الصادق عليه السلام للعلة التي كانت وراء جريان البداء في مسألة قيامه عندما نصل إلى مناقشة حركة الإمام الصادق إضافة إلى العلة التي بينها الإمام الباقر عليه السلام في الرواية في بداية الفصل، والتي هي: «فحدثناكم فأذعتم الحديث وكشفتم قناع السر فأخره الله» ولا يبعد أن كشف السر أدى إلى التضييق على الإمام الصادق عليه السلام ومن ثم النية في قتله من قبل المنصور الدوانيقي إلى أن أدى الأمر إلى اعتقال الإمام الكاظم عليه السلام واستشهاده بسم هارون العباسي، أي أن كشف السر عن قائد الحركة أصابها في الصميم، وبالتالي حتى وإن توفرت بقية الشروط اللازمة لنجاحها فهي محكومة بالفشل لاستحالة نجاحها من دون قائدها المعصوم المؤيد والمسدد من السماء، مع أن الإمام كما سيتضح في المقبل من الصفحات سينفي توفر بقية الشروط.

والرواية الأخرى التي تؤيد ما ذهبنا إليه ما ورد عن الرضا عليه السلام: «عن داود الرقي قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك إنه والله ما يلج في صدري من أمرك شيء إلا حديثا سمعته من ذريح يرويه عن أبي جعفر عليه السلام قال لي: وما هو قال: سمعته يقول سابعنا قائمنا إن شاء الله، قال: صدقت وصدق ذريح وصدق أبو جعفر عليه السلام..»[٢].

والإمام السابع هو الكاظم عليه السلام كما تعرف، والنكتة اللطيفة في الرواية، قوله عليه السلام: «سابعنا قائمنا إن شاء الله» فإنه أحال الأمر إلى المشيئة التي تكلمنا عنها، وهنا الإمام يؤكد هذا الأمر ويحيل مسألة قيام الإمام الكاظم إلى المشيئة، وهي مشيئة العزم كما عرفت في الصفحات الماضية، والتي تعني تقاسم الفعل بين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى، الإنسان لأنه مخير وعلى ضوء هذه القدرة الموهوبة له من الله يختار أعماله، ومن الله عز وجل فلأنه وهب قدرة الاختيار لعبده وله أن يعارض هذه الإرادة والمشيئة فيمنعها أو يمضيها.

---

(١) الغيبة للطوسي/ ٤٢٩.

(٢) رجال الكشي/ ٣٧٣.

فكانت المشيئة الإلهية أن يكون الإمام الكاظم ومن قبله الصادق عليهما السلام هما القائمين إن وجدا أنصاراً على ذلك واختارت الأمة القيام معهما، إلاّ أن مشيئة الناس حالت دون ذلك، لا بمعنى أن مشيئة الناس غلبت مشيئة الله، لا، وإنما جرت مشيئتهم في ظل مشيئة الله لأن الله هو الذي جعلهم أصحاب مشيئة ولو شاء أن يسلبهم هذه القدرة لفعل، بيد أنه لا يريد أن يجبرهم على ذلك، وتركهم يختارون أفعالهم ولكنه بيّن لهم مآل كل نوعية من العمل وأعطاهم القدرة والدلائل الواضحة للتمييز بين قبح وحسن كل عمل يختارونه، فقامت الحجة عليهم بذلك واختارت كل فئة منهم المنزلة التي تستحقها في الجنة أو الجحيم.

حركة الإمام علي بن الحسين عليه السلام

لم تختلف الأسباب التي دعت الإمام زين العابدين عليه السلام إلى القعود، عن تلك التي كانت في زمن آبائه عليهم السلام لا سيما أنه كان يعيش تداعيات مقتل والده الإمام الحسين عليه السلام بعد خذلان الناس له وتركه لسيوف بني أمية، ولعل من ابرز الآثار التي تبين ذلك، كلمته المشهورة التي خاطب بها أهل الكوفة حينما دخل هو وسبايا آل محمد كوفانهم، وضجوا بالبكاء والعويل طالبين منه أن يقودهم لقتال آل أمية، قال لهم (هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم أتريدون أن تأتوا إلي كما أتيتم إلى آبائي من قبل كلا ورب الراقصات فإن الجرح لما يندمل قتل أبي صلوات الله عليه بالأمس وأهل بيته معه ولم ينسني ثكل رسول الله وثكل أبي وبني أبي ووجده بين لهاتي ومرارته بين حناجري وحلقي وغصصه يجري في فراش صدري ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا[1]. الكلمات تدل على شدة المرارة التي يشعر بها الإمام السجاد عليه السلام بعد أن رأى أباه مقتولاً مخذولاً، لذلك فإن طلبه كان واضحاً من أهل الكوفة وهو أن غاية ما نريد أن تكفوا شركم عنا فقط،

(١) مثير الأحزان/ بن نما الحلي/ ٨٩.

فإذن والحال هذه فأي نهضة وأي قيام يصلح أن يكون بهؤلاء المسلمين المسلوبة إرادتهم المعميين ببهارج الدنيا وزخارفها.

وكذا المحاورة التي جرت بينه وبين عباد البصري حينما اتهمه الأخير بالقعود عن الجهاد:

فعن عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى عَنْ سَمَاعَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ لَقِيَ عَبَّادٌ الْبَصْرِيُّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَقَالَ لَهُ يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ تَرَكْتَ الْجِهَادَ وَصُعُوبَتَهُ وَأَقْبَلْتَ عَلَى الْحَجِ وَلِينَتِهِ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام أَتِمَّ الْآيَةَ فَقَالَ التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام إِذَا رَأَيْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ فَالْجِهَادُ مَعَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ[1].

هذه الرواية واضحة بدلالتها على الشروط التي يبتغيها الإمام عليه السلام في القاعدة التي تكون مهيأة للقيام ومن دونها لا يمكن لثورة تصحيحية أن تحقق الغاية المرجوة منها في إصلاح الإنسان والنهوض بالمجتمع، وهذه الشروط إنما وضعها الإمام عليه السلام لأنها كفيلة بذلك.

حركة الإمام الباقر عليه السلام

استمر الوضع الصعب في زمان الإمام الباقر عليه السلام من استمرار المضايقات والملاحقات في زمن حكم آل أمية الغاشم للإمام وأنصاره حتى انتهى الأمر بقتله

(١) الكافي ج٥/ ٢٢. تهذيب الأحكام ج٦/ ١٣٤، وسائل الشيعة ج١٥/ ٤٦، الاحتجاج ج٢/ ٣١٥.

(صلوات الله عليه) بسم أمية المعروف، والإمام كان مشغولا بإرساء دعائم المدرسة التي خطها والده السجاد عليه السلام للتصدي لبدع آل أمية (لعنهم الله) وإنشاء قاعدة من المؤمنين على النهج الذي خطه الرسول ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام والتي من أجلها ثار الحسين (صلوات الله عليه) بعيدا عن جاهلية بني أمية التي حاولوا جهدهم للرجوع بالأمة الإسلامية إليها، لذلك فإن قيام الإمام الباقر في هذه الحقبة الزمنية كان قياماً فكرياً وثورة علمية أعادت للإسلام هيبته وللقرآن مرجعيته.

حركة الإمام الصادق عليه السلام

لعل الإمام الصادق عليه السلام كان أبرز من تمتع بشيء من حرية الحركة من أئمة أهل البيت [من بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام إلى غيبة الإمام المنتظر (عج)]، للتحول السياسي الذي شهدته المنطقة آنذاك، بعد استيلاء بني العباس على مقاليد السلطة ورفع شعار يا لثارات الحسين، ليس حبا به أو إيماناً بأهدافه طبعاً، وإنما كسبا لأكبر جبهة معارضة لبني أمية وهم الشيعة.

نظرا لهذه الظروف تحررت الشيعة بعض الشيء وأخذت أنفسهم تحدثهم بالقيام لشعورهم أن البيت العلوي هو الأجدر لقيادة الأمة وأن أهل البيت هم أصحاب الحق الشرعيين بالخلافة.

بيد أن السبب الذي يمنع من القيام لا يزال حاضراً لدى الإمام عليه السلام ألا وهو قلة المؤمنين محل اعتماده وثقته، ممن يستطيع أن يحمل هذه المسؤولية الجسيمة في التغيير والثورة على قوى الظلم والطغيان والفساد، وبالتالي تحقيق حلم الأنبياء في إقامة دولة العدل والحق، ولعل الروايات التالية ستوضح المطلب بشكل جيد.

حدّث إبراهيم عن أبي حمزة عن مأمون الرقي قال: كنت عند سيدي الصادق عليه السلام إذ دخل سهل بن حسن الخراساني فسلم عليه ثم جلس فقال له يا ابن رسول الله: لكم الرأفة والرحمة وأنتم أهل بيت الإمامة ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف فقال

له عليه السلام اجلس يا خراساني رعى الله حقك ثم قال يا حنفية أسجري التنور، فسجرته حتى صار كالجمرة وابيض علوه، ثم قال يا خراساني قم فاجلس في التنور، فقال الخراساني يا سيدي يا ابن رسول الله لا تعذبني بالنار أقلني أقالك الله قال قد أقلتك فبينما نحن كذلك إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته فقال السلام عليك يا ابن رسول الله فقال له الصادق عليه السلام ألق النعل من يدك واجلس في التنور قال فألقى النعل من سبابته ثم جلس في التنور وأقبل الإمام يحدث الخراساني حديث خراسان حتى كأنه شاهد لها ثم قال قم يا خراساني وانظر ما في التنور قال فقمت إليه فرأيته متربعا فخرج إلينا وسلم علينا فقال له الإمام عليه السلام كم تجد بخراسان مثل هذا فقلت والله ولا واحدا فقال عليه السلام لا والله ولا واحدا أما إنا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا نحن أعلم بالوقت[1].

يؤكد الإمام عليه السلام في هذه الرواية على ضرورة توفر الطاعة والتسليم المطلق له من قبل شيعته، وهذه لا تتحصل إلا من خلال المعرفة بمنزلتهم وحقيقة إمامتهم وعصمتهم، ولمّا لم يكن مثل هؤلاء متوفرا لدى الإمام فسيكون مصير كل حركة هو الفشل بسبب عظمة الثورة وسمو أهدافها وطهارة القيم التي تدعو إليها.

وبكلمة أخرى أن الثورة التي ينهجها الإمام (روحي فداه) لا تشبه أي ثورة، هي ثورة حقيقية تلامس الحاجات الأساسية للفطرة من الإنعتاق من عبودية الآخر والتحرر من أسر الهوى إلى التناغم والانسجام مع كل ما خلق الله بحيث يحظى كلٌ بالكرامة والسلام النفسي.

ولهذا فإن النوعية الثائرة لابد أن تكون على أعلى درجة من التربية الإسلامية الصحيحة، ومنها التسليم للمعصوم وقبلها معرفته والإيمان به كقائد مسدد من قبل السماء بحيث لا ينقطع عنه المدد الغيبي ولا يجانب الحكمة ولب الحقيقة.

وكان الإمام عليه السلام أكثر تشوقا من كل أحد للقيام والتغيير وإعادة الأمور إلى نصابها ولا يحتاج لخراساني ولا لعربي يذكره بواجبه (حاشاه) بيد أن الأمنيات شيء

(١) المناقب لأبن شهرا شوب ج٤/ ٢٣٧.

والواقع الخارجي شيء آخر، لذا تراه (سلام الله عليه) يتحسر ولو على توفر الحد الأدنى من الأنصار.

ويبين في الرواية التالية أن المواصفات المطلوبة للقيام بالتغيير لم تتوفر بعد، وأن الشيعة في ذلك الزمن (زمنه) لم تكن على مستوى المسؤولية أو الإعداد الكافي الذي يؤهلها لرفع راية الإصلاح، وبمعنى أصح أن الذين كان يعتقدهم الناس شيعة لأهل البيت هم في الواقع ليسوا شيعة لهم مع أنهم يدّعون ذلك، والفرق كبير بين من يدّعي الوصل ومن ذاق الوصال، وهنا تكمن الخطورة، فربما يقضي الإنسان عمره كله معتقداً أنه من شيعتهم، بينما يظهر بعد العرض على منهجهم أنه ليس له علاقة بهم لا من قريب ولا من بعيد، وهذه الطامة الكبرى والعياذ بالله.

عَنْ مِهْزَمٍ الْأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا مِهْزَمُ شِيعَتُنَا مَنْ لَا يَعْدُو صَوْتُهُ سَمْعَهُ وَلَا شَحْنَاؤُهُ بَدَنَهُ وَلَا يَمْتَدِحُ بِنَا مُعْلِناً وَلَا يُجَالِسُ لَنَا عَائِباً وَلَا يُخَاصِمُ لَنَا قَالِياً إِنْ لَقِيَ مُؤْمِناً أَكْرَمَهُ وَإِنْ لَقِيَ جَاهِلاً هَجَرَهُ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِهَؤُلَاءِ الْمُتَشَيِّعَةِ قَالَ فِيهِمُ التَّمْيِيزُ وَفِيهِمُ التَّبْدِيلُ وَفِيهِمُ التَّمْحِيصُ تَأْتِي عَلَيْهِمْ سِنُونَ تُفْنِيهِمْ وَطَاعُونٌ يَقْتُلُهُمْ وَاخْتِلَافٌ يُبَدِّدُهُمْ شِيعَتُنَا مَنْ لَا يَهِرُّ هَرِيرَ الْكَلْبِ وَلَا يَطْمَعُ طَمَعَ الْغُرَابِ وَلَا يَسْأَلُ عَدُوَّنَا وَإِنْ مَاتَ جُوعاً قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَأَيْنَ أَطْلُبُ هَؤُلَاءِ قَالَ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ أُولَئِكَ الْخَفِيضُ عَيْشُهُمُ الْمُنْتَفِلَةُ دِيَارُهُمْ إِنْ شَهِدُوا لَمْ يُعْرَفُوا وَإِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَمِنَ الْمَوْتِ لَا يَجْزَعُونَ وَفِي الْقُبُورِ يَتَزَاوَرُونَ وَإِنْ لَجَأَ إِلَيْهِمْ ذُو حَاجَةٍ مِنْهُمْ رَحِمُوهُ لَنْ تَخْتَلِفَ قُلُوبُهُمْ وَإِنِ اخْتَلَفَ بِهِمُ الدَّارُ[1].

وعن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام مرة وأنا معه يا مفضل: كم أصحابك فقلت قليل، فلما انصرفت إلى الكوفة أقبلت على الشيعة فمزقوني كل ممزق يأكلون لحمي ويشتمون عرضي حتى أن بعضهم استقبلني فوثب في وجهي وبعضهم قعد لي في سكك الكوفة يريد ضربي ورموني بكل بهتان حتى بلغ ذلك أبا عبد الله عليه السلام فلما رجعت إليه في السنة الثانية كان أول ما استقبلني به بعد تسليمه علي أن قال يا مفضل ما هذا الذي بلغني أن هؤلاء يقولون لك وفيك قلت وما علي

(١) الكافي ج٢/ ٢٣٩.

من قولهم قال أجل بل ذلك عليهم أيغضبون، بؤس لهم إنك قلت إن أصحابك قليل، لا والله ما هم لنا شيعة ولو كانوا شيعة ما غضبوا من قولك وما اشمأزوا منه لقد وصف الله شيعتنا بغير ما هم عليه وما شيعة جعفر إلا من كف لسانه وعمل لخالقه ورجا سيده وخاف الله حق خيفته ويحهم أفيهم من قد صار كالحنايا من كثرة الصلاة أوقد صار كالتائه من شدة الخوف أو كالضرير من الخشوع أو كالضنى من الصيام أو كالأخرس من طول الصمت والسكوت أو هل فيهم من قد أدأب ليله من طول القيام وأدأب نهاره من الصيام أو منع نفسه لذات، وإنهم ليخاصمون عدونا فينا حتى يزيدوهم عداوة وإنهم ليهرون هرير الكلب ويطمعون طمع الغراب أما إني لولا أنني أتخوف عليهم أن أغريهم بك لأمرتك أن تدخل بيتك وتغلق بابك ثم لا تنظر إليهم ما بقيت ولكن إن جاءوك فاقبل منهم فإن الله قد جعلهم حجة على أنفسهم واحتج بهم على غيرهم لا تغرنكم الدنيا وما ترون فيها من نعيمها وزهرتها وبهجتها وملكها فإنها لا تصلح لكم فو الله ما صلحت لأهلها[1].

وقال جابر بن يزيد الجعفي دخلت على مولاي أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال: يا جابر ليس من انتحل التشيع وحبنا أهل البيت بلسانه كان من شيعتنا فلا تذهبن بكم المذاهب فو الله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه... فقال يا جابر: حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ولا يكون مع ذلك عاملا بقوله فلو قال أحب رسول الله فرسول الله خير من علي ولم يتبع سيرته ولم يعمل بسنته ما أغنى عنه ذلك من الله شيئا فاتقوا الله واعملوا لما عند الله فإن أحب العباد إلى الله أعملهم بطاعته وأتقاهم له وإنه ليس بين الله وبين أحد قرابة وما معنا براءة من النار ولا لنا على الله من حجة، من كان طائعا لله فهو لنا ولي ولو كان عبدا حبشيا ومن كان عاصياً لله فهو لنا عدو وإن كان حرا قرشيا والله ما تنال شفاعتنا إلا بالتقوى والورع والعمل الصالح والجد والاجتهاد فلا تغتروا بالعمل ويسقط عنكم فإذن أنتم أعز على الله منا فاتقوا الله وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا لنا شيناً...[2].

(١) بحار الأنوار ج٧٥/ ٣٨٣.
(٢) أعلام الدين/ ١٤٣.

إذن من كان يظنهم الخراساني والناس معه شيعة ظهر أنهم ليسوا شيعة وإنما يتشيعون (أي يدّعون التشيع) وستثبت الغربلة صحة هذا القول، فإن شيعة التغيير لهم مواصفات لم تكن متوفرة آنذاك وهذا أحد أهم الأسباب لعدم قيام الإمام الصادق عليه السلام.

ونختم الحديث عن حركة الإمام الصادق عليه السلام بهذه الرواية التي تبين أنه كان سيقوم لو توفر له حتى الحد الأدنى من الأنصار المخلصين الذين تنطبق عليهم شروط الشيعة المجاهدين (أهل التغيير).

عَنْ سَدِيرٍ الصَّيْرَفِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَا يَسَعُكَ الْقُعُودُ فَقَالَ: وَلِمَ يَا سَدِيرُ قُلْتُ لِكَثْرَةِ مَوَالِيكَ وَشِيعَتِكَ وَأَنْصَارِكَ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا لَكَ مِنَ الشِّيعَةِ وَالْأَنْصَارِ وَالْمَوَالِي مَا طَمِعَ فِيهِ تَيْمٌ وَلَا عَدِيٌّ فَقَالَ يَا سَدِيرُ وَكَمْ عَسَى أَنْ يَكُونُوا قُلْتُ مِائَةَ أَلْفٍ قَالَ: مِائَةَ أَلْفٍ قُلْتُ نَعَمْ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ قَالَ: مِائَتَيْ أَلْفٍ قُلْتُ نَعَمْ وَنِصْفَ الدُّنْيَا قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي ثُمَّ قَالَ: يَخِفُّ عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَ مَعَنَا إِلَى يَنْبُعَ قُلْتُ نَعَمْ فَأَمَرَ بِحِمَارٍ وَبَغْلٍ أَنْ يُسْرَجَا فَبَادَرْتُ فَرَكِبْتُ الْحِمَارَ فَقَالَ يَا سَدِيرُ أَتَرَى أَنْ تُؤْثِرَنِي بِالْحِمَارِ قُلْتُ الْبَغْلُ أَزْيَنُ وَأَنْبَلُ قَالَ: الْحِمَارُ أَرْفَقُ بِي فَنَزَلْتُ فَرَكِبَ الْحِمَارَ وَرَكِبْتُ الْبَغْلَ فَمَضَيْنَا فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَقَالَ يَا سَدِيرُ: انْزِلْ بِنَا نُصَلِّ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ أَرْضٌ سَبِخَةٌ لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِيهَا فَسِرْنَا حَتَّى صِرْنَا إِلَى أَرْضٍ حَمْرَاءَ وَنَظَرَ إِلَى غُلَامٍ يَرْعَى جِدَاءً فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا سَدِيرُ لَوْ كَانَ لِي شِيعَةٌ بِعَدَدِ هَذِهِ الْجِدَاءِ مَا وَسِعَنِي الْقُعُودُ وَنَزَلْنَا وَصَلَّيْنَا فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الصَّلَاةِ عَطَفْتُ عَلَى الْجِدَاءِ فَعَدَدْتُهَا فَإِذَا هِيَ سَبْعَةَ عَشَرَ[1].

ويختم (بأبي وأمي) حسرته بقوله لمفضل بن قيس: كم شيعتنا بالكوفة؟ قال: قلت خمسون ألفاً، فما زال يقول إلى أن قال: والله لوددت أن يكون بالكوفة خمسة وعشرون رجلاً يعرفون أمرنا الذي نحن عليه، ولا يقولون علينا إلا الحق[2].

(١) الكافي ج٢/ ٢٤٣.
(٢) ميزان الحكمة ج١/ ١٦٨.

حركة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

لقد سبق أن قلنا إن الله تبارك وتعالى قد وقت هذا الأمر إلى سبعين ومن ثم بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام اشتد غضب الله على أهل الأرض وأخره إلى أربعين ومائة، وهو وقت أواخر إمامة الصادق عليه السلام وبداية إمامة الكاظم عليه السلام والذي يؤكد ذلك ورود روايات تشير إلى هذا المعنى كما بيناها آنفا كقول الصادق عليه السلام «كان هذا الأمر فيّ فأخره الله ويفعل بعد في ذريتي ما يشاء»، والرواية التي أشارت إلى قيام الإمام السابع (روحي له الفداء)، «سابعنا قائمنا إن شاء الله».

إذن كان من المقدر أن يكون الوضع مهيأ لقيام الصادق والكاظم عليهما السلام [وقد كان كذلك فعلا بعد سقوط حكومة بني أمية (لعنهم الله)] لو أن الشيعة سارت على المسار الذي اختطه لهم أئمتهم الكرام، إلا أنهم لم يلتزموا بهذا وأذاعوا السر وتم القضاء على الحركة باغتيال الإمام عليه السلام بعد سجنه لسنوات طوال.

والكاظم عليه السلام لم يشذ عن القاعدة التي كانت هي بمثابة العلة لقعودهم عن حقهم، ألا وهي قلة الناصر وعدم توفر العدد الكافي ذي الشروط الكفيلة بإنجاح حركة التغيير.

فعن أبي عبد الله بن بكير قال: قال أبو الحسن عليه السلام: يا ابن بكير إني لأقول قولاً كانت آبائي عليهم السلام تقوله: لو كان فيكم عدة أهل بدر لقام قائمنا.. (هنا يبين الإمام سلام الله عليه علة قعوده وقعود من سبقه من آبائه عليهم السلام، والنكتة هنا في قوله عليه السلام [لقام قائمنا]، وكأنه يشير إلى نفسه المباركة أو للأئمة الذين سبقوه، لأنه لو أراد الإمام الثاني عشر (أرواحنا له الفداء) لما تحدث بصيغة الماضي [لقام] وقبلها قال: [لو كان فيكم] وهي صيغة ماض أيضاً)، ومن ثم يشرع الإمام (سلام الله عليه) بتفصيل العلة وبيان حال من كان يدعي محبتهم ومشايعتهم في ذلك الزمان، ويوضح عليه السلام أنهم ليسوا من أهل الصدق الذين يمكن الاعتماد عليهم في حركة التغيير، فيقول مخاطبا ابن بكير: إنا نداوي الناس ونعلم ما هم، فمنهم من يصدقنا المودة ويبذل مهجته لنا ومنهم من ليس في قلبه حقيقة ما يظهر بلسانه ومنهم

من هو عين لعدونا علينا يسمع حديثنا وإن أطمع في شيء قليل من الدنيا كان أشد علينا من عدونا، وكيف يرون هؤلاء السرور وهذه صفتهم إن للحق أهلا وللباطل أهلا فأهل الحق في شغل عن أهل الباطل ينتظرون أمرنا ويرغبون إلى الله إن يروا دولتنا ليسوا بالبذر المذيعين ولا بالجفاة المرائين ولا بنا مستأكلين ولا بالطمعين خيار الأمة نور في ظلمات الأرض ونور في ظلمات الفتن ونور هدى يستضاء بهم لا يمنعون الخير أولياءهم ولا يطمع فيهم أعداؤهم إن ذكرنا بالخير استبشروا وابتهجوا واطمأنت قلوبهم وأضاءت وجوههم وإن ذكرنا بالقبح اشمأزت قلوبهم واقشعرت جلودهم وكلحت وجوههم وأبدوا نصرتهم وبدا ضمير أفئدتهم قد شمروا فاحتذوا بحذونا وعملوا بأمرنا تعرف الرهبانية في وجوههم يصبحون في غير ما الناس فيه ويمسون في غير ما الناس فيه يجأرون إلى الله في إصلاح الأمة بنا وأن يبعثنا الله رحمة للضعفاء والعامة يا عبد الله أولئك شيعتنا وأولئك منا وأولئك حزبنا وأولئك أهل ولايتنا[1].

ويؤكد الإمام الصادق عليه السلام نفس المعنى باستعماله صيغة الماضي في الحديث عن القائم [لو كملت العدة. . كان الذي]، بقوله لما دخل عليه بعض أصحابه فقال له: جعلت فداك إني والله أحبك وأحب من يحبك، يا سيدي ما أكثر شيعتكم فقال له: اذكرهم فقال: كثير فقال: تحصيهم فقال: هم أكثر من ذلك فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون. .[2].

حركة الإمام الجواد عليه السلام

لم يتغير شيء في مدة إمامة الرضا والجواد عليهما السلام من حال الأمة الإسلامية بشكل عام والحالة الشيعية بشكل خاص ما يستدعي التغيير، إلا أن الأمر الذي تغير هو في تصريح الأئمة عليهم السلام بأن القائم سيكون هو الثاني عشر منهم عليهم السلام في إشارة إلى أن الأمة ستستمر في وضعها المزري في إقصاء أئمة الحق والانحراف عنهم إلى

(١) مشكاة الأنوار/ ٦٣ - ٦٤.
(٢) الغيبة للنعماني/ ٢٠٣.

جبهة الباطل وبقاء العلة التي ألجأتهم للقعود، مما سيؤدي إلى حدوث الغيبة وحجب الإمام عن هذه الأمة الجاحدة، لذلك كان عمل الإمام الجواد (سلام الله عليه) منصباً في تهيئة الشيعة لمرحلة الغيبة والتعامل مع النواب والسفراء، وبدأ يعلن أن الإمام الذي سيقوم وتكون حركة الإصلاح والتغيير على يديه سيكون هو الذي يغيب عنهم شخصه ويخفى على الناس مولده.

فعن عبد العظيم الحسني (رضي الله عنه) قال: قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام: يا مولاي إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً فقال عليه السلام: ما منا إلا قائم بأمر الله وهاد إلى دين الله ولكن القائم الذي يطهر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً هو الذي يخفى على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول الله وكنيه وهو الذي تطوى له الأرض ويذل له كل صعب يجتمع إليه من أصحابه عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره فإذا كمل له العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج بإذن الله فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى عز وجل قال عبد العظيم فقلت له يا سيدي: فكيف يعلم أن الله قد رضي قال يلقي في قلبه الرحمة فإذا دخل المدينة أخرج اللات والعزى فأحرقهما[1].

وهنا نكتة لطيفة أيضاً في قوله: «فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر الله أمره» والنكتة في استعماله أداة الشرط إذا ليعلن أن شرط الظهور الشريف هو اجتماع هذه العدة الشريفة واكتمال عددهم، والنكتة المهمة الأخرى هي في وصفهم (بأهل الإخلاص) وهو ما نحاول أن نثبته في هذا البحث، بأن الإمام يحتاج إلى عدة من أهل الإخلاص والطهارة وممن تخرّج من مدرسة محمد وآله عليهم السلام لتزكية النفس، وحاز على درجة معلم لغيره.

واستمر الأمر على ما هو عليه في إمامة الهاديين العسكريين عليهما السلام في تهيئة

(١) الاحتجاج ج ٢/ ٤٤٩.

الأمة للتعامل مع الغيبة والارتباط بالسفراء والفقهاء، وكأنهم عليهم السلام قد يئسوا من أن تنفض الأمة غبار بؤسها وغفلتها، فراحوا يخططون لزمن الغيبة ويحضرون شيعتهم على ما فيهم من تقصير للتعامل مع الإمام الغائب رحمة بهم ورعاية لهم.

حركة الإمام الحجة (أرواحنا له الفداء)

لم يحدث تغيير في الوضع العام الذي الجأ الأئمة عليهم السلام للقعود مما اضطر الإمام (عج) للتواري عن الأنظار حفاظاً على مستقبل الشريعة المرتبط بسلامته (أرواحنا فداه)، ونعني أن العدة المنتظرة لم تكن متوفرة بعد، وبالتالي فإن سنة الله في التغيير لن تتبدل ولن تتحول فلابد من أن تكون هنالك إرادة عند الناس للتغيير وعمل في هذا الاتجاه ليتحقق الوعد الإلهي بالنصر على الظالمين ونصر المستضعفين، ونرى هذا المعنى حاضرا في جواب الإمام (أرواحنا له الفداء) في أحد توقيعاته التي خرجت في معرض الإجابة عن علة الغيبة، فكان جوابا مهذبا فهم السائل منه أن السبب يعود إليهم لا للإمام، عن إسحاق بن يعقوب أنه ورد عليه من الناحية المقدسة على يد محمد بن عثمان: «وأما علة ما وقع من الغيبة فإن الله عزوجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[1] إنه لم يكن أحد من آبائي إلا وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه وإني أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي»[2].

سلام الله عليك يا مولاي ما أروع هذا الجواب وما أنبله، فبالرغم من شدة معاناتك التي نحن السبب فيها إلا أنك لم تشأ أن تجرح السائل ومن ورائه المجتمع الشيعي حتى ولو بكلمة فأجبت إجابة يفهم منها أن العلة في الغيبة أنتم، ويؤكد هذا ما وصل للشيخ المفيد من رسائل من الناحية المقدسة تحمل هذا المضمون.

يقول (عج): نحن وإن كنا نائين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.
(٢) بحار الأنوار ج٥٢/ ٩٣.

الذي أراناه الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين فإنا نحيط علما بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، إنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء..[1].

ويقول في رسالة أخرى متحسرا معاتبا شيعته (أرواحنا فداه): ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل...[2].

إذن بهذا يتضح أن المسؤول الأول عن الغيبة هم الناس أنفسهم وأن التقصير الذي لحق بالشيعة جراء عدم العمل لنصرة إمامهم كان كبيرا جدا وخير دليل على ذلك هذه الأسطر التي سطرها الإمام (سلام الله عليه) مخاطبا الشيخ المفيد (رضي الله عنه) بحسرة وألم مبينا أن الذي يمنع الظهور واللقاء هو جنوح الناس عما كان عليه السلف الصالح (أي أئمة أهل البيت عليهم السلام) ونبذهم العهد بنصرة إمامهم ووليهم، وكذا التفرق والتشرذم الحاصل بينهم، وأشار (روحي فداه) بشكل واضح إلى أن علة غيبته هو عدم لياقة الناس (فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم) وأن هذه القبائح والأعمال الردية هي الحجاب المانع من التشرف برؤيته عليه السلام وبالتالي هي التي كانت وراء غيبته الطويلة، فلو كانت هناك عدة من أهل الإخلاص والصلاح لتحقق اليمن باللقاء وتعجلت السعادة بالمشاهدة والظهور الشريف المبارك، وبهذا نكون قد خلصنا إلى أن سبب الغيبة هو في خطأ الأرض لا اختيار السماء.

(١) الاحتجاج ج٢/ ٤٩٧.
(٢) الاحتجاج ج٢/ ٤٩٩.

خلاصة الفصل

والخلاصة التي نخرج بها بعد سوقنا للأدلة والشواهد التي مرت بنا في هذا الفصل أن السبب الرئيس وراء الغيبة هو في عدم لياقة الناس وعدم توفر شروط التغيير المتمثلة بوجود عدة مخلصة مغيّرة ومؤهلة لرفع راية الإصلاح والعدل، إذ كما قلنا أن فاقد الشيء لا يعطيه فالقلب الظالم لا ينتج العدالة والعقل الأسير للهوى لا يمكن له اتباع الحق فضلاً عن قيادة الناس نحوه.

ومن الشواهد التي سقناها ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما برر مسألة قيامه بعد القعود، قوله عليه السلام: «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقرّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه عندي أزهد من عفطة عنز»، وكذا قول الإمام الباقر عليه السلام: «إذا اجتمع للإمام عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر وجب عليه القيام والتغيير».

تأمل عزيزي القارئ بقول أمير المؤمنين عليه السلام «وقيام الحجة بوجود الناصر»، اذ يؤكد الإمام أن لا حجة شرعية تبرر له القعود بوجود الأنصار والأعوان، وكذا يؤكد الإمام الباقر هذا المعنى بإعلانه أن وجود الأنصار يوجب على الإمام القيام والتغيير، والكل يعرف أن الوجوب يعني الإلزام، فحينما يؤكد الإمام (روحي فداه) أنه يجب على الإمام القيام يعني أن تكليفه الشرعي يقتضي ذلك وعدم الالتزام بهذا الواجب يعني الخروج عن العصمة وبالتالي الإمامة وهذا محال. وقد مر بنا الكثير من هذه الشواهد بيد أننا جئنا بهذين المثالين للتذكير أولاً، ولوضوح دلالتهما ثانياً.

ملاحظة

ولم يبق لنا إلا ملاحظة واحدة، هي: قد يطرح سؤال مفاده: لم تفاوت العدد الذي طلبه الأئمة عليهم السلام للقيام، وقد تراوح ما بين سبعة أشخاص إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

نقول والله العالم: إننا لو تتبعنا مسار الأحداث حين صدور الروايات التي ذكرت فيها هذه الأعداد، لتبين لنا السبب وراء ذلك، فحينما أراد أمير المؤمنين عليه السلام سبعة أشخاص يكونون عونا له بالقيام، أراد بهذا الحد الأدنى من العدة المطلوبة، فقد تحدثت روايات عن أربعين رجلاً أو أقل من هذا العدد كما في قوله عليه السلام: «والذي بعث محمداً بالحق لو وجدت يوم بويع أخو تيم أربعين رهطاً لجاهدتهم في الله إلى أن أبلي عذري»، والمعنى أن الوضع المضطرب وعدم استتباب الأمر للمتآمرين كان في صالح قيام الإمام، إن بايعه العدد المطلوب من أهل الإخلاص والثبات، إذ كان في علمه وهو باب مدينة العلم، وهو ابن أبي طالب صاحب السيف الذي لا يجرؤ على مواجهته أحد، أن هذا العدد يكفي لإحداث أو إطلاق شرارة التغيير التي ستعصف بالمؤامرة الغادرة.

وهذا الأمر يجري على سائر الظروف التي صدرت فيها روايات العدة المطلوبة، إذ أن السبعة عشر أو الخمسة والعشرين الذين تمنى الصادق عليه السلام وجودهم كانوا ملائمين لإحداث التغيير أو إطلاق شرارته في ظل الظرف الذي كان يعصف بدولة بني أمية الكافرة والأحداث التي أدت إلى تولي بني العباس زمام السلطة، على اعتبار أن النماذج التي يطلبها الأئمة (صلوات ربي عليهم)، على درجة عالية من الإخلاص والطاعة والعلم والتسليم والشجاعة، مما سيؤدي بشكل حتمي إلى نجاح المهمة الملقاة على عاتقهم، وهذا الأمر ينطبق على قيام الحجة ابن الحسن (عج)، فلأن دعوته مقدر لها أن تعم جميع المعمورة احتاج لأن يكون العدد المطلوب من القادة، وهم العلماء والحكماء الحلماء يبلغ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهم القادة فحسب، أما جيشه الذي يخرج به ويقاتل في بدء حركته فيبلغ

عشرة أو اثني عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان المستميتين دفاعاً عن قائدهم وعقيدتهم، وهو عدد يناسب الوضع في عصرنا الحالي لاسيما إن كانوا على درجة عالية من الانضباط والتدريب والتفاني في تنفيذ كل ما يطلبه منهم قائدهم المسدد والمؤيد من قبل السماء، وتجدر الإشارة إلى أنه كلما ربحوا معركة، دخل في عدادهم الكثير من المقاتلين.

الفصل الخامس

الشروط أو الصفات المطلوب توفرها في أنصار الإمام

(سلام الله عليه)

بعد أن ثبت لنا في الفصل السابق أن العلة وراء الغيبة هي عدم لياقة الناس واستعدادهم للتغيير، يُطرح سؤال مهم هو: بعد أن شخصنا العلة من خلال الشواهد والأدلة التي طرحت آنفا، هل بيّن الأئمة عليهم السلام سبل الخروج من هذه المشكلة أو الشروط والصفات التي تؤهل من يتصف بها أن ينضم إلى حركتهم المباركة بالتغيير ويكون جندياً صالحاً لخدمة العقيدة الحقة التي أراد الله أن يظهرها على الدين كله ولو كره المشركون؟.

الجواب: نعم لقد بينوا عليهم السلام من خلال أحاديثهم المباركة ومنها ما مر علينا من روايات الشروط والصفات التي أرادوا من شيعتهم الاتصاف بها ليكونوا مؤهلين لحمل راية الهدى والإصلاح.

ومن هذه الروايات ما مر بنا عن إمامنا السجاد عليه السلام في حواره مع عباد البصري في صفات المجاهدين، بيد أننا قبل أن نأتي بالرواية المذكورة وغيرها من الشواهد للإشارة لهذا الموضوع لابد من مقدمة منهجية للتوضيح.

أن حركة التغيير التي من المقرر أن يقوم بها الإمام (روحي وأرواح العالمين له الفداء) هي في حقيقتها استئناف لجميع حركات الأنبياء ودعواتهم، لذلك هو يشترك معهم بصفة الدعوة إلى الله، فهو داعي الله كما في القرآن الكريم والزيارات والدعوات له بالفرج، كما أنه في أول خطبة له يوجهها للبشرية جمعاء يقول: «أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى الناس بآدم»، وهي إشارة لطيفة منه عليه السلام لحركته الهادفة لبناء الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن كل شيء آخر ولكن انطلاقا من منهج خالق ذلك الإنسان، إذن فهو يشترك مع الأنبياء عليهم السلام في الغاية من بعثاتهم التي هي الدعوة إلى الله وبناء الإنسان والوصول به إلى مقام الإنسان الكامل، ولمّا كان من المقدر أن هذه المهمة الشاقة ستقع على عاتقه الشريف وأن الله تبارك وتعالى قد قدّر أيضاً أن هذه المهمة تحتاج إلى أعوان أكفاء (حسب قانون

الأسباب) اقتضى أولا توفر هذه العدة المعدودة من الكاملين وثانيا ليكونوا شهوداً على أحقية المنهج الذي سيطرحه (روحي فداه) لتربية الخلق وتوجيههم نحو السعادة، على اعتبار أن هؤلاء الكاملين قد تخرجوا من مدرسته وتربوا على يديه وأيدي آبائه الطاهرين عليهم السلام ومن ثم ليكونوا هم النمير الصافي المتفرع من فيض علمه وجوده وأدبه لينهل منه الخلق، وليكونوا أيضا الأداة المستقيمة التي سيقوّم بها اعوجاج الناس ويصبحوا لسانه الناطق في رعيته والمرآة التي تحكي صفاته، وبكلمة أخرى سيصنع منهم نموذجا مصغرا عنه يبثهم في المعمورة معلمين ومؤدبين وحكاما وقضاة بين الناس لا يحيفون ولا يجورون.

من هنا نستطيع أن نعرف لماذا كل هذا الانتظار والشوق لهذه العدة المعدودة، يعني أننا في حقيقة الأمر لا ننتظر الإمام (روحي وأرواح العالمين له الفداء) وإنما ننتظر هؤلاء النفر الذين سيحركون سُنة التغيير الإلهية (المعطلة الآن) لأنهم سيعملون على تغيير أنفسهم وإصلاحها وبهذا ستعم بركتهم كل العالم، وذلك لأن سنن الله تبارك وتعالى لا تتحقق اعتباطا وإنما حسب شروط ومحركات، كما قال ربنا سبحانه وتعالى في محكم كتابه الحكيم «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فإن الإمام سيكون قلب هذه العدة المباركة وروحها التي تحيى بها وبالتالي ستكون هذه العدة قلب هذه الأمة وروحها التي ستبث الحياة في جسد هذا العالم الميت وتوفر الشرط في التغيير وتحقق السنة الإلهية، فكانوا هم الشرط والمحرك لسنة التغيير، وبهذا فإن العمل على إيجاد هؤلاء النفر المباركين من أولى أولويات المنتظرين، ولا أعني من إيجادهم هو البحث عنهم في الخارج، بل إيجادهم في أنفسنا فلربما أنت منهم يا من تقرأ هذه السطور ولم تكن ملتفتا لعظم الدور الذي من الممكن أن تؤديه في حركة الإصلاح والتغيير، بل ربما أن العدد يوشك أن يكتمل ولم تبق إلا أنت، فالبدار البدار إلى ساحة الجهاد الأكبر لنهزم أنفسنا شيطاننا الأكبر فإن من قدر على نفسه كان على غيرها اقدر كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام إذن تبين أننا ننتظر أنفسنا ولا نشعر وننتظر الفرج من غير جهته كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وذلك لأننا نتوقع أن يأتي الفرج من الخارج في حين أنه قابع في أنفسنا ومتوقف على إصلاح

ذواتنا، وسبحان الله الآن والآن فقط فهمت قول الإمام الرضا عليه السلام : «انتظار الفرج من الفرج»[١]. فإن الأمر منوط بنا ونحن الذين نصنع الحدث وإلا فالإمام جاهز للقيادة والهدى في كل وقت بيد أنه يعمل وفق السنن الإلهية ومفاتيح هذه السنن بيد الخلق بالمشيئة التي قررها البارئ عزوجل ، أي أن الانتظار هو العمل على التحلي بالصفات التي قرروها عليهم السلام وبينوها من كتاب الله وأحاديثهم الشريفة.

بعد هذه المقدمة نقول: إن الأئمة عليهم السلام لم يتركونا سدى من دون أن يبينوا لنا السبيل ويهدونا إلى محجة الوصول، لذلك أشاروا في أكثر من مناسبة وبأساليب متنوعة إلى طريق الهدى المتمثل بالتحلي بصفات العدة المغيرة، والشروط الواجب توفرها في أنفسهم.

أسلوب القرآن الكريم في بناء الإنسان الكامل

لقد قسم كتاب الله الإنسانَ إلى محورين وركز حركته الإصلاحية باتجاههما بغية الوصول من خلالهما إلى إنسان يتمتع بصفات الكمال ومن ثم سعادة الأبد كما ورد في الأخبار من الغاية في خلق الإنسان، وهما محور العقل (أي دائرته الفكرية) ومحور القلب أي (دائرته النفسية)، وعبر عن هذه المهمة بالغاية التي بعث من أجلها خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله بقوله تبارك وتعالى في كتابه المجيد: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[٢].

واللافت للنظر أن الآية الكريمة قدمت التزكية على التعليم، بل أن كل الآيات التي تحدثت عن بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمة التزكية قد قدمت الأخيرة على التعليم، (ما عدا آية واحدة تمثلت بدعاء إبراهيم عليه السلام وليس محل شرحها هنا) ومن حقنا أن نتساءل عن سبب تقديم التزكية على التعليم؟.

---

(١) غيبة الطوسي/ ٤٥٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

الذي يهمنا في هذا البحث هو مسألة التزكية (لأن دائرتها النفس)، باعتبار أن الانتظار مسالة نفسية تحتاج إلى الكثير من المزايا والكمالات النفسانية مثل الصبر والحلم والأناة والتسليم إلى غيرها من الصفات، بيد أننا يمكن أن نلخص الكلام بشأن السؤال المطلوب الإجابة عنه بالتالي.

فنقول: بما أن التعليم الذي جاء به رسول الله ﷺ يختص بالكتاب المنزل من البارئ جل وعلا، لذا هو يحتاج إلى أوعية طاهرة، لأن الوعاء المتنجس مهما استقبل من الماء سينجسه بالملاقاة وبالتالي لن تفيده كثرة الماء شيئاً مادام فيه عين النجس، من هنا قدمت التزكية على تعلم الكتاب لأنه ليس أي كتاب، هو تجلي الله لخلقه، وعليه فإن غير المتطهر لن يزيده الكتاب إلا ضلالا، وأما المتطهرون فسينهل أحدهم من الكتاب على قدر تطهره من الأرجاس والأدناس الباطنية، والتزكية معناها رفع الأوساخ الباطنية والأمراض القلبية والتخلص من الحجب الظلمانية، يقول الشيخ مكارم الشيرازي أعزه الله في تفسيره الأمثل «إن المقصود من التزكية هو التنقية من رواسب الجاهلية والشرك، ومن بقايا العقائد الباطلة والأفكار الخرافية والأخلاق الحيوانية القبيحة لأن الضمير الإنساني ما دام لم يطهر من الأدران والرواسب لم يمكن إعداده وتهيئته لتعليم الكتاب الإلهي والحكمة والعلم الواقعيين، تماما مثل اللوحة التي لا تقبل الألوان والنقوش الجميلة ما لم تنظف من النقوش القبيحة أولاً[١]. إذن إذا تطهرت النفس، صفا القلب، وإذا صفا القلب تحرر العقل من أسره وعقل عن ربه وفهم الخطاب وأشرق بنور العلم وأصبح مصداقا لقول أَبِي عَبدِ الله ﷺ قَالَ: قُلتُ لَهُ: مَا الْعَقْلُ قَالَ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ...[٢]، لأن العقل إذا لم يتحرر من أسر الهوى (الذي هو استيلاء قوى النفس الأمارة على الإنسان) يصبح كما وصفه أمير المؤمنين ﷺ بقوله: «كم من عقل أسير عند هوى أمير»، أو يصبح منتفياً كما في قوله ﷺ: «لا عقل مع هوى»، أو «لا يجتمع العقل والهوى»، أو فاسداً كما في قوله: «يسير الهوى يفسد العقل»، والحل في قوله ﷺ: «مخالفة الهوى شفاء العقل»[٣].

---

(١) تفسير الأمثل ج٢/ تفسير الآية ١٦٤.
(٢) الكافي ج١/ ١٠.
(٣) غرر الحكم/ ٦٤.

والمعنى أننا إن لم نحرر عقولنا من قوانا الغضبية والشهوية واستسلمنا للنزعات الحيوانية فينا فإن العقل سيبقى معطلاً وبالتالي ستسيطر على أنفسنا الشيطنة أو النكراء التي كانت مهيمنة على معاوية أو البهيمية التي ذكرت في القران الكريم باعتبارها وصفاً لفئة من الناس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]. وبعبارة أخرى أن جوهر الإدراك الذي هو العقل سوف لن يعمل ويعطل وبالتالي فإن الإنسان سوف لن يدرك المعلومات ولن يكون مؤهلاً لاستقبال النور الإلهي المفاض على ذوي العقول المتحررة من أسرها، فأصبح لزاماً على المؤمنين أن يباشروا التزكية لنيل الفلاح وتحصيل ما لم يكونوا يعلمون عن طريق النبي الأعظم وأهل بيته الكرام (صلوات ربي عليهم أجمعين).

فلا طريق للعلم إلا بالتزكية، وبمقدار هذه التزكية سننهل من علم الكتاب، فإذا طهر المرء ظاهره فقط أخذ من الكتاب ظاهر الشريعة فقط وصورة الحقيقة لا روحها وهكذا كلما تعمق المرء في تطهير نفسه تعمق في كتاب ربه، والخلاصة أن علم الكتاب لا ينال إلا بالتزكية، وإذا علمنا أن الإمام (عج) سيدعو الناس إلى الرجوع والاحتكام إلى كتاب الله وأن الأخير سيكون هو دستور الحياة الفعلي في دولته المباركة لذا أصبح لزاما على من يريد الانخراط في مشروعه المبارك ويصير من الدعاة له ومنتظرا له على الحقيقة أن يكون أعرف الناس بهدي الكتاب وسننه ومعارفه وهذا لا يكون إلا بالتزكية، ونحن في هذا الفصل سنسير وراء جانب التزكية في القرآن الكريم لأنه المفتاح لنيل المعارف الأخرى.

ولقد وجدنا أن القرآن الكريم يسطر صفاتاً للداعين إلى الله والمجاهدين في سبيله، ووجدنا أيضاً أنها عين الصفات التي يشترطها الأئمة عليهم السلام للدخول في مشروعهم في القيام والإصلاح، والذي سيتلخص في النهضة المهدوية الموعودة، لذا ارتأينا أن نتخذها منهجا والعمل على التحلي والاتصاف بها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

والصفات هي في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقد احتج الإمام زين العابدين عليه السلام بهذه الآية على عباد البصري كما في الرواية التي سقناها في الصفحات المتقدمة ونعيد تقديمها في هذه السطور، تقول الرواية: «عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: لَقِيَ عَبَّادٌ الْبَصْرِيُّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَقَالَ لَهُ: يَا عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ تَرَكْتَ الْجِهَادَ وَصُعُوبَتَهُ وَأَقْبَلْتَ عَلَى الْحَجِّ وَلِينَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: أَتَمَّ الْآيَةَ فَقَالَ: التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: إِذَا رَأَيْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ فَالْجِهَادُ مَعَهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ»[2].

ونستفيد من هذه الرواية من وجهين، الأول أنها تدل على ما قلناه من أن الإمام يفتقر إلى الأنصار المهيئين للقيام والتغيير، والثاني أنها تدل على الصفات المطلوبة في الرجال المغيرين.

والرواية الأخرى التي كانت الآية عينها تمثل محور استدلالها على شرعية القيام والجهاد والدعاء إلى الله تبارك وتعالى (وهي مهمة أنصار القائم) (عج) ما ورد عَنْ أَبِي عَمْرٍو الزُّبَيْرِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ أَهُوَ لِقَوْمٍ لَا يَحِلُّ إِلَّا لَهُمْ وَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَوْ هُوَ مُبَاحٌ لِكُلِّ مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ تَعَالَى وَآمَنَ بِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وَمَنْ كَانَ كَذَا فَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ لَا يَحِلُّ إِلَّا لَهُمْ وَلَا يَقُومُ بِذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قُلْتُ وَمَنْ أُولَئِكَ قَالَ مَنْ قَامَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.
(٢) الكافي ج٥/ ٢٢.

بِشَرَائِطِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ فَهُوَ الْمَأْذُونُ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللّهِ عزَّ وَجلّ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَائِماً بِشَرَائِطِ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ فِي الْجِهَادِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ فَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِي الْجِهَادِ وَلَا الدُّعَاءِ إِلَى اللّهِ عَزَّ وَجلَّ حَتَّى يَحْكُمَ فِي نَفْسِهِ بِمَا أَخَذَ اللّهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرَائِطِ الْجِهَادِ قُلْتُ فَبَيِّنْ لِي يَرْحَمُكَ اللّهُ قَالَ إِنَّ اللّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الدُّعَاءَ إِلَيْهِ وَوَصَفَ الدُّعَاةَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ دَرَجَاتٍ يُعَرِّفُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَيُسْتَدَلُّ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَوّلُ مَنْ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ وَدَعَا إِلَى طَاعَتِهِ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ فَبَدَأَ بِنَفْسِهِ فَقَالَ عَزَّ وَجلَّ وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ثُمَّ ثَنَّى بِرَسُولِ اللّهِ ﷺ فَقَالَ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ يَعْنِي بِالْقُرْآنِ فَلَا يَكُونُ دَاعِياً إِلَى اللّهِ عَزَّ وَجلَّ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللّهِ وَدَعَا إِلَيْهِ بِغَيْرِ مَا أَمَرَ اللّهُ عزَّ وَجلَّ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَمَرَ أَنْ لَا يُدْعَى إِلَّا بِهِ وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَقُولُ تَدْعُو ثُمَّ ثَلَّثَ بِالدُّعَاءِ إِلَيْهِ بِكِتَابِهِ أَيْضاً فَقَالَ تَعَالَى إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ أَيْ يَدْعُو وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ أَذِنَ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهِ بَعْدَهُ وَبَعْدَ رَسُولِهِ ﷺ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ثُمَّ أَخْبَرَ مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَمِمَّنْ هِيَ وَأَنَّهَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ سُكَّانِ الْحَرَمِ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللّهِ قَطُّ الَّذِينَ وَجَبَتْ لَهُمْ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مِنْ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ أَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً الَّذِينَ وَصَفْنَاهُمْ قَبْلَ هَذَا مِنْ صِفَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَعْنِي أَوَّلَ مَنْ تَبِعَهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ لَهُ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ عَزَّ وَجلَّ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا وَمِنْهَا وَإِلَيْهَا قَبْلَ الْخَلْقِ مِمَّنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللّهِ قَطُّ وَلَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ وَهُوَ الشِّرْكُ ثُمَّ ذَكَرَ أَتْبَاعَ نَبِيِّهِ ﷺ وَأَتْبَاعَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي وَصَفَهَا فِي كِتَابِهِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجَعَلَهَا دَاعِيَةً إِلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ وَصَفَ أَتْبَاعَ نَبِيِّهِ ﷺ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ وَقَالَ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَعْنِي أُولئِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ثُمَّ حَلَّاهُمْ وَوَصَفَهُمْ لِئَلَّا يَطْمَعَ فِي اللُّحُوقِ بِهِمْ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِيمَا حَلَّاهُمْ وَوَصَفَهُمُ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغوِ مُعْرِضُونَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ وَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ وَحِلْيَتِهِمْ أَيْضاً وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ اشْتَرى مِنْ هؤُلاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ صِفَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ثُمَّ ذَكَرَ وَفاءَهُمْ بَعْدَهُ بِعَهْدِهِ وَمُبايَعَتِهِ فَقَالَ: وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ فَلَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الْآيَةُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ قَامَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَكَ الرَّجُلُ يَأْخُذُ سَيْفَهُ فَيُقاتِلُ حَتَّى يُقْتَلَ إِلَّا أَنَّهُ يَقْتَرِفُ مِنْ هذِهِ الْمَحارِمِ أَشَهِيدٌ هُوَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَبَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُجاهِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هذِهِ صِفَتُهُمْ وَحِلْيَتُهُمْ بِالشَّهادَةِ وَالْجَنَّةِ فَقَالَ التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ الْعابِدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً الْحامِدُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حالٍ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخاءِ السَّائِحُونَ وَهُمُ الصَّائِمُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يُواظِبُونَ عَلَى الصَّلَواتِ الْخَمْسِ الْحافِظُونَ لَهَا وَالْمُحافِظُونَ عَلَيْهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَفِي الْخُشُوعِ فِيهَا وَفِي أَوْقاتِهَا الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ ذلِكَ وَالْعامِلُونَ بِهِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْتَهُونَ عَنْهُ قَالَ فَبَشِّرْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَهُوَ قَائِمٌ بِهذِهِ الشَّرائِطِ بِالشَّهادَةِ وَالْجَنَّةِ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتالِ إِلَّا أَصْحابَ هذِهِ الشُّرُوطِ فَقَالَ تَعَالَى أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ

دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَتْبَاعِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ فَمَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَالظَّلَمَةِ وَالْفُجَّارِ وَأَهْلِ الْخِلَافِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِمَا مِمَّا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ظَلَمُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فَهُوَ حَقُّهُمْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا مَعْنَى الْفَيْءِ كُلُّ مَا صَارَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا قَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ فَمَا رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَقَدْ فَاءَ مِثْلُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَيْ رَجَعُوا ثُمَّ قَالَ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ أَيْ تَرْجِعَ فَإِنْ فاءَتْ أَيْ رَجَعَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ يَعْنِي بِقَوْلِهِ تَفِيءَ تَرْجِعَ فَدَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْفَيْءَ كُلُّ رَاجِعٍ إِلَى مَكَانٍ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ وَيُقَالُ لِلشَّمْسِ إِذَا زَالَتْ فَاءَتِ الشَّمْسُ حِينَ يَفِيءُ الْفَيْءُ وَذَلِكَ عِنْدَ رُجُوعِ الشَّمْسِ إِلَى زَوَالِهَا وَكَذَلِكَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ فَإِنَّمَا هِيَ حُقُوقُ الْمُؤْمِنِينَ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ظُلْمِ الْكُفَّارِ إِيَّاهُمْ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا أُذِنَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَامُوا بِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْقِتَالِ حَتَّى يَكُونَ مَظْلُوماً وَلَا يَكُونُ مَظْلُوماً حَتَّى يَكُونَ مُؤْمِناً وَلَا يَكُونُ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُونَ قَائِماً بِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ الَّتِي شَرَطَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ شَرَائِطُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ مُؤْمِناً فَإِذَا كَانَ مُؤْمِناً كَانَ مَظْلُوماً وَإِذَا كَانَ مَظْلُوماً كَانَ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْجِهَادِ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْمِلًا لِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ فَهُوَ ظَالِمٌ مِمَّنْ يَنْبَغِي وَيَجِبُ جِهَادُهُ حَتَّى يَتُوبَ وَلَيْسَ مِثْلُهُ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْجِهَادِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَظْلُومِينَ الَّذِينَ أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ بِالْقِتَالِ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا فِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ أُحِلَّ لَهُمْ

جِهادُهُمْ بِظُلْمِهِمْ إِيّاهُمْ وأُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتالِ فَقُلتُ هٰذِهِ نَزَلَتْ فِي الْمُهاجِرِينَ بِظُلْمِ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ لَهُمْ فِيمَا نالَهُمْ أَوْ فِي قِتالِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَمَنْ دُونَهُمَا مِنْ مُشْرِكِي قَبائِلِ الْعَرَبِ فَقالَ لَوْ كانَ إِنَّمَا أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَطْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى قِتالِ جُمُوعِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَغَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قَبائِلِ الْعَرَبِ سَبِيلٌ لِأَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوهُمْ غَيْرُهُمْ وَإِنَّمَا أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لِإِخْراجِهِمْ إِيّاهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَوْ كانَتِ الْآيَةُ أَنَّمَا عَنَتِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ كانَتِ الْآيَةُ مُرْتَفِعَةَ الْفَرْضِ عَمَّنْ بَعْدَهُمْ إِذْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الظّالِمِينَ وَالْمَظْلُومِينَ أَحَدٌ وَكانَ فَرْضُهَا مَرْفُوعاً عَنِ النّاسِ بَعْدَهُمْ إِذْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الظّالِمِينَ وَالْمَظْلُومِينَ أَحَدٌ وَلَيْسَ كَمَا ظَنَنْتَ وَلا كَمَا ذَكَرْتَ وَلٰكِنَّ الْمُهاجِرِينَ ظُلِمُوا مِنْ وَجْهَيْنِ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْراجِهِمْ مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ فَقاتَلُوهُمْ بِإِذْنِ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ وَظَلَمَهُمْ كِسْرَى وَقَيْصَرُ وَمَنْ كانَ دُونَهُمْ مِنْ قَبائِلِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ بِمَا كانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِمَّا كانَ الْمُؤْمِنُونَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ فَقَدْ قاتَلُوهُمْ بِإِذْنِ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ وَبِحُجَّةِ هٰذِهِ الْآيَةِ يُقاتِلُ مُؤْمِنُو كُلِّ زَمانٍ وَإِنَّمَا أَذِنَ اللّٰهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قامُوا بِمَا وَصَفَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّرائِطِ الَّتِي شَرَطَهَا اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمانِ وَالْجِهادِ وَمَنْ كانَ قائِماً بِتِلْكَ الشَّرائِطِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ مَظْلُومٌ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الْجِهادِ بِذٰلِكَ الْمَعْنَى وَمَنْ كانَ عَلَى خِلافِ ذٰلِكَ فَهُوَ ظالِمٌ لَيْسَ مِنَ الْمَظْلُومِينَ وَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِي الْقِتالِ وَلا بِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ وَلا مَأْذُونٍ لَهُ فِي الدُّعاءِ إِلَى اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلا يَكُونُ مُجاهِداً مَنْ قَدْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِجِهادِهِ وَحَظَرَ الْجِهادَ عَلَيْهِ وَمَنَعَهُ مِنْهُ وَلا يَكُونُ داعِياً إِلَى اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَمَرَ بِدُعاءِ مِثْلِهِ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْحَقُّ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ وَلا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ مَنْ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُنْهَى عَنْهُ فَمَنْ كانَ قَدْ تَمَّتْ فِيهِ شَرائِطُ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي قَدْ وَصَفَ بِهَا أَهْلَهَا مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مَظْلُومٌ فَهُوَ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الْجِهادِ كَمَا أُذِنَ لَهُمْ لِأَنَّ حُكْمَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَفَرائِضَهُ عَلَيْهِمْ سَواءٌ إِلّا مِنْ عِلَّةٍ أَوْ حادِثٍ يَكُونُ وَالْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ أَيْضاً فِي مَنْعِ الْحَوادِثِ شُرَكاءُ وَالْفَرائِضُ عَلَيْهِمْ وَاجِدَةٌ يُسْأَلُ الْآخِرُونَ عَنْ أَداءِ الْفَرائِضِ كَمَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْأَوَّلُونَ

وَيُحَاسَبُونَ بِهِ كَمَا يُحَاسَبُونَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى صِفَةِ مَنْ أَذِنَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِي الْجِهَادِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ وَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِيهِ حَتّى يَفِيءَ بِمَا شَرَطَ اللّٰهُ عَلَيْهِ فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ شَرَائِطُ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فَهُوَ مِنَ الْمَأْذُونِينَ لَهُمْ فِي الْجِهَادِ فَلْيَتَّقِ اللّٰهَ عَبْدٌ وَلَا يَغْتَرَّ بِالْأَمَانِيِّ الَّتِي نَهَى اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْكَاذِبَةِ عَلَى اللّٰهِ تَعَالَى الَّتِي يُكَذِّبُهَا الْقُرْآنُ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا وَمِنْ حَمَلَتِهَا وَرُوَاتِهَا وَلَا يَقْدَمْ عَلَى اللّٰهِ بِشُبْهَةٍ وَلَا يُعْذَرْ بِهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ الْمُتَعَرِّضِ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْزِلَةٌ يُؤْتِي اللّٰهُ مِنْ قِبَلِهَا وَهِيَ غَايَةُ الْأَعْمَالِ فِي عِظَمِ قَدْرِهَا فَلْيَحْكُمِ امْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ وَلْيُرِهَا كِتَابَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْرِضْهَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِامْرِئٍ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنْ وَجَدَهَا قَائِمَةً بِمَا شَرَطَ اللّٰهُ عَلَيْهَا فِي الْجِهَادِ فَلْيُقْدِمْ عَلَى الْجِهَادِ فَإِنْ عَلِمَ تَقْصِيرَهَا فَلْيُقِمْهَا عَلَى مَا فَرَضَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا فِي الْجِهَادِ ثُمَّ لْيُقْدِمْ بِهَا وَهِيَ طَاهِرَةٌ مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جِهَادِهَا وَلَسْنَا نَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ الْجِهَادَ وَهُوَ عَلَى خِلَافِ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ شَرَائِطِ اللّٰهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ أَنْ لَا يُجَاهِدُوا وَلَكِنَّا نَقُولُ قَدْ عَلَّمْنَاكُمْ مَا شَرَطَ اللّٰهُ عَلَى أَهْلِ الْجِهَادِ الَّذِينَ بَايَعَهُمْ وَاشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجِنَانِ فَلْيُصْلِحِ امْرُؤٌ مَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ تَقْصِيرٍ عَنْ ذَلِكَ وَلْيَعْرِضْهَا عَلَى شَرَائِطِ اللّٰهِ فَإِنْ رَأَى أَنَّهُ قَدْ وَفَى بِهَا وَتَكَامَلَتْ فِيهِ فَإِنَّهُ مِمَّنْ أَذِنَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِي الْجِهَادِ فَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْمَحَارِمِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى الْجِهَادِ بِالتَّخَبُّطِ وَالْعَمَى وَالْقُدُومِ عَلَى اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْجَهْلِ وَالرِّوَايَاتِ الْكَاذِبَةِ فَقَدْ لَعَمْرِي جَاءَ الْأَثَرُ فِيمَنْ فَعَلَ هَذَا الْفِعْلَ إِنَّ اللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصُرُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فَلْيَتَّقِ اللّٰهَ امْرُؤٌ وَلْيَحْذَرْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ فَقَدْ بَيَّنَ لَكُمْ وَلَا عُذْرَ بَعْدَ الْبَيَانِ فِي الْجَهْلِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ وَحَسْبُنَا اللّٰهُ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ[1].

(١) تهذيب الأحكام للطوسي ج٦/ ١٢٨ ـ ١٣٤.

ملخص الرواية

أنه لا يحل لأحد الدعاء إلى الله والجهاد باسم الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا إن كانت فيه الشرائط التي اشترطها الله على المجاهدين في سبيله وهي الآية محل البحث، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فكيف بالظالم أن يكون محل الخطاب الإلهي بجهاد الظالم، وكيف بالذي يأتي المنكر أن ينهى الناس عنه وهكذا.

الرواية تؤكد على أن الوحيدين ممن تتوفر بهم الشروط المطلوبة هم المشمولون بالخطاب الإلهي وهم المعنيون بالإذن الرباني بجهاد الظالمين وإن قتلوا فهم الشهداء حقاً، وإذا عرفنا أن الإمام زين العابدين عليه السلام تمنى وجود هؤلاء المؤمنين الذين تتوفر فيهم هذه الشروط للقيام، كما بين ذلك لعباد البصري، اتضح لنا أن الشروط الواجب توفرها في العدة المنتظرة هي عين الصفات المذكورة في رواية الإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام وهي صفات نفسية تمثل منهجا قرآنيا لتربية الإنسان وتزكيته ليكون مؤهلا لرفع راية الإصلاح، وذلك لأنه قدر على نفسه فكان على غيرها اقدر.

قال تعالى في محكم كتابه ومنيف خطابه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

كما قلنا إن هذه الآية الشريفة تمثل المنهج المطلوب السير عليه كما ثبت بالروايات المتقدمة، كما تمثل الصفات الواجب توفرها في المؤمن المنتظر لإمامه (عج) لنصرته في قيامه المبارك والمشاركة في الثورة المهدوية على الظلم والجور بكافة صوره.

وسنحاول وخوفا من الإطالة أن نمر مروراً مقتضباً على كل صفة من الصفات المذكورة بالآية بالشرح والبيان ويبقى الجهد الحقيقي لك أخي القارئ بالبحث

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

والتوسع في تحصيل المعاني التامة لهذه الصفات من المصادر المختصة بذلك، فما محاولتنا إلا جهد بسيط ورغبة حقيقية لإيضاح الطريق ليس إلا.

يقول العلامة المحقق مصطفوي في كتابه التحقيق في كلمات القرآن عن هذه الآية ما نصه: «وقد رتب الله ﷻ مراحل السالكين إلى الله تعالى في سبعة منازل:

١ **منزل التوبة**: وهو الرجوع إلى الله تعالى من العصيان والخلاف، ومن التعلق بالحياة الدنيا، ومن الغفلة والضلال، وهذا أول منزل للسالك إلى الله تعالى، ولابد له من العزم والتصميم والنية الخالصة القاطعة، حتى يخرج عن الخلاف والضلال بالكلية، وتتحقق له التوبة القاطعة من دون ترديد وتزلزل وريب.

٢ - **منزل العبودية المطلقة**: وهو التذلل والتعبد والإطاعة والإتباع في جميع ما يريد الله ويأمر وينهى، حتى يكون جميع أعماله وأقواله وأحواله وبرنامج أموره وظاهره وسره على طبق حكم الله تعالى وعلى ما تقتضي وظائف العبودية، بحيث لا يرى منه غير الطاعة، ولا يشاهد منه غير الخضوع والتذلل، ويلزم للسالك أن يجاهد في تثبيت آثار هذا المنزل والتثبت فيه حتى لا يبقى له أدنى خلاف في سره وعلنه، ويكون جميع جوارحه وأعضاء بدنه وقلبه في طاعة الله تعالى واتّباعه، قال ﷻ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فإن عبادة الله تعالى والسير في طاعته واتّباعه هي سعادة العبد، وفيها صلاحه وكماله، ويقابلها الضلال والانحراف عن الحق، واتّباع خطوات الشيطان.

٣ - **منزل الحمد**: ومرجعه إلى رضا العبد وطمأنينة نفسه في قبال قضائه وحكمه، تكوينياً وتشريعياً، وكون الرب تعالى ممدوحا عنده من أي جهة وصفة، من جهة صفاته الذاتية وصفاته الفعلية، ومن جهة أوامره ونواهيه وتكاليفه المتوجهة إلى العبيد عامة وخاصة.

فإن العبد إذا توجه إلى أن صلاحه وسعادته وخيره في اتّباع الأحكام الإلهية وفي عبودية الرب وإطاعته وسلوك مرضاته، يعرف أن ما يريد ويقضي ويحكم ويقدّر إنما هو خير وصلاح للعبد، وما يريد إلا إصلاح حاله وتكميل نفسه وإيصال الخير والرحمة إليه.

فهو محمود في كل فعاله وشؤونه، ليس في حكمه وهن، ولا في عمله ضعف

ولا في قوله خلاف، ولا في تدبيره اختلال، ولا يتصوّر له نقص ولا حاجة، وهو غني في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله.

فلا بد للعبد من تحقيق هذه الصفات الإلهية ومعرفتها واليقين بها، حتى يكون مطمئنا عليها، وحامدا له على كل حال، لا يبقى في نفسه أدنى درجة من اضطراب واعتراض وترديد.

فتحقّق هذه الصفة وتثبّتها في سر السالك إنما يكون بعد تثبّت العبودية، وما لم يتثبت في هذا المنزل لا يتوقع له الارتقاء إلى منزل أعلى.

٤ - **منزل السياحة**: وهو سير معنوي وحركة روحية في الأسماء والصفات والتجليات الإلهية، وتحصيل المعرفة بالحقائق والمعارف اللاهوتية بتهذيب النفس وتزكيتها وتسليمها ورفع الحجب بتأييد الله المتعال وحوله وقوته ولطفه وعنايته وتوفيقه.

وهذا المعنى إنما يتحقق بالاتّصاف بالصفات العليا الإلهية، والتمكن في حضرتها والتثبّت في ساحتها، والتخلق بحقائقها.

وحينئذ تتجلى له حقائق الأسماء والصفات، ويستعد لإدراكها، وهذا المنزل يعبر عنه أ بالسفر في الحق بالحق.

٥ - **منزل الركوع**: وفيه يتحقق الخضوع والخشوع التام للسالك في قبال عظمة اللاهوت وجلال الله وجماله الأبهى، وترتفع الأنانية، ويركع لله بظاهره وباطنه وفي جميع أعماله وأحواله.

٦ - **منزل السجود**: وفيه يتحقق مقام المحو والفناء الصرف، ولا يبقى من وجوده اثر، ولا يرى إلا الله، وفيه تتجلى حقيقة الإخلاص.

٧ - **منزل السفر إلى الخلق**: وهو المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[1]، وهذه الجمل بمنزلة جملة واحدة، وإشارة إلى منزل واحد، بقرينة العطف بالواو.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

وفي هذا المنزل بعد الفناء الصرف وتجلي الإخلاص، يستعد السالك لأن يكون واسطة بين الخلق والخالق بولاية عامة أو خاصة.

فهذه سبعة منازل للسالك إلى الله العزيز، منزلان منها في عالم الملك ويتعلقان بالبدن، وهما التوبة والعبادة، وثلاثة منازل منها تتعلق بالقلب وعالم الملكوت، وهي الحمد والسياحة والركوع، وواحد منها يتعلق بعالم الجبروت والعقل وحكومة اللاهوت وهو السجود، والمنزل الأخير مقام جامع، وفيه تتجلى حقيقة الإنسان وكماله.

وهذا هو المراد من الإنسان الكامل، كما أن المنزل السادس يعبر عنه بمقام الوصول واللقاء ورفع الحجب[1].

ونقول إن التوبة: هي إعادة صياغة الذات حسب المنظور الإلهي، فهي تشكل بمدلولها القرآني العودة إلى الله «توبوا إلى الله متابا» لأن كل معصية هي انفصال عن إرادة الرب، والتوبة والاستغفار بمثابة إعادة الصلة بين إرادة العبد ومراد الرب، وتعتمد التوبة الكاملة على ست ركائز تتضح وفق الرواية الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال كميل بن زياد سألت أمير المؤمنين عليه السلام . . . قلت يا أمير المؤمنين العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه فما حد الاستغفار قال يا ابن زياد التوبة، قلت بس، قال لا قلت فكيف قال إن العبد إذا أصاب ذنباً يقول أستغفر الله بالتحريك قلت وما التحريك قال الشفتان واللسان يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة قلت وما الحقيقة قال تصديق في القلب وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه، قال كميل: فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين، قال: لا، قال كميل: فكيف ذاك قال: لأنك لم تبلغ إلى الأصل بعد قال كميل فأصل الاستغفار ما هو قال الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه وهي أول درجة العابدين وترك الذنب والاستغفار اسم واقع لمعان ستة أولها الندم على ما مضى والثاني العزم على ترك العود أبداً والثالث أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم والرابع أن تؤدي حق الله في كل فرض والخامس أن تذيب اللحم الذي نبت على السحت والحرام

(١) التحقيق في كلمات القرآن للعلامة مصطفوي ج٥/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨.

حتى يرجع الجلد إلى عظمه ثم تنشئ فيما بينهما لحما جديدا والسادس أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذقته لذات المعاصي[١].

أما العبادة: هي الاستمداد الوجودي من الله، لأن بعد الصياغة تحتاج هذه الذات إلى الاستمداد من مبدعها ومكونها، فهي قائمة على ركنين هما (التبصر والتطهر) فالذات العابدة في حركتها الباطنية أثناء ممارسة العبادة تواجه الذات في قبال الرب، فتستمد في تبصرها بحقائقها، من غناه لفقرها ومن قدرته لعجزها ومن قوته لضعفها ومن بقائه لفنائها، فيحصل العابد بهذا التشكل الباطني على ثمرة التطهر والتي تقوم على رصد ما منه إليه، فتتحول بذلك العبادة بمدلولها النفسي إلى وسيلة التفاعل بين صفات المطلق بما يحمل من جمال وجلال وصفات المحدود بما يحمله من فناء وزوال، ومن هنا قال الرب تعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢] ولذلك فإن العباد ليس للشيطان عليهم من سبيل.

وفي وصية الإمام الصادق عليه السلام لعنوان البصري.. إلى أن يقول عنوان: قلت يا أبا عبد الله: ما حقيقة العبودية قال: ثلاثة أشياء أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به ولا يدبر العبد لنفسه تدبيرا وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله تعالى ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن ينفق فيه، وإذا فوض العبد تدبير نفسه على مدبره هان عليه مصائب الدنيا وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا وإبليس والخلق ولا يطلب الدنيا تكاثرا وتفاخراً ولا يطلب ما عند الناس عزاً وعلواً ولا يدع أمامه باطلاً فهذا أول درجة التقى قال الله تبارك وتعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣] [٤].

(١) تحف العقول/ ١٩٦ - ١٩٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٤) بحار الأنوار ج١/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

يقول الشيخ الآصفي معلقا على هذه الرواية الشريفة: ننطلق إلى إيضاح حقيقة العبودية من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[1]، وهذه الآية تحدد العبودية ضمن حدين:

الحد الأول للعبودية

أن العبد مملوك والحد الثاني أنه لا يقدر على شيء، وبطبيعة الحال المملوك لا يملك، فالعبد إذن: مسلوب الملك، ومسلوب القدرة (مملوك لا يقدر على شيء)، غير أن سلب القدرة عن العبيد (الرقيق) في دائرة التشريع وليس في دائرة التكوين.

أما في علاقة العبد بالله تعالى فهو مسلوب القدرة تكويناً وتشريعاً معاً.

الحد الأول في هذا التعريف أنه مملوك، والمملوك لا يمكن أن يملك، وهو وما بيده لمولاه. ولكن دلالات (المملوك) أكثر من أنه لا يملك من مال الدنيا شيئا وكل ما بيده لمولاه، فإنه هو مملوك، وكل ما يكون واجداً له (بالتكوين) في نفسه من عقل وذكاء وذاكرة وحياة وحركة وفهم وشعور ونطق وبصر وسمع وذوق ودرك . . . كل ذلك لله تعالى، هذا هو معنى المملوك، فلا يملك نفسه، وإذا كان لا يملك نفسه، فهو بالأحرى لا يملك ما بيده من المال والمتاع . . . وهذا هو الحد الأول للعبودية.

الحد الثاني للعبودية

(لا يقدر على شيء) وإذا كان العبيد - في نظام الرق - لا يقدرون على شيء

(١) سورة النحل، الآية: ٧٥.

قانونا وتشريعا، فإن العباد بازاء الله تعالى لا يقدرون على شيء، بالتكوين والتشريع معا.

فلا يقدر العبد على شيء إلا بإقدار الله تعالى له، وهذا الإقدار يصل من ناحية الله على الناس، فإذا انقطع لحظة واحدة توقف الإنسان عن القدرة في نفس اللحظة، إن إفاضة الرحمة والقدرة والفهم والحياة والحركة... متصلة من جانب الله، فإذا انقطعت هذه الإفاضة عن الإنسان انقطع الإنسان عن كل قدرة في نفس اللحظة، فلا يفهم، ولا يدرك، ولا يتذكر، ولا يعرف، ولا ينطق، ولا يتحرك، ولا يحيى، ولا يتنفس، ولا يبصر، ولا يسمع، ولا يعقل، ولا يقوى على شيء، فإن الله تعالى هو مبدأ كل حول وقوة في هذا الكون، ولا حول ولا قوة للإنسان، من دون أن يمكنه الله تعالى من الحول والقوة، وهذا التمكين يتصل من جانب الله، كما يتصل التيار الكهربائي في الأسلاك، فإذا توقف التيار لحظة انقطع النور والحركة في نفس اللحظة، وإذا انتفى الملك والقدرة عن الإنسان تنتفي عنه (الأنانية) بالضرورة، فإن (الأنا) و(الأنانية) هي محصول الملك والقدرة، وتنتفي بانتفاء الملك والقدرة، وإذا تحرر الإنسان في سير العبودية لله تعالى من الأنا والأنانية تحرر من أعراض الأنا، وأعراض الأنا كثيرة منها (العجب) و(الغرور) و(الحسد) و(طول الأمل).

وبين الإنسان وبين الله تعالى عقبتان لابد أن يجتازهما الإنسان في حركته إلى الله، وهما (الأنا) و(الهوى) وللأنا أعراض كما قلنا، وللهوى أعراض مثل (حب المال) و(التعلق بالدنيا) و(الشهوات)، والعبودية تحرر الإنسان من (الأنا) و(الهوى)[1].

فإذا تحقق في الإنسان هذان القيدان أصبح موحدا، ويتحقق قول الصادق عليه السلام في شرحه لقوله تعالى العابدون، إذ يقول: «الْعَابِدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً»[2].

(١) تأملات في المعرفة والسلوك/ الشيخ الآصفي/ ٢٩ ٣١.
(٢) الكافي ج٥/ ١٥.

الحامدون

الحمد لغة هو الثناء على الجميل اختيارياً من دون نعمة تقابله أو علة توجبه، وبذا يعتبر أعلى صور الثناء وأعم من الشكر الذي يقع بإزاء النعمة والمدح الذي يقع بإزاء العلة، كقولنا مدحت فلانا لعلمه أو تقواه، وشكرت فلاناً لقضاء حاجتي والحمد كفريضة إسلامية حث عليها القرآن معتبراً إياها من خصائص الشخصية الإسلامية لما يحمله من بعد عميق في بناء الذات وإكسابها السلامة النفسية المنقية والمعقمة لها من كل صور الإحباط والاضطراب والوهن.

فالحامد هو من يعتقد بأن مصدر النعم والعطاء هو الله، أو هو الواقف على صفات الجمال الإلهي مما أكسبه سكوناً وسكينة وأورثه اطمئنانا في مواجهة الحياة فلا يخشى فوتاً ولا يهاب قوة ولا يتردد في عمل.

والحمد قضية أخلاقية تصير الإنسان إنسانا بالفعل، وتخرجه من حدود البهيمية، لأن البهيمة لا تعرف الحمد ولا الشكر بل إنها ليست معنية بهذا الموضوع (أي أنها ليست كائنا أخلاقياً)، ولذا يقول إمامنا السجاد في صحيفته المباركة في دعاء التحميد لله عزوجل: «والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه، وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حدود البهيمية، فكانوا كما وصف في كتابه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

وللحمد دور عظيم في منظومة التربية الإسلامية بل يكاد يكون هو عصب

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

الشريعة والقطب الذي تدور عليه جميع الأحكام والوصايا، فإن جل ما يريده الله تعالى هو أن يكون الإنسان حامداً ولا يكون كذلك حتى يصير إنساناً بالفعل ولا يكون إنساناً حتى يزكي نفسه وهذا يمر عبر التوبة والعبادة، ألا ترى أن بعد ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾[١] في الآية التي نحن بصدد شرحها ينتقل الخطاب إلى ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[٢] لأن العبد إن اطمئن بأن كل ما يأتيه من ربه هو خير محض واشعر هذا قلبه وتمكن منه، ساح في ملكوت الله وآلائه طلبا لرضاه.

ألا تتدبر أيها الأخ العزيز لما اختار الله تبارك وتعالى اسم أحمد لخير خلقه أجمعين، وأحمد هو صيغة تفضيل والمعنى أنه أكثر الخلق حمداً، حتى أنه يروى أن ورده ﷺ كان سورة الحمد فتدبر.

والموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة، فإن الله يريد من عبده أن يبدأ عبادته والمناجاة معه بالحمد ويختمها بالحمد وما بينهما يكون حامداً، وسأشير للموضوع باختصار شديد على أمل أن أوفق في يوم ما أن ابحث الموضوع بحثاً مستقلاً.

يبتدئ العبد مناجاته مع ربه في الصلاة التي هي أولى محطات اللقاء معه تبارك وتعالى بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، ويختتم مسيرته الكادحة إلى ربه بقوله: «وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»، وهو ما بينهما يعمل على التخلق بأخلاق رسوله محمد ﷺ والمشتق اسمه من الحمد أيضاً، فتكون رحلته من بدايتها إلى منتهاها في دائرة الحمد، فأي موضوعة هو إذن، وما أعظم أهميته لنا وتكمن هذه الأهمية بأنه يصير الإنسان إنسانا بالفعل بعد أن كان بالقوة، كما عبر عن ذلك الإمام السجاد عليه السلام في دعائه الذي مر آنفاً.

وهو نتاج العلم المعلول بالعبادة، فإن علم الإنسان أن كل ما يأتيه من الله تبارك وتعالى هو خير محض ولمصلحته، وأشعر بذلك قلبه وانطوى عليه ضميره، كان حامدا لله في السراء والضراء، في العافية والسقم، في الغنى والفقر، وفي كل أموره يكون مطمئنا لقضاء الله وقدره.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٢.

السائحون: السِّياحةُ معجميا: هي الذهاب في الأَرض للعبادة والتَّرَهُّب؛ وساح في الأَرض يَسِيح سِياحةً وسُيُوحاً وسَيْحاً وسَيَحاناً أي ذهب؛ وفي الحديث: لا سِياحة في الإِسلام؛ أراد بالسِّياحة مفارقةَ الأَمصار والذَّهابَ في الأَمصار وسُكْنى البَراري وتَرْكَ شهود الجمعة والجماعات؛ . . . ومنه المَسيحُ بن مريم، عليهما السلام؛ في بعض الأَقاويل: كان يذهب في الأَرض فأَينما الأَرض، وأَصله من سَيْح الماء الجاري؛ قال ابن الأَثير: أَراد مفارقةَ أَدركه الليلُ صَفَّ قدميه وصلى حتى الصباح. وسِياحةُ هذه الأُمة الصيامُ ولُزُومُ المساجد.

وقوله تعالى: الحامدون السائحون؛ وقال تعالى: ﴿سَيِّحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1]؛ السائحون والسائحات: الصائمون؛ قال الزجاج: السائحون في قول أَهل التفسير واللغة جميعاً الصائمون، قال: ومذهب الحسن أَنهم الذين يصومون الفرض؛ وقيل: إِنهم الذين يُدِيمونَ الصيامَ، وهو مما في الكتب الأُوَل؛ قيل: إِنما قيل للصائم سائح لأَن الذي يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إِنما يَطْعَمُ إِذا وجد الزاد. والصائم لا يَطْعَمُ أَيضاً فلشبهه به سمي سائحاً؛ وسئل ابن عباس وابن مسعود عن السائحين، فقال: هم الصائمون[2].

وروائياً: عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ قَالَ قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ نَفْسِي تُحَدِّثُنِي بِالسِّيَاحَةِ وَأَنْ أَلْحَقَ بِالْجِبَالِ قَالَ يَا عُثْمَانُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْغَزْوُ وَالْجِهَادُ[3]. وفي رواية أخرى هو الصيام كما في الرواية التالية: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ لِلنَّاسِ وَوَصَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. . إلى أن قال: إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي فِي الصَّوْمِ وَرَهْبَانِيَّتَهَا الْجِهَادُ[4].

وعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَلَبَنِي حَدِيثُ النَّفْسِ وَلَمْ أُحْدِثْ شَيْئاً حَتَّى اسْتَأْمَرْتُكَ قَالَ بِمَ حَدَّثَتْكَ

(١) سورة التحريم، الآية: ٥.
(٢) لسان العرب ج٢/ ٤٩٢.
(٣) تهذيب الأحكام ج٦/ ١٢٢.
(٤) مستدرك الوسائل ج١٦/ ٥٥.

نَفْسُكَ يَا عُثْمَانُ قَالَ هَمَمْتُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ قَالَ لَا تَسِحْ فِيهَا فَإِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي فِي الْمَسَاجِدِ[1].

إذن هل هناك من تناقض أم أن هناك قاسما مشتركا يربط بين كل هذه المعاني للسياحة؟.

أقول: نعم هناك قاسم مشترك بين هذه المعاني، وقبلها نقول قد تستغرب من قراءة الروايتين بشأن قول رسول الله ﷺ لعثمان بن مظعون، فمرة يقول له السياحة هي الصوم ومرة بأنها لزوم المساجد!.

ليس هناك غرابة في الموضوع فقد يكون الموقف قد تكرر لذا تكرر الجواب ولكن بما ليس فيه تناقض، فإن الرسول أراد العبادة، والصوم عبادة والمساجد رمز جميع العبادات.

والقاسم المشترك الذي نستخلصه من المعنيين اللغوي والروائي هو الانشغال عن الدنيا والزهد فيها وعدم العمل لها وهجرانها، أي أن المعنى لم يتغير في السياحة التي كانت في شريعة عيسى عليه السلام عن السياحة في الإسلام، بيد أن الصورة الظاهرية تغيرت، فحينما كان السائح في ذلك الزمن يهيم على وجهه لطلب العبادة والتفكر والمناجاة ويتشاغل عن الدنيا وأهلها ويهجر في سبيل ذلك الأوطان.

كان يسيح ظاهرا وباطنا، أما السياحة في الإسلام قد تغيرت صورتها فبدل أن يسيح بقلبه وبدنه، جاء الإسلام ليقول إن مرحلة السياحة الهجران للناس والأوطان قد انتهت، وبدأت سياحة الهجران النفسي والانعزال القلبي عن أهل الدنيا، ومن أوضح صور هذا الانعزال أي السياحة الإسلامية هو في شعيرة الصوم ولزوم المساجد للتعبد والاعتكاف، أو لزوم المساجد بتأدية الصلوات فيها.

إذن السائحون هم المنشغلون عن الدنيا وأهلها، المنشدون للعبادة والمناجاة وترك الشهوات، المواظبون على الطاعات، فهم الصائمون عن كل معصية أو شيء قد يحول بينهم وبين ربهم.

يقول الشيخ المجلسي: «وأقول إنما فسر السياحة بالصيام لقول النبي ﷺ

(١) مستدرك الوسائل ج٨/ ١١٣.

سياحة أمتي الصيام شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت وقيل السائحون للجهاد أو لطلب العلم».

لهذا المعنى يقول العلامة مصطفوي إن السياحة هي: «سير معنوي وحركة روحية في الأسماء والصفات والتجليات الإلهية، وتحصيل المعرفة بالحقائق والمعارف اللاهوتية بتهذيب النفس وتزكيتها وتسليمها ورفع الحجب بتأييد الله المتعال وحوله وقوته ولطفه وعنايته وتوفيقه»، لأنه إذا انقطع الإنسان عن المعصية وشهوات النفس والهوى كما يفعل الصائم، ستظهر له الحقائق وتنكشف له الأسرار فيكون كمن يعيش قلبه وروحه في عالم وبدنه في عالم آخر، لذا هو سائح على المعنى الحقيقي، فبدنه في الناس بيد أن قلبه وروحه في الملأ الأعلى ينهل من المعارف الربانية ويتحقق بالصفات الأسمائية.

الراكعون

سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا مَعْنَى الرُّكُوعِ فَقَالَ مَعْنَاهُ آمَنْتُ بِكَ وَلَوْ ضَرَبْتَ عُنُقِي[١].

إن من الأمور التي يمكن أن تكشف عن الحال المعين في الصلاة هو الذكر الخاص بذلك الحال، فإننا حينما أمرنا أن نقول في حالة الركوع «سبحان ربي العظيم وبحمده» ما هو إلا تنزيه لذلك الإله العظيم الذي ملأت عظمته كل شيء عن عبادتنا هذه من أن تفي حقه أو أن توائم عظمته، لذلك لا يبقى أمام العبد غير التسليم والخضوع والخشوع التام، وأمام هذه العظمة لذا يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام في الركوع: «لَا يَرْكَعُ عَبْدٌ لِلَّهِ رُكُوعاً عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا زَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنُورِ بَهَائِهِ وَأَظَلَّهُ فِي ظِلِّ كِبْرِيَائِهِ وَكَسَاهُ كِسْوَةَ أَصْفِيَائِهِ وَالرُّكُوعُ أَوَّلٌ وَالسُّجُودُ ثَانٍ فَمَنْ أَتَى بِالْأَوَّلِ صَلَحَ لِلثَّانِي وَفِي الرُّكُوعِ أَدَبٌ وَفِي السُّجُودِ قُرْبٌ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الْأَدَبَ لَا يَصْلُحُ لِلْقُرْبِ فَارْكَعْ رُكُوعَ خَاشِعٍ لِلَّهِ بِقَلْبِهِ مُتَذَلِّلٍ وَجِلٍ تَحْتَ سُلْطَانِهِ خَافِضٍ لَهُ بِجَوَارِحِهِ خَفْضَ خَائِفٍ حَزِنٍ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنْ فَائِدَةِ الرَّاكِعِينَ...»[٢].

الساجدون

السجود عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب: ترك النفس وغمض العين عن كل ما سوى الحق تعالى... وفي وضع الجبهة على التراب إشارةٌ إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة.

(١) بحار الأنوار ج٦٦/ ٣٥٦.
(٢) مستدرك الوسائل ج٤/ ٤٣٦.

وتتمثل آدابه القلبية في معرفة العبد حقيقة وأصل وجوده، ووضع «أم الدماغ» - وهو مركز سلطان النفس وعرش الروح - على أدنى عتبة من مقام القدس ورؤية التراب في عتبة مالك الملوك.

إذن فسر الوضع السجودي هو تطهير العين من رؤية النفس، وأدب وضع الجبهة على التراب هو إسقاط العبد لأعلى مقامات نفسه من أن تراها عينه.

وعدها أوضع من التراب مرتبة. . .وفي مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: «مَا خَسِرَ وَاللَّهِ مَنْ أَتَى بِحَقِيقَةِ السُّجُودِ وَلَوْ كَانَ فِي الْعُمُرِ مَرَّةً وَاحِدَةً وَمَا أَفْلَحَ مَنْ خَلَا بِرَبِّهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْحَالِ شَبِيهاً بِمُخَادِعٍ لِنَفْسِهِ غَافِلٍ لَاهٍ عَمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِلسَّاجِدِينَ مِنْ أُنْسِ الْعَاجِلِ وَرَاحَةِ الْآجِلِ وَلَا بَعُدَ أَبَداً مِنَ اللَّهِ مَنْ أَحْسَنَ تَقَرُّبَهُ فِي السُّجُودِ وَلَا قَرُبَ إِلَيْهِ أَبَداً مَنْ أَسَاءَ أَدَبَهُ وَضَيَّعَ حُرْمَتَهُ بِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِسِوَاهُ فِي حَالِ سُجُودِهِ فَاسْجُدْ سُجُودَ مُتَوَاضِعٍ ذَلِيلٍ عَلِمَ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ يَطَؤُهُ الْخَلْقُ وَأَنَّهُ رُكِّبَ مِنْ نُطْفَةٍ يَسْتَقْذِرُهَا كُلُّ أَحَدٍ وَكُوِّنَ وَلَمْ يَكُنْ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَعْنَى السُّجُودِ سَبَبَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالْقَلْبِ وَالسِّرِّ وَالرُّوحِ فَمَنْ قَرُبَ مِنْهُ بَعُدَ عَنْ غَيْرِهِ أَلَا تَرَى فِي الظَّاهِرِ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي حَالُ السُّجُودِ إِلَّا بِالتَّوَارِي عَنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَالِاحْتِجَابِ عَنْ كُلِّ مَا تَرَاهُ الْعُيُونُ كَذَلِكَ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَ الْبَاطِنِ فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقاً فِي صَلَاتِهِ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ بَعِيدٌ عَنْ حَقِيقَةِ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْهُ فِي صَلَاتِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا أَطَّلِعُ عَلَى قَلْبِ عَبْدٍ فَأَعْلَمَ مِنْهُ حُبَّ الْإِخْلَاصِ لِطَاعَتِي لِوَجْهِي وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي إِلَّا تَوَلَّيْتُ تَقْوِيمَهُ وَسِيَاسَتَهُ وَمَنِ اشْتَغَلَ فِي صَلَاتِهِ بِغَيْرِي فَهُوَ مِنَ المستهزئين بِنَفْسِهِ وَمَكْتُوبٌ اسْمُهُ فِي دِيوَانِ الْخَاسِرِينَ[1].

إذن الساجد لا يرى غير الله، لأنه وصل إلى نقطة القرب وحبل الوصل، وعاد كما كان في الأصل حفنة من التراب فيها نفخة من الرب، فليس هنالك غير التراب ورب الأرباب، وهذا المعنى واضح جلي في العبارات التي ساقها أمير المؤمنين عليه السلام لمعنى السجود «سَأَلَ رَجُلٌ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ع مَا مَعْنَى السَّجْدَةِ الْأُولَى

(١) الآداب المعنوية للصلاة السيد الخميني/ ٤٩٣.

فَقَالَ تَأْوِيلُهَا اللَّهُمَّ مِنْهَا خَلَقْتَنَا يَعْنِي مِنَ الْأَرْضِ وَتَأْوِيلُ رَفْعِ رَأْسِكَ وَمِنْهَا أَخْرَجْتَنَا وَالسَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ وَإِلَيْهَا تُعِيدُنَا وَرَفْعِ رَأْسِكَ وَمِنْهَا تُخْرِجُنَا تَارَةً أُخْرَى»[١].

ألا ترى يا أخي كيف أن معنى السجود مرتبط بالأرض، ولعل هناك إشارة قوية للفت نظر الإنسان لأصل وجوده وهو التراب لكي يعرف قدر نفسه، ومقدار الشرف الذي هو فيه حيث سمح له ملك الملوك وجبار السموات والأرض بعبادته ورخص له بمناجاته.

وهل لنا أن نتساءل لماذا يأخذ الطفل في بطن أمه وضعية السجود؟ وهل السجود يمثل رمزاً للولادة؟ فكما أن الطفل يخرج من حال السجود إلى كون آخر وفضاء أرحب، كذلك الساجد يخرج من كل سجدة بواقع جديد وعقل جديد وحياة جديدة، لأن في كل سجود ولادة.

إذن الساجد هو الذي لا يرى لنفسه أثرا غير التراب والضعة أمام ربه وخالقه، لذا تراه لا يعمل إلا لرضاه والتقرب منه جل وعلا.

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

بعد أن وصل العبد إلى أن لا يرى لنفسه أثراً أو وجوداً أمام وجود الحق المتعال، أصبح مؤهلاً لأن يأمر الناس بعد أن صار مؤتمراً، وأن ينهى الناس بعد صيرورته منتهيا.

وبهذا أصبح مصداقاً لقول أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ.

وعنه عليه السلام: «وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَائْتَمِرُوا بِهِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ وَإِنَّمَا أُمِرْنَا بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي»[٢].

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة/ ٤٩٩ أ ٥٠٢.

(٢) آداب السالكين في معرفة أسرار عبادات العارفين للفيض الكاشاني/ ٣٧٤

وعنه عليه السلام : «إن سمت همتك لإصلاح الناس فابدأ بنفسك فإن تعاطيك صلاح غيرك وأنت فاسد أكبر العيب» وأيضاً «من لم يصلح نفسه لم يصلح غيره»[١].

فهؤلاء الناس بعد أن أدبوا أنفسهم بأدب الشريعة وتربوا على أيدي العترة الهادية من خلال المنهج الذي اختطوه لشيعتهم، أصبحوا مؤهلين لحمل هذه الفريضة المهمة والقيام بها على أكمل وجه.

الحافظون لحدود الله

هم الذين لا يحيدون عن الشريعة مقدار أنملة، ولا يستدعيهم أمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك، بحيث يشددون على الناس وينفرونهم من الدين أو يداهنونهم حتى يجرؤوا عليه.

ملاحظة: إننا حينما تحدثنا عن هذه الصفات بهذه الكيفية إنما تحدثنا بلسان العرفاء من أهل الطريقة والحقيقة، فإن في هذه الصفات مراتب ودرجات، أما الرواية الشريفة فقد تحدثت عن الحد الأدنى للتحلي بهذه الصفات، فلا غرابة في بساطة المعاني التي ذكرتها الرواية لشرح هذه المقامات.

يقول الإمام الصادق عليه السلام : «التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَبَشَّرَ النَّبِيُّ ص الْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ وَحِلْيَتُهُمْ بِالشَّهَادَةِ وَالْجَنَّةِ فَقَالَ التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ الْعابِدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً الْحَامِدُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كلِّ حَالٍ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ السَّائِحُونَ وَهُمُ الصَّائِمُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يُوَاظِبُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْحَافِظُونَ لَهَا وَالْمُحَافِظُونَ عَلَيْهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَفِي الْخُشُوعِ فِيهَا وَفِي أَوْقَاتِهَا الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْعَامِلُونَ بِهِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْتَهُونَ عَنْهُ».

(١) وسائل الشيعة ج١٦/ ١٥١.

هذه هي الصفات النفسية التي بينها أئمة أهل البيت للعدة المنتظرة، وتمنوا على شيعتهم التحلي بها لتفعيل السنة الإلهية بالتغيير والسير نحو الله عزوجل . كما في الرواية التالية:

«عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ع أَقْبَلْتَ عَلَى الْحَجِّ وَتَرَكْتَ الْجِهَادَ فَوَجَدْتَ الْحَجَّ أَلْيَنَ عَلَيْكَ وَاللَّهُ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ الْآيَةَ قَالَ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ع اقْرَأْ مَا بَعْدَهَا قَالَ فَقَرَأَ التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ إِلَى قَوْلِهِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ع إِذَا ظَهَرَ هَؤُلَاءِ لَمْ نُؤْثِرْ عَلَى الْجِهَادِ شَيْئاً»[1].

وهذه الشروط هي الواجب توفرها عندهم، وعليه لابد لكل من أراد أن يدخل إلى دائرتهم ويكون مؤهلاً لنصرة الإمام روحي فداه، من أن يتحلى بهذه الصفات ويعرض نفسه عليها.

إن هذه الصفات التي ذكرت في كتاب الله هي صفات قادة جيش الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف وهذا هو المسار الذي يجب أن يتخذه من يؤمن بالإمام ويستعد للارتباط بمشروعه، وقد تنوعت التوصيفات من خلال روايات الأئمة الأطهار عليهم السلام فحملت لنا صورة دقيقة عن هذه الشخصيات، عن عقائدهم وتطلعاتهم وسلوكياتهم وعباداتهم وأعمالهم حتى يستطيع القارئ لهذه الأخبار أن يستخرج منها ورقة عمل جاهزة يمكن أن تعتمد كأساس لفهم ما هو مطلوب من المنتظر ليعد نفسه للدخول في مصافهم إن شاء الله تعالى.

صفات أخرى

بينا أن الصفات التي ذكرناها هي صفات نفسية، بيد أن هناك الكثير من الصفات التي عملت على تأطير شخصية المنتظر الحقيقي، وتوزعت على كل قواه

(١) غرر الحكم/ ٣٧ ح٤٧٦٥ وح ٤٧٧٢.

أو سلوكياته الحاكية عما يضمره من معتقدات، مثل الصفات العقائدية والصفات العبادية والصفات الولائية والعسكرية وغيرها.

فالصفات العقائدية مثلاً تتمثل بأنهم

(أ) أحكموا علم التوحيد[١]

إن أهم صفة يحملها هؤلاء المغيرون هي صفة الموحدين فهم الموحدون على مستوى العلم والموحدون على مستوى السلوك، ولذا ورد في صفاتهم أنهم أحكموا علم توحيده، وهذه أهم صفة لديهم لأنها الأساس في بناء شخصياتهم العقائدية والأخلاقية وعلى جميع الصعد، أي أنهم جعلوا من التوحيد مساراً لنهجهم في الحياة على الصعيد الخارجي والداخلي، ففي الخارج لم يكونوا يرون غير الله في كل أعمالهم ولا يتوجهون إلى سواه، وعلى الصعيد الداخلي فقد توحد لديهم العقل والقلب، العقل في مبانيه الفكرية في المعرفة الإلهية الحقة، والقلب في نفي الأوهام عنه وفي رسوخ هذه المعرفة في ثناياه، ومنهما كان سلوكهم واحدا لا تناقض ولا تباين فيه أي أن سلوكهم كان مترجما لذلك الانسجام ما بين العقل وإدراكاته وبين القلب ويقينه ومشاعره واطمئنانه، فلا تشتت من جهل كان يحكمهم ولا هوى كان يميل بهم عن جادة الحق.

(ب) لا يشوبهم شك في ذات الله[٢]

للمقدمات التي ذكرناها وصلوا لهذا اليقين الثابت، ولعل هذا الوصف جاء ليوضح الحال الذي سيعيشه المنتظرون في وقت الغيبة نظرا للفتن التي ستمر عليهم

(١) تهذيب الأحكام ج٦/ ٣٤.
(٢) يراجع تحف العقول/ ٣٢٦.

والذروات التي تحدث (والمقصود منها تحقق بعض الأمور التي تشابه بعض العلامات بحيث يظن المستعجلون أنها هي)، فإن وراء كل ذروة من البلاء يأتي انفراج جزئي مما يسبب إرباكا لضعيفي اليقين بعدم تحقق الفرج الموعود مما يؤدي بهم إلى أن يكون الشك هاجسهم وبالتالي سيخرجهم لاحقاً من دائرة الإيمان والعياذ بالله، إضافة إلى أن سير الأحداث والمخاضات التي سيمر بها المجتمع قبل الظهور المقدس ستضرب بجذور الشك في قلوب أكثر الناس وذلك لأن الفتن والابتلاءات صممت ضمن هندسة محكمة ستعمل قوانينها وتفاصيلها على تصفية النفوس واستخراج مكنوناتها وقد أشارت الروايات للذروات التي تحدثنا عنها وكيف أنها ستعمل على إرباك البعض حينما سيسقط الأحداث التي ستقع على واقعه المعاش ويتوقع تحقق الفرج الموعود، بيد أن الأمر سيكون على عكس ذلك وتعود الأمور للانفراج والانبساط من جديد مما سيؤدي إلى سقوط جماعة بهذا الاختبار وهكذا بين كل انقباض وانبساط ستسقط مجموعة بسبب الجزع والاستعجال حتى يتحقق المثل في رواية أمير المؤمنين عليه السلام التي شبه فيها السقوط في الفتنة بطعام قد أكل بعضه السوس وهكذا (حتى يرجع أكثر القائلين به).

الصفات الأخلاقية

الشجاعة: وهذه من أبرز صفاتهم وملكاتهم النفسية حتى أن قلوبهم وصفت بأنها كزبر الحديد وأنها أشد من الجمر إقداماً وتحمساً للإمام والمبدأ الذي ينهضون به.

التواضع: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن صاحب هذا الأمر محفوظة له أصحابه لو ذهب الناس جميعاً أتى الله له بأصحابه. وهم الذين قال الله فيهم (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)»[1]، شاهدنا (أذلة على المؤمنين) فهم أشد الناس تواضعاً لله ولرسله ولإمامهم والمؤمنين.

(١) يراجع بحار الأنوار ج٥٢/ ٣٠٨.

الزهد: أن شيعتنا من لا يهر هرير الكلب ولا يطمع طمع الغراب، يبين هذا النص زهدهم بما في أيدي الناس وأمن الناس منهم.

الحلم: وصفوا أيضاً بأنهم حلماء بالنهار، والحلم يتفرع منه الكثير من الملكات الأخلاقية كالصبر والتحمل والإغضاء عن المسيء والعفو عنه ويدل بالجملة على كبر نفوسهم وعظمة أخلاقهم.

الصفات العبادية

هم رهبان في الليل من الحب والعشق الإلهي الذي يهيمن على قلوبهم (رجال لا ينامون الليل لهم دوي في صلاتهم كدوي النحل يبيتون قياماً على أطرافهم. . كالمصابيح كأن قلوبهم القناديل وهم من خشيته مشفقون يدعون بالشهادة)[1]. وهذه شهادة لهم من الإمام الصادق عليه السلام وما أعظمها من شهادة.

الصفات الولائية

لشدة معرفتهم بسيدهم يعتبرونه أصل ومنبع البركة على الأرض لذا فهم يتبركون بكل ما يلامس جسده الشريف كما في هذا الوصف الروائي: (يتمسحون بسرجه يطلبون البركة ويحفون به يقونه بأنفسهم في الحروب ويكفونه ما يريد. . . هم أطوع له من الأمة لسيدها)[2]. قد بلغوا من الطاعة درجة أصبحوا فيها أطوع له من الأمة لسيدها كما في الرواية لذا فهم لهذا كله يحفون به، ويقونه بأنفسهم في الحروب، ويفدونه بكل غال ونفيس.

(١) الغيبة للنعماني/ ٣١٦.
(٢) بحار الأنوار ج٥٢/ ٣٠٨.

الصفات الحربية أو القتالية

قلوبهم كزبر الحديد (من الشجاعة والثبات على الحق والإقدام عليه) لو حملوا على الجبال لأزالوها لا يقصدون براياتهم بلدة إلا خربوها كأن على خيولهم العقبان ليوث بالنهار يتمنون أن يقتلوا في سبيل الله وإذا ساروا سار الرعب إمامهم شهرا شعارهم يالثارات الحسين[1].

نكتفي بهذا القدر من تعداد المواصفات التي وردت على لسان أئمة أهل البيت عليهم السلام بشأن أصحاب القائم (عج).

ملاحظة مهمة

إن ما تحدثنا عنه من صفات وما جئنا به من شرح لها من أقوال العلماء والعرفاء، إنما هو غوص في معانيها على طريقة أهل الطريقة والحقيقة، أي ليس المعنى الظاهري لها. بيد أن الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام تتحدث عن ظاهر هذه الصفات، والمعنى أن لهذه الصفات مراتب كثيرة والإمام عليه السلام تحدث عن أدناها أو ما يسمى بالبناء التحتي لها، وإلا فإن لها مراتب عديدة وكمالات شاسعة.

ما نريد أن نقوله هو أن الإنسان المنتظر له أن ينطلق باتجاه تحقيق هذه الصفات في نفسه من النقطة التي بدأ الإمام ببيانها له في شرحه لأحوال أصحاب الصفات التسع إلى أعلى المراتب التي تحدث عنها علماء السير والسلوك، ولأن في الإعادة إفادة نأتي بالشرح الروائي لهذه الصفات كما بينها الإمام الصادق عليه السلام: «التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ

(١) بحار الأنوار ج٥٢/٣٠٨.

الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ فَبَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمْ وَحِلْيَتُهُمْ بِالشَّهَادَةِ وَالْجَنَّةِ فَقَالَ: التَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ الْعَابِدُونَ الَّذِينَ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً الْحَامِدُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ السَّائِحُونَ وَهُمُ الصَّائِمُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الَّذِينَ يُوَاظِبُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْحَافِظُونَ لَهَا وَالْمُحَافِظُونَ عَلَيْهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَفِي الْخُشُوعِ فِيهَا وَفِي أَوْقَاتِهَا الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْعَامِلُونَ بِهِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْتَهُونَ عَنْهُ».

نقاش مع الشيخ الكوراني

حقيقة لقد عجبت من قول الشيخ الكوراني (حفظه الله) ومن الطريقة التي استدل بها في طريق نقده لمقولة أن الإمام (روحي فداه) ينتظر وجود أصحابه.

إذ عرضت له (دام ظله) شبهة وقع فيها فيما كان يريد (كما يزعم) أن يحذر الناس من شبهة قد وقعوا فيها أو أن هناك من يريد أن يروج لها (كما يقول)، وهي أن من أسباب تأخر الظهور الشريف للإمام عدم وجود أصحابه.

رد شيخنا الكوراني هذا الأمر من دون أن يتأمل هذا الكم من الروايات التي سقنا بعضها والصادرة عن أهل الذكر عليهم السلام . . بل إن ما يزيد الأمر حيرة، استدلاله بروايتين أحداهما ليس لها صلة بالموضوع، لا من قريب ولا من بعيد!. والأخرى تدل على ما ذهبنا إليه، ولا أعلم لماذا جاء بها!؟ ويبدو أنه لم يجد رواية واحدة تدعم كلامه، لذلك أورد رواية الشيخ المفيد وحاول بشكل غريب إخراجها عن سياقها وما تدل عليه!!

وهذا يكشف عن عدم فهمه للمراد (مع الأسف)، أو ناتج عن عدم إعطاء الأمر التأمل الذي يستحقه.

لقد نفى الكوراني القضية (أي تأخر ظهور الإمام بسبب عدم وجود أصحابه) بحجة أن أمر الظهور ليس بيد الإمام ولا هو مخول به، بل هو من أمر الله.

والغريب أن هذا من البديهيات، فمن يجرؤ على القول إن الإمام يتصرف بنحو مستقل عن الله تبارك وتعالى، وإن الأمر عائد إليه من دون الله، أعتقد أنك لن تجد مسلما يقول بهذا، فكيف فهم الشيخ الكوراني هذا!!.

يقول الشيخ الكوراني في كتابه المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي عليه السلام في الفصل الثاني عشر، تحت عنوان نقد مقولة إن الإمام (عج) ينتظر وجود أصحابه.

«... وأنه تعالى قدر له أصحابا خاصين يوافونه من أقاصي الأرض بمعجزة في ليلة واحدة، هم وزراؤه وحواريوه، وهذا لا يعني أن ظهوره عليه السلام متوقف عليهم وأنه عليه السلام ينتظر أن يولدوا أو يوجدوا، وأنهم لو كانوا قبل قرون لظهر من يوم وجودهم، بل هم أصحاب خاصون يكونون في عصرهم، ولظهوره عليه السلام وقت لا يقربه عجلة المستعجلين!.

ولعل أصل شبهة أن الإمام عليه السلام ينتظر أصحابه، جاء من بعض الأحاديث المتشابهة كالذي رواه النعماني/ ٢٠٣، عن أبي عبد الله عليه السلام : أنه دخل عليه بعض أصحابه فقال له جعلت فداك إني والله أحبك وأحب من يحبك يا سيدي ما أكثر شيعتكم فقال له اذكرهم فقال كثير فقال تحصيهم فقال هم أكثر من ذلك فقال أبو عبد الله عليه السلام أما لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون ولكن شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه ولا شحناؤه بدنه ولا يمدح بنا معلنا ولا يخاصم بنا قاليا ولا يجالس لنا عائباً ولا يحدث لنا ثالباً ولا يحب لنا مبغضا ولا يبغض لنا محبا فقلت فكيف أصنع بهذه الشيعة المختلفة الذين يقولون إنهم يتشيعون فقال فيهم التمييز وفيهم التمحيص وفيهم التبديل يأتي عليهم سنون تفنيهم وسيف يقتلهم واختلاف يبددهم إنما شيعتنا من لا يهر هرير الكلب ولا يطمع طمع الغراب ولا يسأل الناس بكفه وإن مات جوعاً قلت جعلت فداك فأين أطلب هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة فقال اطلبهم في أطراف الأرض أولئك الخفيض عيشهم المنتقلة دارهم الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا وإن مرضوا لم يعادوا وإن خطبوا لم يزوجوا وإن ماتوا لم يشهدوا أولئك الذين في أموالهم يتواسون وفي

قبورهم يتزاورون ولا تختلف أهواؤهم وإن اختلفت بهم البلدان»[١]. ثم شرع في تبيينه للحديث فقال: «لكن قول الإمام الصادق عليه السلام: (أما لو كملت العدة الموصوفة ثلاثمائة وبضعة عشر كان الذي تريدون ولكن شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه . . . الخ)، إنما يدل على علاقة بين ظهوره عليه السلام واكتمال عددهم، ولا يمكن الحكم بأنها علاقة سببية، فقد تكون علاقة في التقدير، وتكون السببية في الظهور وليس في الأصحاب. فالإمام الصادق عليه السلام ليس في مقام بيان نوع العلاقة، بل في مقام موعظة الشيعة ليرفعوا من مستوى إيمانهم، وأن الأصحاب الذين يظهر فيهم المهدي عليه السلام أرقى من معاصريه المدعين استعدادهم لنصرته[٢].

ونقول: إن كانت الرواية التي أوردها من غيبة النعماني من المتشابهات فأين الروايات المحكمة؟ وقد رأيتم كيف استقصينا حركات الأئمة عليهم السلام في الماضي من الصفحات، وكلهم يعللون سبب قعودهم بعدم وجود أنصار مخلصين لهم، وكذا قالوا عن علة غيبة الثاني عشر منهم عليهم السلام كما في رواية الإمام الباقر عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِذَا اجْتَمَعَ لِلْإِمَامِ عِدَّةُ أَهْلِ بَدْرٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالتَّغْيِير[٣].

وأعتقد أن أهل اللغة يعرفون كيف تعمل إذا الشرطية، فهي تعلق وجوب التغيير باجتماع العدة، أي أن اجتماع العدة، شرط للتغيير، وأن لا تغيير من دون اجتماع العدة المعدودة.

إلا إن كانت هذه الرواية من المتشابهات أيضاً كحال جميع أخواتها، وهي مبثوثة بالعشرات في مختلف المصادر على جميع مستويات هذه المصادر!.

ونقول أيضاً: لماذا هذا التكلف من قبل شيخنا الكوراني (أعزه الله)، مع أن الرواية التي أوردها واضحة الدلالة بقرينة سياقها وعشرات الروايات المؤيدة لمعناها، ومن قال له إن الإمام عليه السلام يقصد ما فهمه هو حيث يقول: «إنما يدل على علاقة بين ظهوره عليه السلام واكتمال عددهم، ولا يمكن الحكم بأنها علاقة سببية، فقد

(١) بحار الأنوار ج٥٢/ ٣٠٨.
(٢) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي، الشيخ الكوراني/ ٣٧٣ أ ٣٧٤.
(٣) م ن/ ٣٧٤.

تكون علاقة في التقدير، وتكون السببية في الظهور وليس في الأصحاب» انتهى. لماذا لا يمكن الحكم بأنها علاقة سببية مع هذا الكم من الروايات التي تعلل سبب عدم قيامه وآبائه عليهم السلام بعدم وجود أنصار لهم، ولا أعلم ماذا قصد بقضية التقدير، فهل التقدير زماني فقط بحيث يلتقون في زمان واحد، ولا أعلم هل أصبحنا نؤمن بالصدفة وننتظر تحققها من دون أن يكون لنا أي دور في عملية الإعداد؟ أم ماذا؟.

أما إن كان التقدير أن الله تبارك وتعالى قدر أن اجتماع هذه العدة الموصوفة سيؤدي إلى ظهور الإمام (روحي فداه)، فهذا الذي نقوله، ويكون الشيخ قد ناقض نفسه بنفسه!.

أما قوله: «فقد تكون علاقة في التقدير، وتكون السببية في الظهور وليس في الأصحاب».

فنرد عليه: إن كانت السببية في الظهور وليس في الأصحاب، فما معنى غيبته عليه السلام إذاً، وهو يستطيع بمجرد ظهوره أن يجمع العدة المعدودة، لأنه سيكون السبب في اجتماعهم، ويخلص العالم من الشرور والآثام، وبالأخص شيعته من بلاء القتل والسبي والتشريد، في سبيل محبته وآبائه عليهم السلام. وإذا كان هو السبب في اجتماعهم، فما معنى الروايات الكثيرة التي تردد فيها قولهم عليهم السلام: «أما لو كملت العدة المعدودة»، أليس من الصحيح على هذا الفرض، أن يقولوا: «أما لو ظهر المهدي لكملت العدة المعدودة»، إن كان هو السبب في اجتماعهم كما يقول الشيخ الكوراني وليس العكس؟.

فعلى القول الأول، يثبت ما قلناه من أن العلة هي عدم وجود الأنصار، لذلك تكرر قولهم عليهم السلام في حث الأمة على العمل لإكمال هذه العدة المعدودة، وأما على القول الثاني وهو الذي يتلاءم مع رأي الشيخ، يكون المطلوب هو إكمال العدة بظهور الإمام، فيكونون هم الغاية، وهو عليه السلام الوسيلة، وهذا خلاف عقيدتنا وما نؤمن به، فلا يكون إلا ما أردناه.

وأليس هذا خلاف ما جاء في القرآن والأحاديث الشريفة كما جئنا بها في الفصول المتقدمة من هذا البحث، لاسيما أن القرآن يقول إن السيئة من أنفسكم وإن الحسنة من الله، ولا أعلم أين يضع الشيخ الكوراني غيبة الإمام عليه السلام في خانة

الحسنات أم السيئات؟ ومن هو المسؤول عن آلام البشرية، هل هو الإنسان أم الله (حاشاه)؟ فإن كانت الغيبة من دون مبرر كما يزعم الشيخ الكوراني، كما هو المفهوم من حديثه الذي ينفي فيه إمكانية ظهور الإمام من قرون لو كمل أصحابه، ويعتقد أنه يبقى غائباً حتى لو كملت هذه العدة لأن الأمر بيد الله، وكأنه يرمي بطرف خفي أن إرادة الإمام، غير إرادة الله، وأن الإمام لو عاد الأمر له لظهر، بيد أن الأمر ليس بيده، وبهذا تكون المسؤولية تقع على الله سبحانه وتعالى عن ذلك ويكون هو الملام عن تسلط الظالمين على الأرض، إذ يستطيع أن يسمح للإمام بالظهور، الذي بدوره يكون سبباً لاكتمال العدة في تصور الشيخ الكوراني، وبهذا نخلص وحسب قناعات الشيخ إلى أن لا ذنب للناس في كل ما يجري وأن الذنب يقع على غيرهم (حاشا لله واستغفر الله من هذا التصور).

أليست هذه سفسطة لا تمت إلى فهم السنن القرآنية بشيء، بل لا تمت حتى إلى فهم السنن الاجتماعية في التغيير، أليس القرآن يصرح منذ أربعة عشر قرنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، وأن مصداق هذا التغيير هو في توفر هذه العدة المنتظرة التي ستكون سبباً في تحريك عجلة السنن الإلهية بالتغيير، أليس القرآن يصرح بأن الإمام من النعم الإلهية بل هو أصلها ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[2] وأن النعمة التي لا يؤدى شكرها يسلبها الله من العبد، ومتى ما عاد إلى الله وتاب عن ذنبه وجحوده رد الله إليه هذه النعمة، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[3] الآية أوضح من أن تشرح، وهي من السنن الإلهية في تسلط العذاب على الأمم، فقد ذاقت هذه القرية لباس الجوع والخوف بكفرها بالنعم الإلهية وتحملت نتيجة صنيعتها، فلا أعلم ألم يقرأ الشيخ الكوراني هذه الآيات ويتدبرها؟ أم لا يعتبر أن الإمام هو النعمة الإلهية التي سنسأل عنها يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[4] والنعيم في هذه الآية، هم الأئمة عليهم السلام كما هو ثابت تفسيريا.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٤) سور التكاثر، الآية: ٨.

لا أريد الاسترسال في هذا الموضوع فقد تعرضنا لبيانه في ما مضى من البحث. والغريب أن الشيخ يقول إن هذه الشبهة كانت في أذهان المخالفين، وكأن لا أصل روائي لها ولم يتحدث عنها أئمتنا عليهم السلام والأغرب أنه يأتي برواية للشيخ المفيد كشاهد على ما يريد وهي تتحدث بخلاف ذلك على طول الخط ثم يعلل ما أراده الشيخ المفيد رحمه الله فيها لا بما فهمه المفيد من الأحاديث الشريفة حول هذا الموضوع، بل يقول ورجما بالغيب إن ما قاله المفيد هو مجاراة للسائل المخالف، وهو مما لا دليل عليه إلا في ذهن الشيخ الكوراني (حفظه الله)، يقول: «وقد كانت هذه الشبهة في أذهان المخالفين، فقد كانوا يتصورون أن الشيعة وإمامهم ينتظرون وجود[1] مؤمنا كاملي الإيمان حتى يظهر إمامهم!.

ففي رسائل في الغيبة للمفيد رحمه الله: ٣/ ١١: قال الشيخ المفيد رحمه الله: «حضرت مجلس رئيس من الرؤساء فجرى كلام في الإمامة فانتهى إلى القول في الغيبة. فقال صاحب المجلس أليست الشيعة تروي عن جعفر بن محمد ع أنه لو اجتمع للإمام عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً لوجب عليه الخروج بالسيف. فقلت قد روي هذا الحديث. قال أولسنا نعلم يقينا أن الشيعة في هذا الوقت أضعاف عدة أهل بدر فكيف يجوز للإمام الغيبة مع الرواية التي ذكرناها. فقلت له إن الشيعة وإن كانت في وقتنا كثيرا عددها حتى تزيد على عدة أهل بدر أضعافا مضاعفة فإن الجماعة التي عدتهم عدة أهل بدر إذا اجتمعت فلم يسع الإمام التقية ووجب عليه الظهور لم تجتمع في هذا الوقت ولا حصلت في هذا الزمان بصفتها وشروطها وذلك أنه يجب أن يكون هؤلاء القوم معلوما من حالهم الشجاعة والصبر على اللقاء والإخلاص في الجهاد وإيثار الآخرة على الدنيا ونقاء السرائر من العيوب وصحة العقول وأنهم لا يهنون ولا ينتظرون عند اللقاء ويكون العلم من الله تعالى بعموم المصلحة في ظهورهم بالسيف وليس كل الشيعة بهذه الصفة ولو علم الله تعالى أن في جملتهم العدد المذكور على ما شرطناه لظهر الإمام عليه السلام لا محالة ولم يغب بعد اجتماعهم طرفة عين لكن المعلوم خلاف ما وصفناه فلذلك ساغ

(١) ميزان الحكمة ج١/ ١٦٨.

للإمام الغيبة على ما ذكرناه. قال ومن أين لنا أن شروط القوم على ما ذكرت وإن كانت شروطهم هذه فمن أين لنا أن الأمر كما وصفت.

فقلت إذا ثبت وجوب الإمامة وصحت الغيبة لم يكن لنا طريق إلى تصحيح الخبر إلا بما شرحناه فمن حيث قامت دلائل الإمامة والعصمة وصدق الخبر حكمنا بما ذكرناه. ثم قلت ونظير هذا الأمر ومثاله ما علمناه من جهاد النبي ص أهل بدر بالعدد اليسير الذين كانوا معه وأكثرهم أعزل راجل ثم قعد ص في عام الحديبية ومعه من أصحابه أضعاف أهل بدر في العدد وقد علمنا أنه ص مصيب في الأمرين جميعا وأنه لو كان المعلوم من أصحابه في عام الحديبية ما كان المعلوم منهم في حال بدر لما وسعه القعود والمهادنة ولوجب عليه الجهاد كما وجب عليه قبل ذلك ولو وجب عليه ما تركه لما ذكرناه من العلم بصوابه وعصمته على ما بيناه. فقال إن رسول الله ص كان يوحى إليه فيعلم بالوحي العواقب ويعرف الفرق بين صواب التدبير وخطئه بمعرفة ما يكون فمن قال في علم الإمام بما ذكرت وما طريق معرفته بذلك. فقلت له الإمام عندنا معهود إليه موقف على ما يأتي وما يذكر منصوب له أمارات تدله على العواقب في التدبيرات والصالح في الأفعال وإنما حصل له العهد بذلك عن النبي ص الذي يوحى إليه ويطلع على علم السماء ولو لم نذكر هذا الباب واقتصرنا على أنه متعبد في ذلك بغلبة الظن وما يظهر له من الصلاح لكفى وأغنى وقام مقام الإظهار على التحقيق كائنا ما كان بلا ارتياب لاسيما على مذهب المخالفين في الاجتهاد وقولهم في رأي النبي ص وإن كان المذهب ما قدمناه.

فقال لم لا يظهر الإمام وإن أدى ظهوره إلى قتله فيكون البرهان له والحجة في إمامته أوضح ويزول الشك في وجوده بلا ارتياب. فقلت إنه لا يجب ذلك عليه، كما لا يجب على الله تعالى معاجلة العصاة بالنقمات وإظهار الآيات في كل وقت متتابعات، وإن كنا نعلم أنه لو عاجل العصاة لكان البرهان على قدرته أوضح، والأمر في نهيه أوكد، والحجة في قبح خلافه أبين ولكان بذلك الخلق عن معاصيه أزجر وإن لم يجب ذلك عليه ولا في حكمته وتدبيره لعلمه بالمصلحة فيه على التفضيل فالقول في الباب الأول مثله على أنه لا معنى لظهور الإمام في وقت يحيط العلم فيه بأن ظهوره منه فساد وأنه لا يؤول إلى إصلاح وإنما يكون ذلك حكمة

وصوابا إذا كانت عاقبته الصلاح ولو علم ع أن في ظهوره صلاحاً في الدين مع مقامه في العالم أو هلاكه وهلاك جميع شيعته وأنصاره لما أبقاه طرفة عين ولا فتر عن المسارعة إلى مرضاة الله جل اسمه لكن الدليل على عصمته كاشف عن معرفته لرد هذه الحال عند ظهوره في هذا الزمان بما قدمناه من ذكر العهد إليه ونصب الدلائل والحد والرسم المذكورين له في الأفعال. فقال لعمري إن هذه الأجوبة على الأصول المقررة لأهل الإمامة مستمرة والمنازع فيها بعد تسليم الأصول لا ينال شيئا ولا يظفر بطائل»[١].

والغريب أن الشيخ الكوراني بعد أن لم يجد من الروايات والأحاديث ما يؤيد به كلامه، واضطر إلى أن يأتي بهذه الرواية التي هي عليه لا له، حاول أن يحرفها عن مسارها بعبارات لا يخلو فيها التردد والتكلف منه (حفظه الله) حيث استخدم (قد) التي تفيد التقليل إن جاءت قبل الفعل المضارع كما هو واضح من سياق كلامه الذي سيأتي، ولا أعلم لماذا هذا الإصرار على رأيه الذي يخالف أحاديث أهل البيت عليهم السلام !؟ حيث يقول في توجيهه لرواية الشيخ المفيد ما نصه: «أقول: قد يكون جواب المفيد رحمه الله مجاراة لذلك الرجل، أما إن قصد أن الإمام عليه السلام هو الذي يعين وقت ظهوره وأنه ينتظر وجود هؤلاء الأصحاب، فلا يصح، لأن الله تعالى يتولى أمره بالكامل ومن أهمه تعيين وقت ظهوره، وقد نصت على ذلك أحاديث كثيرة، ومنها أنه عليه السلام يؤذن له فيدعو ويبدأ ظهوره[٢]. العجيب في الأمر أنه كيف فهم الكوراني من كلام الشيخ المفيد رحمه الله أن الإمام له من الأمر شيء من دون الله! وهل يقول بهذا الكلام شيعي بسيط فضلاً عن الشيخ المفيد وهو الذي يعرف الشيخ الكوراني مقدار فضله وعلمه.

الشيخ المفيد تحدث عن علة الغيبة ولم يتحدث عن تفويض الله للإمام باختيار وقت ظهوره!! ولا قال إن الإمام هو من يعين الوقت!!.. وهذا ما يفهمه أبسط الناس من هذه الرواية فكيف لم يفهم ذلك الشيخ الكوراني مع سعة علمه!!؟.

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي/ ٣٧٤ - ٣٧٧.
(٢) م ن/ ٣٧٧.

والأنكى أن الشيخ الكوراني استرسل في فهمه الخاطئ للأمر وراح يتحدث عن ذلك في الصفحة التي تلت ذلك في معجمه وجاء برواية يؤكد فيها أن ليس للإمام أن يقترح على ربه شيئاً وأن الأمر كله لله! وكأن الشيخ المفيد قد قال غير ذلك.

يقول بعد أن جاء برواية يستدل بها على أن الأمر كله لله: «أقول: يدل ذلك على أن إرادة المعصوم عليه السلام في هذا النوع من الأعمال تابعة لإرادة الله تعالى، وأنه لا يتصرف من نفسه ولا يستعمل ولايته التكوينية بل ينتظر الإذن والأمر من الله تعالى! فالأصل عنده أن يعمل ويعيش بالأسباب العادية، إلا إذا ابلغه الله تعالى بهاتف أو إلهام أو أي طريق، أن يعمل شيئا آخر أو يدعوه بشيء! وهذا معنى تفوق النبي وآله صلى الله عليه وآله على غيرهم بأنهم لم يقترحوا على ربهم عز وجل شيئا. وظهوره عليه السلام من أهم الأمور التي لا يتقدم فيها أمر الله تعالى»[1].

أخي القارئ أرجو أن تعيد قراءة حديث الشيخ المفيد رحمه الله مرة أخرى علك تجد ما لم أجده، أو تتأكد أن الشيخ الكوراني يتحدث بواد والشيخ المفيد بواد آخر. وعليه يثبت ما ذهبنا إليه وهذا ما أكده الشيخ المفيد رحمه الله بحديثه السالف من أن من أهم أسباب الغيبة أو سببها الرئيسي والله أعلم، أو هذا المفهوم من أحاديثهم عليهم السلام هو عدم وجود أنصار مخلصين يثبتون عند اللقاء والإصلاح، ولديهم من العلم والحلم والحكمة وسائر الصفات الحميدة الأخرى ما يؤهلهم لحمل راية التغيير.

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي/ ٣٧٨.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تمهيد	٩
الفصل الأول: اختيار السماء وعلة الغيبة	١٣
علة واحدة لجميع الأسباب	١٧
أ: إنها سر من الله	١٧
القاعدة الثانية	٢١
معنى السر	٢٤
ب: الخوف من القتل	٣٠
فرج السبعون والمائة وأربعون	٣٥
الفصل الثاني: هل الإسلام (الفكرة) قادر على إدارة الحياة؟	٣٧
بين يدي الموضوع	٣٩
دعوة للحوار	٤٢
دليل العقل	٤٣
دليل النقل	٤٤
شهادات للإسلام من أعمدة الفكر الغربي	٥٨

عن القرآن ٥٩
الإسلام دين الفطرة/ واقعية الإسلام ٦٠
شمولية الإسلام لجميع مناحي الحياة ٦١
الشيوعيون يقرون بأحقية الإسلام ٦٢
رسول الإسلام محمد ﷺ ٦٣
الإسلام والعلم ٦٤
المساواة في الإسلام ٦٧
المرأة في الإسلام ٦٨
تعدد الزوجات ٧٠
نساء ألمانيا يطالبن بالسماح بتعدد الزوجات ٧١
الزواج المؤقت (المتعة) ٧٢
الزواج والطلاق في الإسلام ٧٤
القضاء في الإسلام ٧٥
الإسلام والحرب ٧٦
الإسلام وتحريم الخمر والميسر (القمار) ٧٧
إقرار بفشل النظم (الماركسية والرأسمالية) التي تقود المجتمعات الغربية ٧٩
يتنبؤون بقيام دولة المهدي الإسلامية في مقبل الأيام ٨١
الفصل الثالث: هل الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) أو (القائد المنقذ أو مدير المشروع) جاهز للقيام بأعباء إقامة دولة العدل المنتظر؟ ٨٣
تناقض واضح ٨٩
ملاحظة مهمة ٩٠
الدليل العقلي ٩٢
مناقشة السيد الصدر (رض) ٩٤
رد دعوى أن الإمام غير جاهز فكرياً ٩٩

رد دعوى أن الله أمد بعمره وغيّبه حتى لا يتأثر بالحضارة القائمة ١٠٣
تقسيمات الوحي ١٠٩
١ - الوحي التكويني ١٠٩
٢ - الوحي التشريعي ١١٠
تقسيمات الوحي التشريعي ١١٠
معنى الوحي في الآية ١١١
٣ - الوحي الإرشادي ١١٣
دليل العقل ١١٤
دليل النقل ١١٥
مصادر علم الإمام ١١٦
الإلهام وحديث الملائكة ١١٦
ادّعوا الإلهام هروباً من الإقرار بالوحي للأئمة عليهم السلام ١٣١
القذف في القلب هل هو وحي أم إلهام أم كلاهما؟ ١٣٢
معنى الإلهام ١٣٥
روح القدس ١٣٨
العلم اللدني ١٣٩
التعليم والوراثة من النبي صلى الله عليه وآله ١٤٠
الصحيفة ١٤٠
الجامعة ١٤١
الجفر ١٤٢
مصحف فاطمة عليها السلام ١٤٢
الإمام خليفة الله في أرضه ١٤٣
ما معنى أن يكون الإنسان خليفة لله؟ ١٤٤
هكذا يجب أن نعرف الإمام عليه السلام ١٤٨

الله يصف الإمام ١٤٨
باب الله ونظرية الفيض ١٥١
ملاحظة أخيرة ١٥٥
رسول الله ﷺ يصف الإمام ١٥٦
أمير المؤمنين عليه السلام يصف الإمام ١٥٨
الإمام الحسين وولده زين العابدين عليهما السلام يصفان الإمام ١٦١
الإمام الباقر عليه السلام يتمنى نصرة الإمام (عجل الله فرجه) ١٦٣
الإمام الصادق عليه السلام يتمنى خدمته (روحي فداه) ١٦٣
الخلاصة ١٦٤
الفصل الرابع: الأذرع الصالحة أو الأنصار والأعوان: (الأيدي العاملة) ١٦٥
ج: معاقبة الناس بنزع الحجة من بين أظهرهم ١٦٧
د: حتى يصفو الكدر ويبقى الخلص من المؤمنين ١٦٨
هـ: حتى لا تبقى فئة تقول لو حكمنا لعدلنا ١٧١
و: حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً ١٧٤
ز: انتظاره للعدة المعدودة من أصحابه ١٧٥
ح: حتى لا تكون لأحد الطواغيت بيعة في عنقه. ١٧٦
ط: لو تزيلوا لأنزلنا عليهم العذاب ١٧٨
الغيبة والتجربة العراقية ١٨٢
البحث القرآني ١٨٥
الرد ١٨٦
لوط عليه السلام يفلسف قعوده عن قتال قومه ومنع إفسادهم ١٨٨
احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام بالقرآن ١٩٠
القرآن وأنصار القائم عليه السلام ١٩٤
البحث الروائي ١٩٥

وصية الرسول الأكرم ﷺ للأمير عليه السلام بضرورة أن يكون معه أعوان، وإلاّ فالقعود أولى ١٩٦
أمير المؤمنين عليه السلام يبين علة قعوده ١٩٨
إيضاحات في نهج البلاغة ٢٠٠
حركة الإمام الحسن عليه السلام ٢٠٣
حركة الإمام الحسين عليه السلام ٢٠٩
ثورة الإمام الحسين عليه السلام من المشيئة إلى القضاء ٢١٢
معنى المشيئة ٢١٣
مقاربة عرفية ٢١٦
حركة الإمام علي بن الحسين عليه السلام ٢٣١
حركة الإمام الباقر عليه السلام ٢٣٢
حركة الإمام الصادق عليه السلام ٢٣٣
حركة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ٢٣٨
حركة الإمام الجواد عليه السلام ٢٣٩
حركة الإمام الحجة (أرواحنا له الفداء) ٢٤١
خلاصة الفصل ٢٤٣
الفصل الخامس: الشروط أو الصفات المطلوب توفرها في أنصار الإمام .. ٢٤٧
أسلوب القرآن الكريم في بناء الإنسان الكامل ٢٥١
ملخص الرواية ٢٦٠
الحد الأول للعبودية ٢٦٥
الحد الثاني للعبودية ٢٦٥
الحامدون ٢٦٧
الراكعون ٢٧٢
الساجدون ٢٧٢

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ٢٧٤
الحافظون لحدود الله ٢٧٥
صفات أخرى ٢٧٦
فالصفات العقائدية مثلاً تتمثل بأنهم ٢٧٧
(أ) أحكموا علم التوحيد ٢٧٧
(ب) لا يشوبهم شك في ذات الله ٢٧٧
الصفات الأخلاقية ٢٧٨
الصفات العبادية ٢٧٩
الصفات الولائية ٢٧٩
الصفات الحربية أو القتالية ٢٨٠
ملاحظة مهمة ٢٨٠
نقاش مع الشيخ الكوراني ٢٨١